الغرب وصناعة الكراهية

" في نقد الإسلاموفوبيا والعولمة "

أحمد رشاد حسانين

الغرب و صناعة الكراهية
" في نقد الإسلاموفوبيا والعولمة " / دراسة
أحمد رشاد حسانين
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٨

دار اكتب للنشر والتوزيع
القاهرة ، اش المعهد الديني ، المرج
هاتف : ٠٢٢٤٤٠٥٠٤٧
موبايل : ٠١٢٩٢٥١٥٩٢ - ٠١٨٢٣٦٣٠٣٥
E – mail : dar_oktob@gawab.com
المدير العام :
يحيى هاشم
تصميم الغلاف :
حاتم عرفة
رقم الإيداع : ٢٠٠٨/٢١٧٠٧
I.S.B.N:978- 977- 6297- 57- 9

الغرب وصناعة الكراهية

" في نقد الإسلاموفوبيا والعولمة "

دراسة

أحمد رشاد حسانين

الطبعة الأولى

٢٠٠٨

OKTOB.NET

دار اكتب للنشر والتوزيع



تمهيد

الإسلام والغرب ، هذان العالمان، المتداخلان المنفصلان ، الملتقيـــان المبتعدان ، المتفاهمان حيناً المتناحران حيناً أخر . هل همـــا إلى تعـــايش وتفاهم وحوار . أم إلى تنافر وصراع وصدام

ذلك هو التساؤل المطروح ، وليس من الغريب أن يكون مطروحـــاً بصيغة استفهامية تنطوي على شيء من القلق والتطلع ، وتجمـــع بـــين التفاؤل والتشاؤم معاً .

وحقيقة الأمر ، أن معطيات عقدين تقريباً من زمن الألفية الثالثـــة التي نحياها ، تسهم لاشك في طرح الموضوع بهذه الـــصيغة ، وتغـــذي إحساس القلق الذي ينطوي عليه السؤال .

فهذان العقدان اللذان أوشكا على الانصرام ، حفلا بالعديد مـــن الصدامات والحروب ، وخلفا الكثير من الآلام والجروح ، وقدراً كبيراً من الحذر والتوجس والشكوك ، فبدا الطرفان "موضوعا الـــسؤال " — للناظر والمراقب — كما لو كانا متناقضين بل متـــصارعين وكأنهمـــا خصمان لدودان ، وحينئذ نتذكر مقولة الشاعر الانجليزي " روديـــار كيبلنج" في سنة ١٨٩٢ بأن " الشرق شرق والغرب غرب وهما أبداً لا يلتقيان حتى تلتقي الأرض والسماء حضوراً تحت كرسي العرش يـــوم الحساب " .

ونتذكر بذلك أيضاً حقباً من الصدامات والصراعات الدامية سواء في العصر الوسيط أم في العصر الحديث ، هذا بالرغم مما بين الطـــرفين من قواسم كثيرة مشتركة وإسهام لكل منهما بارز في العطاء الحضاري

الإنساني ، ومحاولات لم تنقطع بينهما للحوار حتى في أشد الأوقات توتراً وعنفاً ، بل وعلاقات دبلوماسية قائمة مستمرة ، لا تهتز كثيراً أمام الانفعالات أو تنبت إزاء صيحات العداوة وصرخات التعصب التي تعلو بين الحين والأخر من كل من الطرفين على السواء .

إننا لا نستطيع أن نغفل كم من المرات افتتن بها الغرب بالشرق ، والشرق بالغرب ، وحرص كل منهما على أن يرى صورته وقد انعكست على صفحة الأخر .

إننا جميعاً نعلم أن كتب التاريخ تحدثت عن نوع من الالتقاء والتزاوج أحياناً ين الفريقين . وهل ننسى حين تزوج " الإسكندر الأكبر المقدوني من " ساتيرا " ابنة " داريوس " أخر ملوك دولة الفرس الأولى ليدشن بهذا الزواج مشروعه الطموح لصهر الشرق والغرب في حضارة واحدة ؟

كما لا ننسى أن " يوليوس قيصر " اتخذ من " كليوباترا " أخر سلالة البطالمة في مصر – زوجةً له ليجعلا من ابنهما " قيصرون " إمبراطوراً يجمع تحت لوائه حضارتي الشرق القديم والغرب الفتى معاً في حضارة واحدة .

وماذا عن شبه جزيرة أيبيريا (الأندلس) حين كانت تتألق هناك حضارة العرب المسلمين مصيغة نموذجاً رائعاً ونمطاً فريداً للمزج الإنساني والعطاء الحضاري .

وفضلاً عن ذلك كله ، فإن عالمنا المعاصر لم يعد يعتمد الحروب والصراعات وسائل لحل المشكلات العالقة بين الأمم والحكومات ، وإنما غدا شديد الاهتمام بضبط النفس واللجوء إلى الوسائل والقنوات السلمية والدبلوماسية والتحلي بأكبر قدر من المثابرة في هذا السبيل .

وإذا كان سؤال البحث ، والذي سيحاول البحث نفسه – أن يكـــون إجابة عليه – يحمل كما أشرنا شيئاً من الحذر والتـــوجس ، فإنـــه في نفس الوقت يحمل بالقدر نفسه – حتمية الحوار وضرورته ، الحـــوار كخيار لا بديل عنه ولا مندوحة لتصحيح المسار وتعديل الخطابـــات والعودة لمسيرة الحياة الطبيعية التي تـــأبى إلا التواصـــل والاســـتمرار ، وتفرض بحتميتها سنة التعايش السلمي والتبادل المشترك بين بني البشر ، وتوجب دوام العطاء واستكمال دورات الحضارة الإنسانية ، تعمـــيراً وتطويراً حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

إنها سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

أحمد رشاد حسانين

بورسعيد في إبريل ٢٠٠٧م



الفصل الأول

" نقد العولمة ، مشروع الغرب للألفية الثالثة"



١- واقع اللحظة الآنية :

قراءة في خريطة الكوكب

إن نظرة أولية لخريطة العالم تقول : أن هنالك خطاً أفقياً يدور حول كوكبنا يكاد يقسم عالمنا البشري إلى نصفين كبيرين شديدي التفاوت

أولهما : النصف الشمالي للكرة الأرضية وهو في عمومه يتسم بالغنى والثروة والقوة ومستويات الخدمات والدخول المرتفعة

والأخر : نصفها الجنوبي حيث مناطق واسعة مزدحمة بالسكان تعاني الفقر والمجاعات والأوبئة وموجات تهجير بشرية متكررة في نطاقه نتيجة لما سبق ، وأيضاً لوجود أكثر من بؤرة من البؤر الساخنة بسبب الحروب والتراعات سواء" السياسية أو الجغرافية أم تلك التي تتسم بالعرقية والمذهبية والإثنية ، ولا شك أن هذا الوضع القائم ومنذ عقود طويلة مضت يثير كثيراً من المعاني والدلالات وهو في حد ذاته يشكل مصدراً دائماً للقلق والتوترات بين الشمال ذي الرفاهة والرخاء ، والجنوب الذي يعج بمشكلات الفقر ولواحقه ، وإذا كان العالم الإسلامي يشكل المساحة الأكبر من جنوب الكرة الأرضية ، فإن المعاني والدلالات التي أثيرت تزداد كثافة وجهامة وتدعونا إلى الشك بأن هذا الوضع الشديد الاختلال يراد له أن يتكرس ويتدعم عقداً بعد عقد حتى في ظل شعارات عولمة الألفية الثالثة عن " القرية الكونية الواحدة " والأسواق المفتوحة والرخاء والرفاه والعدالة التي ستطال الجميع .

٢- تساؤلات حول " عولمة " الغرب :

والعولمة مشروع الغرب الرأسمالي وبصفة خاصة النيوبرالي بشقيه الأمريكي الأوربي للألفية الثالثة وشعارات العولمة ومقولاتها إنما تعبر في النهاية عن عالم بشري تحاول الحضارة الغربية – المتفوقة مادياً وتكنولوجياً – إعادة صياغته وتشكيله ، وتلعب الولايات المتحدة الأمريكية زعيمة العالم الغربي وقطب العولمة الرئيسي دوراً أساسياً وجوهرياً في تنظير قواعده ، وتفعيل آلياته فيما يسمى " بالنظام العالمي الجديد " وتطير لنا وكالات الأنباء عبر وسائل الأعلام ، سواء من عواصم الغرب أو " مبنى الأمم المتحدة " ومنظماتها – فعاليات هذه التنظير وتلك الآليات والمراقب لما يصدر عن هذه المحاولات المصحوبة بالدعائية المبهرة وذلك النشاط التسويقي المحموم ، وما يصاحب ذلك من صخب ولغط وأحياناً عنف وصدام (أحداث جنوة ، سياتل ، دافوس) – المراقب لذلك كله يجد نفسه مضطراً لمحاولة فهم ما تنطوي عليه العولمة من حقائق وما تحويه بمفهومها الغربي من مضامين ، ذلك لأن العالم الإسلامي وسكانه الذين يشكلون سدس سكان الكوكب تقريباً – إنما يشكلون سوقاً بل أسواقاً كبيرة ورائجة – لحركة- المال العولمي وتدفق استثماراته والدفع بمنتجاته بجميع أنواعها سواء المادية أم غير المادية – وفي مقاربتنا في هذا الفهم للعولمة – الغربية ، نقول بداية: إن أدوات العولمة من وسائط ووسائل معرفية وأساليب آخذة بمكتسبات الثورة التكنولوجية والانفجار المعرفي – إن كل ذلك ثمرات لجهد بشري ، يحق للإنسان أن يفخر به ، وهي أدوات لاشك – أنها تساهم بفاعلية وسرعة في ازدهار المجتمعات الإنسانية وتطورها ولكننا

للأسف نرى هذا التطور والازدهار مقيداً ومشروطاً بمفاهيم وتصورات الحضارة الغربية ، وخاصة تلك التي تتعامل بها مع الإسلام والمسلمين .

إن الكوكبية بمعناها الإنساني الشامل ، كانت دائماً طموحاً غالياً تسعى البشرية لتحقيقه ، ويظل هذا الطموح أكثر الأشواق الإنسانية إلحاحا ، وأشدها ضرورة من ذي قبل ، والعولمة تزعم أنها تبشر بذلك وتؤكد عليه ...... ولكن هل هذا التبشير وذلك التأكيد قائم بالفعل ؟ وان كان قائماً ، فهل يتم بأعراف تحترم الصوت " الأخر " أو تضع اعتباراً لضفاف أخرى من النهر؟ وهل قوانين العولمة أو الفلسفات الكامنة وراء هذه القوانين إن كان هنالك ثمة فلسفة — هل تفسح مجالاً لثقافات الشعوب أو تدع مساحة مشروعة في خلية الاستنساخ الجديدة لعالمنا — لجينات " الهوية " " وموروثات " الشخصية لإتباع وأصحاب الثقافات والحضارات الأخرى ؟

أليس من حق أصحاب كل حضارة وثقافة أن يختاروا النظم والأساليب التي هي أكثر ملائمة واستجابة لظروفهم ،وأنسب لتحقيق مشاريعهم وطموحاتهم ؟

إن صياغة " عولمة " يكاد يتفق عليها بنو الإنسان لهي أمر جد عسير وإنها لتحابه بكثير من المعوقات والمحاذير ، وتناقضات تضارب المنافع ، وتباين المصالح وصراع الأيديولوجيات ، ومن جانب أخر ، ألا يحق لنا ونحن جزء هام وأساسي على أجندة العولمة أن نتسائل — عن مدى ما في هذه العولمة الأميركية من شفافية ؟

– هل نضمن انتفاء أي توجه يتضمن نوعاً من البراجماتية الضيقة ، أو مما زال يحمل بقايا من أوهام التفوق العرقي والتميز العنصري ؟

- هل نركن مطمئنين إلى أن الغرب تجاوز بالفعل – نزعة الكونيالية وتبني بصدق مقولات إنسانية مغايرة ، وأكثر سماحة وشمولاً ؟

لقد كان (فرانسيس يوكوهاما) في غاية الانتشاء – وهو يعلن عن انتصار الحضارة الغربية الليبرالية ، بعد ذلك السقوط المدوي لجزء أخر من الحضارة الغربية نفسها ، وأقصد به النظم الماركسية والشمولية ، وعلى رأسها تلك (الحفرية) التي كانت تسمى الاتحاد السوفيتي... نعم أعلن يوكاهاما في (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) انتصار الغرب الليبرالي بزعامة أمريكا.... ولكن ألم يسائل نفسه :

ما الثمن الذي دفعته البشرية حتى أتيح للغرب أن يعلن ذلك الانتصار التاريخي المحوري ؟

وما مدى جسامة الانتكاسات الإنسانية التي خلفها المسد الغربي الجارف منذ عصر الكشوف والمغامرات الجغرافية حتى يومنا هذا ؟

إن اطروحة " صدام الحضارات " لصمويل هنتنجتون " يمكن أن تكشف لنا عن هذا التساؤل المفعم بالأهمية والمرارة معاً ، فالرتوش واللمسات الأخيرة لخريطة الكوكب ، وهي تطوي مع نهاية القرن العشرين المنصرم وفي أخر مشاهدها – تجعلنا ندرك ويدرك معنا العالم- ما حاق بكوكبنا من كم هائل من الحطام وأركام من الضحايا وجبال من الآلام والويلات !! وخلاصة ذلك المشهد في إيجاز كانت على النحو التالي :

١- حروب إبادة وتطهير عرقي للمسلمين في البلقان لم يشهد لها التاريخ مثيلاً في قسوتها وبشاعتها وفداحة ما خلفته من مآس ونكبات

وجرائم مازالت تتكشف يوماً بعد يوم بمجرد نبش التربة في البوسنة والهرسك وكوسوفا .

– أليسَ في هذا تطبيقات لمفاهيم الغرب وممارساته ؟

– ألا نجد في ذلك رفضاً مقيتاً لكيانات مستقلة للإسلام في أوربا ؟ ألا نجد فيه أيضاً نوعاً من تمهيد الأرض للعولمة ؟

١– تدعيم وحراسة غير مسبوقة لنظام العسكر في تركيا هذا النظام الذي يتخفى وراء قناع مشوب من الديمقراطية ، في حين أن أسباب بقائه وديمومته مشروطة بمدى يقظته وترصده لأدنى خطر يهدد العلمانية والانقضاض على أية محاولة ولو سلمية يحاول أن يعبر بها الشعب التركي المسلم عن رغبته العارمة وشوقه الجارف في العودة لإسلامه والتمسك بهويته .

٢– إطلاق يد الهند في شبه القارة الهندية خاصة في ظل حكم سلطات هندوسية متطرفة بهدف قمع مسلمي الهند وتحجيم الباكستان وترسيخ الأوضاع اللاإنسانية في البنجاب وكشمير وإثارة القلاقل بين الآونة والأخرى في البنجلاديش باستخدام متمردي التاميل

٣ – عمليات طال أمدها ومنذ عهد الاستعمار الهولندي في جنوب شرق أسيا لتغيير الواقع الديموجرافي ذي الأغلبية المسلمة – عن طريق التبشير والتنصير حيناً والإزاحة والتمرد حيناً أخر ، علاوة على القيام بمغامرات اقتصادية (أمريكية – صهيونية) لإحداث هزات عنيفة لاقتصاديات دول المنطقة وأسواقها المالية مما حدا بمها تير محمد أن يوجه انتقادات لاذعة لهذه الدوائر المتهمة بالتآمر .

١- سلسلة - لا تنقطع من جرائم التنكيل والتصفية لمسلمي الصين والفلبين الذين يطالبون بأنظمة كونفدرالية في غرب الصين وجنوب الفلبين تحقق لهم قدراً من الاستقلالية والعيش بسلام .

٢- فإذا انتقلنا إلى قلب العالم الإسلامي في الشرق الأوسط فلن ننسى في إطار أحداث العقدين الأخيرين من القرن العشرين الماضي :

٣- حربين طاحنتين في الخليج العربي استهدفت أولاهما ضرب الثورة الإسلامية في إيران ، بينما استهدفت الثانية تحجيم نظام صدام حسين وإجهاض ألته العسكرية بعد أن بدأ يخرج عن قواعد اللعبة ويعي عبثية حربة الحمقاء ضد إيران لسنوات ثمان عجاف ، فتم غوايته بالكويت" بهدف القضاء على ما كرسته مخازنه من أسلحة كان مصدرها ترسانات الغرب نفسه !!

٢- شرق أوسط جديد تديره إسرائيل مصاغاً بمفاهيم الأمن والتوسع مستغلة تناقضات العرب وهرولتهم صوب مسارات سلمية وهمية ليتم لإسرائيل في النهاية السيطرة على السوق الشرق أوسطية لتصب مكاسبها في شرايين الصهيونية - المسيحية العالمية الجديدة ، وتلعب الولايات المتحدة بمعاييرها المزدوجة في هذا الأمر - دور الشريك الكامل الأساسي المنحاز لإسرائيل ، المناهض لمصالح العرب فيما يسمى باطلاً عملية " صنع السلام الشامل " "!!

٣- أما " إفريقيا " القارة المسلمة ، فقد أرهقها الغرب بسلسلة متصلة الحلقات من الانقلابات ومغامرات العسكر والحروب الأهلية لترسيخ التبعية السياسية والاقتصادية مصادرين حق شعوبها في صياغة مستقبلها وخيارها السياسية ومازال يترتب على تلك السياسات

والتداخلات الغربية تداعيات من الدمار والعنف يستترف قوى شعوب إفريقيا المسلمة كالذي نراه يحدث في الجزائر والصومال والصحراء الغربية ونيجيريا وأوغندا وجنوب السودان واريتريا وغيرها.

٤- ولم يكتف الغرب وهو صاحب ارث وتاريخ دموي حافل بما اقترفته القيصرية الروسية والشيوعيون الروس من جرائم لقهر شعوب روسيا المسلمة وطمس هويتها ، فمع طلائع قرن العولمة الجديد ، انطلق الدب الروسي البغيض في وحشية كاسرة ، مدفوعاً بدموية الأموال والمساعدات الغربية – ليفترس شعباً مسلماً في (الشيشان) تجرأ وأعلن حقه في الاستقلال والتحرر من الاستعمار الروسي وتسلطه مثلما أعلنت سائر جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق (دول الكومنولث) ويكتمل السيناريو (الذي يتكرر دائماً مع المسلمين) ببعض تهديدات أمريكية فارغة وإدانات منافقة لحلف الأطلنطي ذرا للرماد في العيون ولا يمنع هذا الروس بالطبع من دك العاصمة (جروزني) بآلاف الأطنان من القنابل الضخمة واتباع سياسات الإبادة والأرض المحروقة .

٥- ولقد تم هذا السيناريو من قبل في البلقان على نحو ما ذكرنا على يد الصرب المتعصبين (تلاميذ الروس المخلصين) ، ولكن مع بعض المشاهد الدعائية والإضافات التموبهية في صورة غارات جوية لحلف الأطلنطي أجمع كل المراقبين بما فيهم الأمريكيون أنفسهم على إثارتها للسخرية وعدم جدواها تماماً وكانت النتيجة النهائية تكسريس القبضة الصربية ، وإعادة توزيع الخريطة في البلقان مع كم لا بأس به من المقابر الجماعية التي تضم أشلاء المسلمين !!

٣- أحداث سبتمبر والتعجيل بالمشروع العولمي:

ومع طلائع الألفية الثالثة التي شهدت اشتداد موجة العولمة وتعـالي صيحات معارضة تياراها داخل الغرب وخارجه ، يفاجأ العالم بأحداث سبتمبر من يوم الثلاثاء الدامي عام ٢٠٠١ م ، وتدمير برجي التجـارة في نيويورك وما ترتب على ذلك الحدث التاريخي الفارق من تداعيات وأحداث سريعة ومتلاحقة ، كانت في مجملها استثماراً جيداً وتفعـيلاً قوياً لخطط العولمة ومشروعاتها من حيث التعجيل بوضـعها في إطـار التنفيذ من جانب والقضاء على أكثر المناطق والأنظمة معارضة لها من جانب أخر ، خاصة تلك التي تتمتع بمزايا إستراتيجية هائلة ، سواء من حيث خصوصية الموقع الجغرافي أو ما لديها من مخزون هائل من مصادر الطاقة المستقبلية وأهمها البترول .. من هنا كانـت حـروب أمريكـا والحلفاء وغزو كل من أفغانستان في أكتوبر ٢٠٠٢ ثم العراق (وحرب الخليج الثانية ٢٠٠٣م) تحت شعارات من مثل :

محاربة الإرهاب ،الدفاع عن قيم الغرب ، نـزع أسـلحة الـدمار الشامل وكلها لاقت معارضة شديدة من الرأي العام الغربي والعـالمي ، فضلاً عما كانت تخفيه هذه الشعارات من كذب وتضليل اتضح فيمـا بعد للجان التحقيق وتقارير المفتشين الـدوليين وأحـزاب المعارضـة والأغلبية على السواء في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا زعـيمتي التحالف ضد الإرهاب المزعوم ونحن لن نقف طويلاً على حدث برجي التجارة صبيحة الثلاثاء ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فمازال هذا الحدث وحـتى

الآن يثير التساؤلات والشكوك العديدة حول ملابسات وقوعه ، كما أنه أثار مجادلات كثيرة حول تضارب التصريحات الرسمية ، والتناقضات التي حملتها بيانات الجهات المسئولة وكل هذه الأمور كانت محل بحث واهتمام العشرات من المحللين والكتاب والصحفيين فضلاً عن الخبراء والمختصين في الشرق والغرب ، ووصل الأمر بالبعض ممن كانوا قريبين من الحدث أو من دوائر صنع القرار في الولايات المتحدة إلى وضع سيناريوهات وتصورات لحادث ١١ سبتمبر مغايرة تماماً بل مناقضة كليه لما صدر عن الجهات الفيدرالية من بيانات وتصريحات .

٤- ١١ سبتمبر والإسلاموفوبيا :

وفي اعتقادنا أن الأخطر من الحدث هو ما تفجر عنه من حملة من العداء ضد الإسلام والمسلمين " الإسلاموفوبيا " لم يشهد العالم لها مثيلاً منذ العصور الوسطى ، صحيح أن حملات الكراهية والعداء الغربي لم تتوقف منذ إخراج الرومان من الشام ومصر على يد العرب المسلمين ، ولكن أن تبلغ إلى هذه الدرجة من الكثافة والتنظيم والتعبئة المصحوبين بالغزو العسكري فهو أمر لم يحدث إلا في زمن الحروب الصليبية.

لقد حقق كتاب " صمويل هنتجنتون " عن صدام الحضارات وسط هذه الحملة الضارية رواجاً هائلاً ، وتم طبعه طبعات عديدة ، كما حدث نفس الرواج لكتابات " توماس فريدمان " و"برنارد لويس" " وبي.جيه فاتيوكيوتيس " وغيرهم من العنصريين ، هذا فضلاً عن تصريحات لمسئولين أمريكيين وغربيين كبار سابقين ولاحقين ، ساهمت بفعالية في إشعال نيران الغضب ، وتعميق الكراهية ، ومضاعفة ضرورة المواجهة والعنف ، ومن أشهر هذه التصريحات التصريح الشهير للرئيس الأمريكي " بوش " الثاني عن " الحرب الصليبية " وتصريح الرئيس الإيطالي " برليسكوني " عن " تخلف وهمجية الحضارة الإسلامية " ، وتصريح السكرتير العام لحلف الأطلنطي عن " خطر الإسلام " وسيول مشابهة من التعليقات والآراء الخاطئة والمنفعلة حول الإسلام والمسلمين، وردت على ألسنة ملوثة لأمثال " ريتشارد بيرل " أمير الظلام ، وبول وولفوتيز ، وجورج شولتز ، وهنري كيسنجر ، وجين كيلباتريك ، وآرثر جولدبيرج ، وميدج دكتر ، وبول جونسون..، والقائمة طويلة

في هذا السبيل وأسماء المساهمين في حملة التعصب والكراهية لم تنته بعد حتى بعد أن أعلن الجنرال الأمريكي " وليام بوبكن "وهو واقف على أحد منابر الكنائس المعمدانية في " أوكلا " أنه محارب مقدس ومهمته الأولى حماية الأمة المسيحية من المسلمين وأنه مفوض من الرب لمحاربتهم !!

وهكذا تتوالى الحملة وتزداد ضخامة وشراسة على جميع المستويات والأصعدة وبكل الإمكانات والوسائل المتاحة بدأ بقوة التصريحات الرسمية وليس انتهاء بالحروب الإعلامية وأفلام هوليود ، وجائزة نوبل في الأدب ، والتي منحت في عام ٢٠٠١م ل" ف .س نا يبول " وهو هندوسي متعصب ، ومنحت في عامها التالي ٢٠٠٢م ليهودي مجرى هو " ايمرى كيريتش " وهكذا .

إن رأينا في هذه الحملات المتواصلة أنها تعبر عن جهل وسوء فهم عن الإسلام ، ومدى تأصل ما توارثه الغربيون من أوهام عن المسلمين تلك الأوهام التي ترسخت في أذهانهم ووجدانهم ، وهي في هذا الصدد تستند إلى فرضيات عنصرية ونوع من الخطاب الانتقائي ، المجتزأ يعوزه الدقة والبحث المتأني ، ويفتقر في وضوح إلى الشواهد والأدلة التاريخية، نوع من الخطاب نماذجه المعيارية هي حوارات قناة "" فوكس " وعناوين ال " نيويورك تايمز " و" الهيرالدتريبون " ونشرات أخبار " السى .إن . إن " !!

إن هذه الحملة الغربية العدائية ضد الإسلام والمسلمين والمستمرة حتى كتابة هذه السطور يحق لنا بما تتضمنه من عداء وكراهية ، وما تهدف إليه من صدام وعنف يبرر سياسات الهجوم والغزو- أن نلحقها

بسلسلة المآسي والنكبات التي رصدناها لخريطة الكوكب وهي تطوي صفحتها مع نهاية القرن العشرين وبدايات الألفية الثالثة .

وبعد:

أليست كل تلك الدلال من الجرائم الإنسانية التي عانى المسلمون أكبر قدر منها هي نفسها التي وقف على قمتها الغرب ليعلن على لسان " يوكوهاما " هذا الانتصار الغربي الليبرالي!؟ وأنها كانت تطبيقاً لنظرية هنتجنتون في " صدام الحضارات " حيث حدد فيها للغرب – العالم الإسلامي وملحقاته – عدواً بديلاً للشيوعية الزائلة ، عدواً يجب أن يكون متوحداً ، حتى ولو كان وجوده مجرد افتراض نظري ، وذلك ليمارس عليه الغرب السحق المتواصل بآلته الاقتصادية والحربية المتوحشة ، وبذلك تظل هذه الآلة الجهنمية دائرة في بشاعة ورعب وفي نفس الوقت تمهد الأرض للعولمة والهيمنة !؟

ألم يعلنوها من قديم وحتى الآن أن العدو الأكبر على وجودهم هو الخطر " الأخضر " ، وأن العنف والشمولية والتخلف لا يتسم به إلا المسلمون !؟

إنهم يكررون ذلك دوماً ، ليتواصل منطق التبرير والهيمنة وخاصة من مصادرهم الرسمية والأكاديمية التي تستند إلى منظومة سوداء من الأساطير والأوهام يلوكونها عن إساءة للفهم مقصودة وغير مقصودة وأحياناً بتضليل متعمد ، بل يبثون سمومها في مدارسهم ومعاهدهم ، وعلى أجهزة الإعلام التجارية (الجزء الرخيص من التسويق) وتكريس هذه الصور والمغالطات والتشويهات في أذهان الرأي العام بطرائفها الشعبية الذائعة وأساليبها الجماهيرية الرائجة ...وعلى النقيض تماماً من

دعاوى العلمية والموضوعة والحياد التي يتشدق بها الغرب نجد في المقابل محاولات لا حصر لها من المضايقات والإرهاب الفكري والمعوقات بل والتعتيم والحجب للكتابات والآراء التي تعرض مفاهيم وتصورات صحيحة عن الإسلام والمسلمين سواء أكانت من غربيين مسلمين أو غير مسلمين من أمثال :- " محمد مار مادوك بكثول " البريطاني المسلم، والمرحوم :- محمد أسد " اليهودي الألماني ، والسيدة " مريم جميلة " اليهودية الأمريكية والأخيران اعتنقا الإسلام ، والدكتور الدبلوماسي " مراد هوفمان " والفيلسوف " روجيه جارودى " والأكاديمي " ألبرت شفاتيزر " ومن غير المسلمين : " كارين أرمسترونج " والراحلة " أنا ماري شيمل " وكتابات " بوول فندلي " الذي ظل عضواً في الكونجرس الأمريكي في الفترة من (١٩٦١ إلى ١٩٨٢) ، ودراسات" إدوارد سعيد " وغيرهم كثيرين عانوا من الاتهامات الباطلة ومعاداة السامية والوصم بالإرهاب ووصلت الأمور السيئة مع العديد منهم إلى التهديد بالقتل .

والآن يتصدى أمامنا تساؤل يفرض نفسه وقد سبق طرحه في ظروف من قبل مشابهه وهو:

ماذا كسب العالم والإنسانية جمعاء من تلك الثنائية التي يعمقها الغرب ويرسخها يوماً بعد يوم وأعني بها الغرب الإنساني المتحضر في مقابل الإسلام الشرقي المتخلف العدو ؟

وما الذي جناه عالمنا من المد الغربي الجارف على سطح الكوكب من جهة وانحطاط المسلمين وتدهورهم المتعمد من جهة أخرى ؟

ربما تكون الإجابة العملية المختصرة عن هذا التساؤل بارزة بوضوح على خريطة الكوكب متمثلة في مشاهد القمع والإزاحة المتواصلة للإسلام أينما كان وبقية مشاهد الخريطة بقاع واسعة من أحزمة الفقر والمجاعات وموجات الهجرة والأوبئة وانتهاكات حقوق الإنسان تعانيها معظم دول جنوب الكوكب نتيجة وضع الغرب لخط أفقي يلتف حول كوكبنا كالجدار العنصري ليحمي حضارات ومجتمعات رضيت لنفسها حياة الرفاهية والاستقرار وصادرت نفس هذا الحق على شعوب ومجتمعات الجنوب بصفة عامة .

أليس هذا تقريباً محصلة انتصار الغرب وهزيمة سائر البشرية والمسلمين بصفة خاصة ؟ الها ثنائية الانتصار والهزيمة ، المكسب والخسارة ، الوجود والإزاحة ، أنا والأخر العدو ، تلسك الثنائية المتجذرة في الوجدان الغربي المتمكنة من أنساقه الفكرية المترسخة في بنيته الفلسفية والإيديولوجية ، الها الصناعة التي يتقنها الغرب ويتفوق فيها دائماً " صناعة الكراهية "

إن المخاطر التي تحيط بكوكبنا وبعالمنا الإسلامي بصفة خاصة — لا تقتصر على تلك الممارسات البربرية التي تتم يومياً على الأرض ، ولكنها أيضاً طالت وبكل قسوة سماء الكوكب وفضائه عن طريق أدوات العولمة وعبر سماوات مفتوحة تم استعمارها بالفعل بوسائل بث واتصال تخترق كل الحجب وتقتحم كل الأبواب ، تتعامل بمنطق التبعية والاستغلال وسياسات غسيل المخ وضرب الهويات واضطراب الشعور والوجدان الجمعي وتغيير أنماط السلوك ، واستدعاء مظاهر الاضطراب

النفسي والروحي ، فلا يكون من خيار سوى الاستسلام لأمواج العولمة العاتية ، والغرق في محيطات مظلمة من المادية القاسية عبر عمليات من الإلهاء الحسي الرخيص المغلف بقشور من الثقافة الزائفة والفكر الزاعم لتحضر كاذب ، إنها منعطف ومرحلة تاريخية غايتها " استنساخ " عالم بشري جديد خاضع لقواعد الغرب وشروطه وأسلوب تحقيق المرحلة يتنوع لكن الهدف يظل ثابتاً سواء تم عن طريق البطش العسكري أو الأقمار الصناعية ذى الألوان الزاهية ، ومواد الترفيه والتسلية شديدة الجاذبية والتأثير .

٥- في نقد البعد الاقتصادي للعولمة:

لقد أثارت العولمة وفي شتى بقاع المعمورة عمليات واسعة من الجدل والمناظرات ، وعقدت حولها العشرات من المؤتمرات والندوات وحلقات البحث والنقاش كانت ولا تزال متواصلة يوماً بعد يوم ، وتتفاوت فيها الأصوات ما بين مؤيد ومعارض .. مؤيد قوي ومعارض عنيد ، وبينهما فريق يقترح تصورات وأفكار هدفها التقليل من نسبة الخسائر الناجمة عن إجراءات العولمة ، وإفساح أفاق أوسع للإفادة من موجة التنمية والتقدم التي يمكن أن تصاحب العولمة طبقاً لمزاعم المؤيدين بحيث تشمل العالم غنيه وفقيره ، ولم يتوقف الاهتمام وإبداء الرأي على الحوار الهادئ وإنما امتد إلى المظاهرات الغاضبة والاحتجاجات الساخنة التي شاركت فيها الألوف الهادرة والخائفة من أثارها ، وقد جاءت من بلدان مختلفة أثناء انعقاد مؤتمراتها وقمم القادة والرؤساء والمسئولين مثل: مؤتمر " سياتل " في الولايات المتحدة و " جنوه " في ايطاليا ، و " دافوس " في سويسرا ، وفي هذه المظاهرات سقط قتلى وسالت دماء جرحى ، هم شهداء العولمة وضحاياها ، وبينما يرى المؤيدون للعولمة أنها لحظة رائعة في تاريخ البشرية ، يحدث فيها تفوق السوق على الدولة ، والاقتصاد على السياسة وهذه اللحظة جاءت بمكاسب صافية للبشرية جمعاء متمثلة في :

- ارتفاع ملحوظ في الناتج المحلى الإجمالي الحقيقي للعالم .
- ارتفاع حجم الصادرات العالمية .

- ارتفاع متوسط معدل نمو دخل الفرد سنوياً في البلدان النامية .

- زيادة سرعة تدفقات رؤوس الأموال الخاصة في هذه البلدان . ١٠

وبينما بشر المؤيدون للعولمة بأنها مكسب خالص للبشرية ، يرى المناهضون لها أن متاعبها لا حصر لها منها .

- تزايد الاستقطاب لمصلحة الأقوياء على حساب الضعفاء .

- التدهور المستمر للبيئة الطبيعية من جراء تصرفات الأغنياء ولحسابهم بما يضر الفقراء

- زيادة استهلاك المياه أيضاً لحساب الأغنياء ويصبح النقص في موارد المياه أكثر القضايا تفجراً في القرن الواحد والعشرين على نحو قد يسبب الخراب الاقتصادي أو قد يفجر الحروب الإقليمية.

- انتقال الحرب إلى الميدان الاقتصادي حيث احتدام الصراع من أجل الغزو التجاري العالمي ، وفي هذا تقوم الأدوات التكنولوجية والاقتصادية للغزو والفتح والسيطرة بنفس الوظائف القديمة في مجال أخر ، حيث تعتبر الأسواق هي ميادين القتال الجديدة ،٢٠

وتستند العولمة إلى ثلاثة أسس عدها جمع من خبراء الشرق والغرب ممثلة لشروط الانتماء إلى عالم الألفية الثالثة " عالم العولمة " وهي :

١- الاندماج في نظام اقتصادي عالمي يتبنى سياسات تحرير السوق والاقتصاديات وهذا النظام تمثل آلياته ، أسواق مالية كوكبية ، وشركات متعدية الجنسيات أو متعددة الجنسيات .

٢- اعتماد إيدولوجيات ليبرالية تتفق وقوانين الاقتصاد والسوق الحر من ناحية ، وتكرس كما تزعم العولمة للديمقراطية والتعددية من جهة أخرى .

٣- يقوم النظام الإعلامي الجديد بوسائله وتقنياته فائقة التكنولوجيا، بدور هام وأساسي في تصدير وتدعيم منظومة العولمة ، باستغلال ثورة المعلومات وشبكة الاتصالات العالمية في نقل المعلومات والسلع وتحريك رؤوس الأموال .

تلك أهم الأسس التي يعتمد عليها صناع العولمة " LOBALIZATION " وقد يشير البعض إليها بإحدى سماتها فيقال عنها " التنميط " UNIFORMATION" أو التماثل "" UNIFICATION .

وحين نقول أن العولمة تعتمد أهم هذه الأسس والتصورات الإجرائية ، ذلك لأن العولمة لم تعد مجرد نظرية أو مفهوم مفارق ، وإنما غدت حقيقة وواقعاً إجرائيا يتدعم يوماً بعد يوم بحيث نستطيع القول بأننا - بإزاء علم يتعولم أو يتمنط .

وإذا كان بعض المفكرين ينظر إلى العولمة على أنها ثمرة لتطور أساليب الإنتاج والاتصال الحديثه ، وتلبية لمعطيات مرحلة ما بعد الصناعة " يعد الحداثة "،دون سائر النظم والأيدولوجيات ، فإن الغرب على أية حال يبدو مصمماً ومتعجلاً في الدفع بهذه المرحلة التاريخية الجديدة لصالحه ومن وجهة نظره وبالتالي فالغرب مستمر وبقوة في تسويق عولمته ويعمل حثيثاً على إزاحة أية ثقافات أو نظم قد تكون معوقة لتيار العولمة تلك الثقافات التي يوصمها بأنها " قديمة " أو " شمولية " وهما تعبيران استخدمهما كل من " هنتنجتون "

و " يوكوهاما " وعليه فلا بد من تغييرها خضوعاً لطبيعة وغايات المرحلة الجديدة " مرحلة العولمة " وبذا يتضح لنا أن العولمة عملية تلعب فيها الإدارة السياسية دوراً رئيسياً ذا مجال شديد الاتساع ، يمتد من الجيو – سياسة العالمية والإقليمية إلى الثقافات والأديان عبر وسائط تشمل أرض الكوكب وسمائه وتظل اتفاقية الجات (GATT) أو منظمة التجارة العالمية (WTO) إحدى الآليات الرئيسية التي تستخدمها العولمة مع آليات أخرى كحلف الناتو الجديد ، ومجلس الأمن ، وصندوق النقد الدولي ، والبنك الدولي ، والشركات المتعددة الجنسيات ، ووسائل الاتصال والمعلومات والإعلام ، وحقوق الأبحاث في الإلكترونيات وشبكة – الاتصالات الدولية(الانترنت).

ومن المهم أن نعرف أن منظمة التجارة العالمية تتضمن لوائح تنظيمية وقانونية عن حقوق الملكية الفكرية ومعظمها غربي ٣٠ وبالتالي فإن لوائح المنظمة تظل في مقدمة الأدوات الوظيفية التي تعولم ليس الاقتصاد فحسب وإنما أيضاً صناعة الثقافة والأفكار والإعلام .

أ- لمحة تاريخية :

إن فكرة " عالمية العالم " فكرة قديمة ترددت لدى كل الحضارات، ولكن في ظل حضارتنا المعاصرة ومع ضخامة التقدم الهائل في علوم الاتصال ووسائط الإعلام ، صار العالم قرية صغيرة وبالتالي تم طرح إمكانية " عولمة " العالم ، وهي تختلف كثيراً عن فكرة " عالمية العالم " والتي تعول على المتشابهات الإنسانية ونقاط الاتفاق بين البشر، دون إغفال وتجاهل خصائصهم الحضارية وأوضاعهم الاجتماعية .

إن فكرة " القوميات " و" العنصريات " الـتي كانـت نتاجـاً لوضعية القرن التاسع عشر ، والتي تأولت تأويلاً خاطئـاً ، لتكـريس الموجات الاستعمارية وسلاسل الحروب على امتداد القرن التاسع عشر وحتى النصف الأول من القرن العشرين ، فشلت فشلاً ذريعاً ، وقادت أوروبا إلى حربين عالميتين مدمرتين ، خرجت منهما أوربـا منهكـة القوى ، وقد قطعت شرايينها في مستعمراتها (العالم القـديم) ، تلـك المستعمرات التي كانت تحقق لأوربا ميزة فائض القيمة التاريخي الـذي كون الأساس التراكمي الضخم لعصر الصناعة والتحـديث الأوربي ، ومع هذه الخسارة على المستوى الإنساني ، ونقـد الغـرب الـشديد لحضارته المدمرة، وحضور الولايات المتحدة القوى عشية انتهاء الحرب العالمية الثانية باقتصاد قوى ومعافى ، وطرحها لمـشروع " مارشـال " بهدف لعق جراح أوربا " ابنه العم.

انتقل بذلك مركز الهيمنة والثقل الاقتصادي والسياسي وتحول مـن أوربا إلى الولايات المتحدة ، ويزداد هذا المركز قوة وتأثيراً خاصة بعد انهيار الاتحاد السوفيتي والنظم الشيوعية في حلف وارسو . ورغـم أن الولايات المتحدة لا تستند إلى إرث استعماري بالمفهوم الأوربي إلا أن اعتناقها لفلسفة الغرب " القوة والتميز " وتبينها لمنطق " النفعية "، يجعل سياستها متضمنة بالضرورة – أفكار الهيمنة والنفعية ، ولكن بأسلوب أمريكي . وإذا كانت الحرب العالمية الثانية قد أسـفرت عـن بعـض المكاسب للإنسانية في صورة وثائق ومنظمات دولية ، كوثيقة حقـوق الإنسان مثلاً، أو قيام هيئة الأمم المتحدة بمنظماتها المختلفة ، فإن هـذه المكاسب أصبحت في ظل العولمة الجديدة بحاجة ماسة وملحة لإعـادة

نظر وصياغة من قبل مركز الهيمنة الجديد ، أي بمعنى أدق " أمركة العولمة " .. من هنا يتبين اختلاف وجهات النظر وحدتها ووصولها أحياناً إلى درجة الصراع الاقتصادي بين التكتلات الاقتصادية الكبيرة في عالمنا وأهمها الولايات المتحدة الأمريكية ، وأوربا ، واليابان ، والصين ، ودول النمور الأسيوية وبعض القوى الاقتصادية الصاعدة في أمريكا اللاتينية ، مع ملاحظة تقارب وجهات النظر " الأمريكية الأوربية " في مواقف وسياسات كثيرة ، لإيمان الغرب بصفة عامة بأن الأكثر تقدما هو الأكثر كفاءة وقدرة وهو الأحق بجني ثمار المرحلة التاريخية الجديدة ، وهو نفس مفهوم " البقاء للأقوى " ... وعلى ذلك فإن اعتبار دول العالم وحدات متساوية في الحقوق والواجبات إنما هي في نظر الغرب مقولة رومانسية استفزازية ولا بد أن تقوم دعائم العولمة وتدور آلياتها لتأكيد أحقية المركز وجني ثمرات انتصار العالم الغربي الحر بزعامة الولايات المتحدة الأمريكية، بأسلوب الولايات المتحدة الأمريكية ورؤاها وهو أسلوب يعتمد قوة الضغط وأحياناً الفرض والإملاء متخفياً وراء المنظمات الاقتصادية العالمية ، ومجلس الأمن الدولي ، وهيئة المعونة الأمريكية وأحياناً منظمات حقوق الإنسان ، وحماية الأقليات ، وسائر الأطر المنظمة للعولمة أو " المؤمركة " " لها .

ولعل تدخل الولايات المتحدة لتغيير طبيعة وعمل المؤسسات الدولية التي كانت تحرز بعض المكاسب رغم ما كانت تعانيه من قصور- لعل ذلك يفسر لنا فكرة الهيمنة ، ويلاحظ ذلك منذ منتصف ثمانينات القرن العشرين فالمحاولات الأمريكية تتواصل في هذا السبيل ، حتى اتهمت المنظمات الدولية وعلى رأسها مجلس الأمن بفقد المصداقية ، وتعرضت لكم هائل من الانتقادات والاتهامات ، ولم يكن الانسحاب

الأمريكي المشهور من هيئة اليونسكو إلا مظهراً واضحاً لما نقوله ، وهنا تبدو الولايات المتحدة وكأنها لا تتحمس لنظام " الأمم المتحدة " القائم على فكرة المسئولية الجماعية " حقوق وواجبات " لكافة الأسرة الإنسانية .

ب- اقتصاديات العولمة :

" إن هذه الاتفاقيات ستعزز وضع أمريكا في زعامة الاقتصاد العالمي " كان هذا تصريح للرئيس الأمريكي " بيل كلينتون " في ربيع عام ١٩٩٤ ، عقب توقيع ممثلي دول العالم على اتفاقية " منظمة التجارة العالمية " الجات " ، وفي ضوء ما أشرنا إليه عن دور الإرادة السياسية في تشكيل العولمة وتوجهات أدواتها " ، فمن المؤكد أن هذا الإنجاز الذي يتحدث عنه رئيس الولايات المتحدة الأمريكية لم يكن وليد نشأة بعض المنظمات أو الاتفاقيات ، أو لمجرد تكريس هذه المنظمات لتحقيق أهداف وقتية سريعة ، وإنما هو وليد تخطيط طويل وإعداد جيد مستمر في المرونة والتطور ، وأن هذا التخطيط ، وإن بدا على المستوى الاقتصادي في جانبه الأوضح – فإنه يستهدف السيطرة الشاملة بكل أدوات المعرفة" ٤٠

إن الغرب يؤكد على منطق " أولوية الاقتصاد " ، وطبقاً لهذا المنطق، فإذا كانت بلادهم هي دون جدال – أكبر قوة اقتصادية ، فمن حقهم إذن – أن يمارسوا دوراً أكبر على الساحة العالمية – هذا الدور الذي يميز الغرب بصلاحيات ومبادرات لا يشاركه فيها دول أخرى ، إلا بقدر تواجدها الاقتصادي والسياسي العالمي .

إن العولمة الأمريكية تعني من وجهة نظر " أولويات الاقتصاد " إلغاء النظام العالمي غير الواقعي الذي يفترض أن مجموعة الدول الوطنية هي الوحدات التي تنتظم فيها حياة المجتمعات البشرية وتشكل مجموعة متساوية من حيث القانون الدولي أي من حيث الحقوق والواجبات طبقاً لميثاق الأمم المتحدة ، وهو الوريث التاريخي لإعلان حقوق الإنسان، وهذا النظام العالمي غير واقعي لأنه " وفقاً لمنطقهم" يتنكر لأولوية الاقتصاد الأمريكي،فلا بد إذن من إعادة النظر في هذا النظام"٥

وأولوية الاقتصاد الأمريكي تعني التدخل في الأسواق العالمية بصورة أكثر حضوراً وفاعلية ... وللأسواق العالمية قواها المتعددة ، ولكن مركزها الأقوى الولايات المتحدة ، .

ويلاحظ الدكتور مصطفى عبد الغنى " أن الولايات المتحدة ومعها الدول الغربية الكبرى ، ورغم التوقيع على اتفاقية الجات عام ١٩٤٧ ، إلا أنها كثيراً ما تبرأت من اجتماعات الجات وقراراتها خاصة فيما يتعلق بدعم التبادل التجاري الدولي ، وأنه قد عقدت اتفاقيات في إطار الجات ورفضت الولايات المتحدة التوقيع عليها مثل " اتفاقية برن " ولم توافق عليها إلا بعد إقرارها بسنوات وكان ذلك عام ١٩٨٩م .

ويفسر الدكتور عبد الغني في كتابه " الجات والتبعية الثقافية " ذلك الموقف بتهديدات في بنود الاتفاقية تؤثر على المصالح الأمريكية ويقودنا هذا التفسير إلى محاولة الالتفاف الأمريكية على مكاسب دول العالم الثالث التي أنجزتها في مجال الأعلام والملكية الفكرية عن طريق" اليونسكو" ولجانها ، فسعت الولايات المتحدة إلى أن تتضمن الجات حقوق الملكية الفكرية بجميع أشكالها والتوصل خلال الجولة الأخيرة

من الجات إلى إجراءات عنيفة في تطبيق هذه الحقـــوق أطلـــق عليهـــا الدكتور مصطفى عبد الغني تسمية " العنف الثقافي" و" التبعية الثقافية " في إطار الجات." ٦٠

على هذا النحو يتنبه كثير من الاقتصاديين والمفكرين إلى خطـــورة هذه الآليات الاقتصادية ومن ثم ، يرصدون عدة ظواهر سلبية يتسم بها اقتصاد العولمة أو " النظام الاقتصادي العالمي الجديد".

فالدكتور زكي رمزي يتحدث عن مخاطر الكتلة الهائلة من الأموال الهائجة قصيرة الأجل فيقول " أصبح الاقتصاد العالمي يقوم على أمواج عاتية من السيولة النقدية التي تشكل فيضاناً هائلاً من رأس المال ، هذه الكتلة يتحرك منها الآن أموال سائلة عبر مدار العام بكمية تقدر بنحو ١٠٠تريليون دولار أي ما يعادل ٣,٥% من تلك الكتل ، والمصدران الرئيسيان لهاهما " أسواق النقد الدولية وصناديق الاستثمار العالميـــة ، ومن المعلوم أن الصندوق الاستثماري هو ذمة مالية يدير حافظة ضخمة للأوراق المالية ، ويوجد الآن في العالم حوالي ٧٧٠ صندوقاً استثمارياً، بمثابة ديناصورات تتحرك بوحشية وبشكل سريع وفي لمح البصر مـــن بانكوك إلى بوينس أيرس ، وهي تتعامل الآن في أصول مالية تتجـــاوز بكثير حجم الاحتياطات الدولية التي تملكها البنوك المركزية في مختلـــف دول العالم وهذه الأموال الهائجة قصيرة الأجل أصبحت هي مـــصدر تمويل حركات المضاربة العالمية ومصدر قلـــق شـــديد لمختلـــف دول العالم"٧٠

ويحاول المفكر الإسلامي الدكتور محمد عمارة تفسير انهيار الأسواق العالمية المالية في جنوب شرق أسيا ، ذلك الانهيار المشهور الذي وقـــع عام ٢٠٠٠م من خلال الرؤيا السابقة ، واضعاً يده على حكمة تحـــريم

الإسلام لفكرة الربا ، القائمة أساساً على تحويل المال إلى "سلعة " ، يضارب عليها ، وجعلها بديلاً للإنتاج والعمل ، فيقول : " إننا نتعارك في الأزهر حول الفائدة وهل هي حلال أم حرام ، وليست هذه هي القضية " فالقضية هي فلسفة الإسلام في المال ...إن المال ليس سلعة يتاجر فيها ، لأن هذا يصنع التضخم ، ويصنع عالماً اقتصادياً أحمر لا علاقة له بالاقتصاد الحقيقي ، وليس له أدنى علاقة بالإنتاج ، زراعة أم صناعة .. فالبنك يأخذ منك بفائدة ٥% مثلاً وينقل لغيرك بفائدة ١٠% ، ومن يأخذ بعشرة ينقل بإحدى عشرة .. وهكذا ، فالمال سعره يزيد دون زيادة حقيقية في الإنتاج، أي أنه بعيداً عن وظيفة المال تتم عملية تضخم ويصنع المال سوقاً ممن الممكن أن تضرب تجارب تنموية " ٨٠

أما ظاهرة الشركات المتعدية الجنسيات، فنجد إشارة لظروف نشأتها عند الدكتور أنور عبد الملك ، الذي يوضح لنا" كيف أن الولايات المتحدة استطاعت استغلال إمكانياتها الهائلة ، التي لم تلحق بها أضرار الحرب العالمية الثانية واستفادت من تجربتها الفريدة في إدارة الأعمال بواسطة دائرة واسعة من المراكز الإدارية ، وذلك في المجال الهائل المكون من الولايات المتحدة وكندا بالإضافة إلى تقدمها في تكنولوجيا الأعلام والاتصالات ، بحيث استطاعت أن تنفذ إلى قلب مجتمعات أوربا أثناء عملية إعادة بنائها " مشروع مارشال " ومن خلال أوربا النفاذ إلى المناطق التابعة في أسيا وأفريقيا في المقام الأول ، بينما راحت تؤكد سيطرتها على اقتصاديات أمريكا اللاتينية تطبيقاً لمبدأ " مونرو " ، ويقول الدكتور عبد الملك : " كان هذا هو السبب في

نشأة الشركات المتعدية الجنسيات منذ عام ١٩٤٥ ، وانتشارها بشكل هائل في المنطقتين المركزيتين والتابعة — خلال سنوات قلائل " ٩٠

ويذهب المفكر سمير أمين ، إلى أن " الشركات متعدية الجنسية أو العابرة للقوميات هي الأداة الرئيسية للعولمة ، فبواسطتها تتم عملية تدويل ، أو الأصح عولمة رؤوس الأموال والإنتاج والتصريف ومجمل العمليات المالية والتجارية وانتقال المعلومات وشبكة الإعلام وغير ذلك ويسيطر عدد محدود من هذه الشركات العملاقة على المفاصل الرئيسية للاقتصاد العالمي ، ويوضح سمير أمين عملية عبور هذه الشركات وتعديها حدود القارات وذلك " حين تعتمد شركة معينة إلى التخصص في إنتاج سلعة معينة مروراً بكل مراحل إنتاجها ، دون أن يعني ذلك بموضعها في بلد واحد ، فشركة " بشينيه " مثلاً، تستخرج البوكيست من استراليا ، وتحوله لألومين في الولايات المتحدة ، وتنتج الألمونيوم في الجابون باستخدام لألومين المنتج بواسطة فروعها في غينيا ، كل هذا يعني الانتقال من إستراتيجية الإنتاج الوطني إلى إستراتيجية الإنتاج العالمي بعدم تمركز أو حصر الإنتاج محلياً ، ويتحقق تكامل وحدات الإنتاج بتأمين الحرية هذه العملية في التقارب بين أمم صناعية قديمة وأخرى حديثة ، لأن التباعد ينتج اضطرابات في أغلب الاقتصاديات هذا ما أطلق عليه سمير أمين وصف " عملية الاختراق المتبادل في الاقتصاديات الرأسمالية المتطورة ، بالدرجة الأولى ، وتوسع المبادلات شمال جنوب ، بالدرجة الثانية "١٠٠

من جهة أخرى ، فإن من أهم سمات الشركات متعدية الجنسية ، تعدد الأنشطة التي تشتغل فيها دون أدنى رابطة بين المنتجات المختلفة ، فشركة التليفون والتلغراف الدولية تملك مثلاً ، شركة فنادق شيراتون ،

وشركة " تايم وارتر " تشتغل بعدد كبير من شركات النشر والأعـــلام والملاهي : من استوديوهات هوليـــوود ، إلى شـــبكة (CNN) ، وصولاً إلى التلفزيون بالكابل وبصفة عامه:، تعمد هذه الـــشركات إلى تنوع شديد في النشاط سعياً لتعويض الخسائر المحتملة في نشاط معـــين بأرباح تتحقق من أنشطة أخرى ، دون اعتبار للوضع الجغـــرافي لهـــذا النشاط ، ولا غرابة بعد ذلك في أن تكون الشركات متعدية الجنسيات وراء ظاهرة العولمة : فمن يقتحم الأسواق العالمية لا يريـــد أن تعوقـــه حدود اقتصادية حتى مع بقاء الحدود السياسية ، وظاهرة أخرى تتعلق أيضاً بهذه الشركات وهي ظاهرة اندماجها وكذلك اندماج المصارف الكبرى وهي ظاهرة من سمات عولمة الاقتصاد ، ويأخذ الانـــدماج في حالات عدة شكل ابتلاع وتملك للشركات والمـــصارف الأضـــعف نسبياً، وظاهرة الاندماج والابتلاع هي التعبير العملي لتركز رأس المال والإنتاج في ظروف الرأسمالية المعاصرة ."١١

ويعمق الأستاذ عادل حسين بعض المفاهيم حول هذه الـــشركات فيقول : " إن هذه الشركات يخضع ولائها في النهاية إلى الدول الـــتي ينتمي إليها مقرها الرئيسي ، والقول بأنها متعددة الجنسيات أو عـــابرة للقوميات ، إنما هو قول خادع ، وهذه الشركات العملاقة التي تبلـــغ نحو أربعمائة شركة تقريباً – تتجاوز ميزانياتها العديد من الدول النامية، ولا يقتصر تأثيرها على البعد الاقتصادي ، ولكنها تـــتحكم بدرجـــة كبيرة: في البعد التكنولوجي أيضاً ..ولذلك فهم يعملون على فـــرض هذه الشركات على كل من يريد الإعمار أو التنمية ، والذي يكـــذب حياد هذه الشركات ، أنها أثناء أزمة الغرب مع إيـــران ، فـــإن هـــذه

الشركات لم تقاطع إيران من نفسها ، وإنما قاطعتها حين أمرهما حكوماتها بذلك ، والكثير منها تفضل الاستثمار في دول متقدمة عن دول العالم الثالث وان قلت الربحية ، حتى لا يساعد ذلك على تصدير التكنولوجيا " ١٢٠

وبالحديث عن اتفاقية الجات ، وكتل الأموال المتحركة الهائلة والشركات المتعدية الجنسيات نكون قد أشرنا إلى أهم الأسس الاقتصادية التي ترتكز إليها العولمة وأهم ما وجه إليها من نقد وإذا أردنا أن نتناول أية مساهمات أو جوانب إنسانية للنظام الاقتصادي الجديد الذي يزعم المشاركة في النفع والفائدة ، فإننا نقول : ما أكثر ما يعانيه عالمنا في ظل العولمة الاقتصادية من مشاكل وأزمات الندرة والجفاف والتصحر وكوارث المجاعات ، والنزوح والتهجير ،والأمراض الناشئة عن الفقر ونقص الغذاء ، وسوء الرعاية الصحية في كثير من دول العالم الثالث ، وهي أمور لا تلق اهتماماً من الدول الغنية التي تقود اقتصاد العولمة ، اللهم إلا بالقدر الذي يخدم مصالحها السياسية والاقتصادية والإعلامية.

إن حجم الكوارث والخسائر الإنسانية الهائلة جراء الحروب والمنازعات وحدة التحولات الاجتماعية ، والصراعات الأثينية والعرقية ، يحتم على النظام العالمي الجديد أن يضع الاعتبارات الإنسانية في أولويات اهتماماته وذلك بالنظر إلى ضعف إمكانات المنظمات الإنسانية دولية كانت أو أهلية خاصة في ظل تقلص وضعف الدور المنوط بمتطلبات الأمم المتحدة المعنية بشئون الإغاثة واللاجئين والصحة والغذاء ..

إن مثل هذه المشاكل والأزمات الخطيرة المهددة لأعداد هائلة مـــن البشر خاصة في مناطق بؤر الصراع التي تخلفها وتسببها الدول الكبرى، يمكن أن نقلل من حجم مخلفاتها الكارثية بل نتصدي لها ونواجهها ، إذا تم اقتطاع نسبة ضئيلة ، أو اقتطاع جزء يسير من ميزانيات تسليح هذه الدول وأرباح شركات صناعة السلاح فيها من أجل أغراض إنسانية ، واعتقد أنه طالما ترددت هذه الدعوة- ولكن يبدو أن الآلام والكوارث البشرية تزداد كلما ارتفعت حناجر الدول الكبرى والغنية بـــشعارات الإخاء والتسامح والسلام !!

الهوامش

١-أنظر : " انفجار سبتمبر بين العولمة والأمركة " ، إبراهيم نافع – مكتبة الأسرة ، الهيئة المصرية للكتاب – القاهرة ٢٠٠٢م

٢-ذكر إبراهيم نافع في مقدمة كتاب ، أن الناتج المحلي الإجمالي للعالم ارتفع من ٢تريليون دولار في عام ١٩٦٥ إلى ٢٨ تريليون في عـام ١٩٩٥ وارتفـع متوسط نصيب الفرد مـن ٦١٤ دولاراً في عـام ١٩٦٥ إلى ٤٩٠٨ دولاراً في ١٩٩٥م . وبلغ متوسط معدل نمو دخل الفرد سنوياً في البلدان النامية نحو ١,٣ في المائة

٣-أنظر : المصدر السابق صـــــ٣٠وما بعدها .

٤-أنظر " الجات والتبعية الثقافية " د. مصطفى عبد الغنى – مكتبة الأسرة – هـــ .م. ع للكتاب- القاهرة سنة ١٩٩٩ .

٥-المصدر السابق : صـــــ١٥

٦-" تغيير العالم " د. أنور عبد الملك – صـــــ٢١٣- سلسلة عالم المعرفة - . العدد (٩٥) – المجلس الوطني للثقافة – الكويت ، نوفمبر سنة ١٩٨٥م

٧-" الجات والتبعية الثقافية " مصدر سابق ، صـــــ١٧

٨-" الإسلام والعولمة ، محمد إبراهيم مبروك وآخرون ، صـــــ ١٢٦، الدار القومية العربية للنشر- "- الطبعة الثانية – القاهرة يناير ٢٠٠٠م

٩-" الإسلام والعولمة " مصدر سابق صـــــ١٢٦

١٠-" تغيير العالم " ، مصدر سابق صـــــ٨٢

١١-" الإسلام والعولمة " مصدر سابق صـــــ ٣٨

١٢-" الإسلام والغرب " - كتاب العربي - العدد (٤٩) – مجموعة كتاب، صـــ٦٢،٦٣ – مؤسسة " مجلة العربي " الكويتية " "- الكويت يوليو ٢٠٠٢ .

أنظر : " الإسلام والغرب " – مصدر سابق .

٦- في نقد البعد الإعلامي والثقافي للعولمة:

تحتل نشاطات الإعلام مكانة كبيرة في اقتصاديات الدول ،خاصة المتقدمة ، ويبرز ذلك من خلال فرص العمل وحجم رؤوس الأموال ، والصناعات المتصلة بمحطات البث الإذاعي والتلفزيوني ، وأجهزة الالتقاط ، والطباعة وإنتاج ورق الصحف ، والصناعات الإلكترونية .

والاتصال أيضاً مرتبط بفروع أخرى عديدة من النشاط الصناعي مثل: الأقمار الصناعية والعقول الإلكترونية ، والألياف الضوئية ، وأشعة الليزر والكمبيوتر والبرمجيات ..الخ

وعليه فإن الإعلام وما يرتبط به من صناعات ونشاطات ، أضحى المورد الذي تتوقف عليه بقية الموارد ، وربما احتل نفس المكانة التي كانت لرأس المال في المجتمعات الصناعية طوال القرنين الماضيين وما ارتبط به من سيطرة على المواد الخام والموارد الطبيعية ، في حين أن القابض على صناعة الإعلام والمعلومات اليوم ، يعني احتكاره لرأسمال الألفية الثالثة وهو نوع جديد من رأس المال لرأسمالية جديدة يتواكب مع مرحلة ما بعد الصناعة أو ما بعد الحداثة.

ولقد أدى الصراع والتنافس بين الدول المتقدمة في هذا المجال إلى المبادرة الدائمة بتطوير وتجويد وتجميل كل من : أدوات ومواد الإعلام والاتصال حتى لقد غدت مشكلة عالمنا اليوم ، ليس في شح المعلومات أو ندرتها ، وإنما في سيولة المعلومات وتدفقها . وثمة عوامل رئيسية ينبه إليها د . نبيل على الخبير المعلوماتي المصري - تكمن وراء هذه الثورة

الإعلامية والتكنولوجية وهذا الانفجار المعلوماتى الهائل ، يمكن تلخيصها في عوامل : تقنية واقتصادية وسياسية .

– أما العامل التقني : فهو يتمثل فى التقدم الهائل في تكنولوجيا الكمبيوتر : عتاده ، وبرمجياته و وتكنولوجيا الاتصالات ، خاصة فيما يتعلق بالأقمار الصناعية ، وشبكات الألياف الضوئية . لقد اندمجت هذه العناصر التكنولوجية في توليفات اتصالية عدة ، إلى أن أفرزت شبكة الإنترنت التي تشكل حالياً الوسيط الإعلامي المتضمن بداخله جميع وسائط الاتصال الأخرى : المطبوعة والمسموعة والمرئية وكذلك الجماهيرية وشبه الجماهيرية والشخصية ، لقد انعكس أثر هذه التطورات التكنولوجية على جميع قنوات الإعلام : صحافة وإذاعة . وتلفاز وانعكس كذلك وهو الأخطر – على طبيعة العلاقات التي ترتبط بين منتج الرسالة الإعلامية وموزعها ومتلقيها ، لقد انكمش العالم مكانا وزماناً ، وسقطت الحواجز بين البعيد والقريب ، وكادت تكنولوجيا الواقع الخائلى أن تسقط الحاجزين الواقعي والوهمي ، بين الحاضر والغائب ، بين الاتصال مع كائنات الواقع الفعلي والكائنات الرمزية التي تقطن فضاء المعلومات .

– العامل الاقتصادي : المتمثل في عولمة الاقتصاد ، وما يتطلبه من إسراع حركة السلع ورؤوس الأموال ، وهو ما يتطلب بدوره الإسراع في تدفق المعلومات ، وليس هذا لمجرد كون المعلومات قاسماً مشتركاً يدعم جميع الأنشطة الاقتصادية دون استثناء – بل لكونها أي المعلومة– سلعة اقتصادية في حد ذاتها ، تتنامى أهميتها يوماً عن يوم ، بقول أخر–

إن عولمة نظم الإعلام والاتصال هي وسيلة القوى الاقتصادية لعولمة الأسواق من جانب وتنمية النزاعات الاستهلاكية ، ووسيلة توزيع سلع صناعة الثقافة من موسيقى وأفلام وألعاب وبرامج تلفزيونية من جانب أخر

– العامل السياسي : المتمثل في الاستخدام المتزايد لوسائل الأعلام من قبل القوى السياسية بهدف إحكام قبضتها على سير الأمور ، والمحافظة على استقرار موازين القوى في عالم شديد الاضطراب زاخر بالصراعات والتناقضات.

– لقد تداخلت هذه العوامل التقنية والاقتصادية والسياسية بصورة غير مسبوقة جاعلة من الإعلام الحديث قضية شائكة للغاية وساحة ساخنة للصراعات العالمية والإقليمية والمحلية ٠

أ– أهم سمات الإعلام المعاصر :–

إن العوامل الثلاثة السابقة طبعت الأعلام المعاصر بخصائص وسمات لعل من أهمها:

١– **ضخامة مكاسبه** : وتعدد وسائله ، غزارة تدفقه ، وعظم مساحات تأثيره .

٢– **تناقضاته** : وتكمن هذه التناقضات في حيرة الإعلام المعاصر بين رسالة — الإعلام وهوى الإعلان ، وبين مراعاة مصالح الحكام ومطامع القوى الاقتصادية التي تعطي الأولوية للإعلام الترفيهي، لا التنموي .

٣– **قابليته للاحتكار** : ويكفي أن تذكر في هذا المجال الأرقام الآتية:

- ٤ وكالات أنباء عالمية " الأربع الكبار " تحتكر ٨٠% من فيض المعلومات

- ٤ مجموعات إعلام رئيسية تتحكم في ٩٠% من الصحف البريطانية

- عدد قليل من شركات الأعلام المتعدية الجنسية للإرسال الجماهيري والإنتاج التجاري التلفزيوني وتبعت نفس هذا المنهج الاحتكاري في " تلفزيون الكابل "

- ١٠% من شركات الإعلان الأمريكية تسيطر على ٨٠% من إجمالي الإنفاق الإعلامي في الولايات المتحدة والذي يصل إلى ٢٥٠ مليار دولار سنوياً .

وأما الانترنت فإن مائة موقع فقط تستولي على ٨٠% من إجمالي زوار شبكة المعلومات ، تاركة نسبة الخمس فقط لتتنافس عليه ملايين المواقع الأخرى .

وتلوح في الأفق حالياً بوادر صراع عالمي لاحتكار الالكترونيات الاستهلاكية من ذوات الشاشات الصغيرة ، كالتلفزيون المحمول ، والكمبيوتر المحمول ، والكتب الإلكترونية (مضمون الرسالة الإعلامية)، من موسيقى وأغان وأخبار وأفلام ، ويعد المحتوى أهم مقومات صناعة الثقافة .

٤ – تصنيعه وإعادة إنتاجه للثقافة :

لقد ساد الإعلام ووسائله الإلكترونية الحديثة ساحة الثقافة حتى جاز للبعض أن يطلق عليها ثقافة الميديا ، وثقافة التليفزيون ، أو ثقافة التكنولوجيا ، وثقافة الوسائط المتعددة

وإذا كان أرسطو قد لقب " بالمعلم الأول " فإن والت ديزني قد حاز على لقب " المعلم الأعظم " بعد أن باتت الثقافة إعلاما وترفيهاً تصنيعاً لا تنظيراً .

لقد أصبحت صناعة الثقافة أهم تطبيقات تكنولوجيا المعلومات ، وفيما كانت التطبيقات التجارية والإدارية والصناعية هي السائدة في أجيال الكمبيوتر السابقة ، فإن تطبيقات الثقافة من تربية وإعلام وترفيه قد صارت الآن هي التطبيقات الحاكمة التي تدفع بتكنولوجيا المعلومات،عتاد وبرمجة واتصالات-إلى مشارف جديدة وذلك تحت ضغط المطالب الفنية التي تتسم بها التطبيقات الثقافية ٢٠

ب– صناعة الثقافة والفن :

يعتبر الناقد الألماني " فالتر بنيامين (١٨٩٢-١٩٤٠) من أوائل النقاد والباحثين الذين تنبأوا بأثر التكنولوجيا على الفن والثقافة ، ودور وسائل الاتصال في تغيير الطابع الفردي للفن وبالتالي فإن كتاباته تعيننا في فهم كثير من الظواهر الفنية والثقافية المعاصرة ، وقد التفت بنيامين إلى جانب في الفن ، لم يلتفت إليه الكثيرون ، وهو أن الفن ممارسة اجتماعية ، وهو سلعة أيضاً ، يشترك في إنتاجها ناشرون لتباع في السوق كي تحقق ربحاً ، ولذلك فإن الوسائط التي توحدها وسائل

الاتصال الحديثة تؤثر في رؤية الفنان وفي تشكيل عمله الفني ، ولـــذلك فإن مهمة الفنان أن يعيد النظر في أشكاله الفنية وفي قوى الإنتاج الفني المتاحة له ، حتى يستطيع أن يطور منها .

فالشكل الفني عند بنيامين يتجاوز البنية المهيمنة السائدة في مرحلـــة اجتماعية معينة ، وهذا يجسد قدرة الفن على تحريك الوعي الإنـــساني لكي يكون مبدعاً ، ويرى أن تحطيم الفصل بـــين الأجنـــاس الأدبيـــة يساهم في إيجاد علاقة اتصال جديدة بين الأدب والقارئ ، ولقد بسط بنيامين نتائج نقده وملاحظاته تلك في دراساته الشهيرة " الفن في عصر الاستنساخ الألي " ، التي نشرت بعد خمسة عشر عاماً من وفاته ، وقد تابع بعض من نقاد مدرسة فرانكفورت دراسة تـــأثيرات المجتمعـــات الحديثة وعلاقات الإنتاج فيها على جوانب أخرى من الثقافة والفـــن ونظريات الأدب والتلقي وعلم اجتماع الأدب وأهمهم اثنين من زملاء بنيامين هما " ماكس هوركهايمر" (١٨٩٥ – ١٩٧٣) و " تيـــودور أدورنو " (١٩٠٣ – ١٩٦٩) ٣٠

" لقد أصبحت تكنولوجيا المعلومات أهم أدوات صـــناعة الثقافـــة وأهم قضاياها الاجتماعية ، توازى مع ذلك أن أصبحت صناعة الثقافة أهم تطبيقات تكنولوجيا المعلومات ، فبينما كانت التطبيقات التجارية والإدارية والصناعية هي السائدة في أجيال الكمبيوتر الـــسابقة ، فـــإن تطبيقات الثقافة من تربية وإعلام وترفيه ، قـــد صـــارت الآن هـــي التطبيقات الحاكمة التي تدفع بتكنولوجيا المعلومات ، عتـــاد وبرمجـــة واتصالات إلى مشارف جديدة ، وذلك تحت ضغط المطالـــب الفنيـــة القياسية التي تتسم بها التطبيقات الثقافية ،فالفنان التشكيلي يحتـــاج إلى

شاشة كمبيوتر ثرية الألوان ، دقيقة التحليل ، ومصمم البرامج التربوية يحتاج إلى كمبيوتر أكثر ذكاء ليتجاوب مع المتعلم بصورة دنيامية وطبيعية وأرشفة التراث الثقافي : المكتوب والمسموع والمرئي ، تتطلب وسائل تخزين اليكترونية عالية السعة ، بالإضافة إلى آليات استرجاع تتصف بالمرونة والسرعة " ٤٠

ج- الصراع حول النظام الإعلامي الدولي الجديد :

وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية قائدة مسيرة العولمة بأبعادها الاقتصادية والسياسية والإعلامية ،تمثل أكثر الدول المتقدمة إنتاجا لمثل هذه الصناعات ، حيث تقول الإحصاءات الأمريكية أن الصناعات الثقافية تستحوذ على ٦% من إجمالي الناتج القومي الأمريكي وأن مدخلات هذه الصناعة في تصاعد مستمر - فقد دفعت هذه الاعتبارات الهامة الولايات المتحدة لآن تبدي كثيراً من الاحتراز إزاء بعض أنشطة المنظمات الدولية في مجال ترشيد عولمة الإعلام ، حيث اعتبرت مثل هذه المنظمات منحازة لصف الدول النامية ، وربما مثل ذلك مبرراً قوياً لموقف الولايات المتحدة الشهير في الانسحاب من منظمة اليونسكو، التي تتهمها الولايات المتحدة بمناصرة فكرة إقامة نظام عالمي جديد ../ أي إقامة نظام عالمي للإعلام والاتصال ، تشارك في صياغته دول العالم الثالث من واقع رؤياها لظروفها ومصالحها ... إن مثل هذه الإجراءات تعد بالنسبة للولايات المتحدة " مضايقة

لإشعاعات أقمارها الصناعية " وحصر مفعول إعلاناقما والحد من رواج أشرطتها في الخارج ، على حد تعبير كل من السيدين : " ايبل " و " بوار " في جريدة النيويورك تايمز " الصادرة بتاريخ٢١ من سبتمبر عام ١٩٨٠ وهو نفس العام الذى شهد ميلاد النظام العـالمي الإعلامـي الجديد الذي تبنته اليونسكو ولجانها المشكلة لهذا الغرض ، وأشـهرها لجنة " ماك بجرايد " الإيرلندى الذى تقلد عدة مناصب دولية ، وكانت لجنته الدولية لبحث مشاكل الاتصال والإعـلام في العـالم تـضم في عضويتها : المصري الدكتور جمال العطيفـي و التونـسي الـدكتور مصطفى المحمودي .

والحق أن دول العالم الثالث قطعت شوطاً من الكفاح مـن اجـل إخراج هذا النظام الإعلامي الجديد ، وبقدر ما تـستطيع – بـصورة متوازنة ، وذلك عبر محاولات عديدة امتدت منذ عـام ١٩٧٢ حـتى بلغت هذه المحاولات ذروتها في الجولة الأولى لمؤتمر اليونسكو الحـادي والعشرين عام ١٩٨٠ ، والذي انعقد في بيلجراد ".٥٠

وقد أوضحنا أن اتفاقيات " الجات " والموقعة عام ١٩٩٤ بأرجواى – قد حاولت بوضوح – الالتفاف حول بعض المكاسب التي تضمنتها صياغات القانون الإعلامي الجديد لصالح دول العالم الثالث ، ويتـضح ذلك حين تناولت " الجات " جوانب حقوق الملكية الفردية " حيـث أن الولايات المتحدة تمثل أكثر الدول الغربيـة إنتاجـا لمثـل هـذه الصناعات.

ويجدر بنا ونحن في هذا السياق – أن نـورد مجمـل التحفظـات والانتقادات التي وجهتها الولايات المتحدة وبعض الـدول المتقدمـة

الجوانب في تشريعات النظام الإعلامي الجديد المشاركة في صياغاتها دول العالم الثالث ، وهي تتلخص فيما يلي :

١- نقد السياسات الإعلامية " الموجهة " في كثير من هذه الدول.

٢- مشاكل حماية الصحفيين والمراسلين الأجانب .

٣- تخلف التقنيات الإعلامية والاتصالية ونقص الكوادر في معظم هذه الدول .

٤- ارتفاع نسبة الأمية .

٥- رفض كثير من المفاهيم التي تبنتها هذه الدول وعلى الأخص مفهوم " التبعية الثقافية " .

وبينما يرى الأمريكيون أن تناول دول العالم الثالث لهذا المفهوم يبدو مبالغاً فيه ، فان خبراء الإعلام المنتمين لدول هذا العالم يذهبون إلى أنه تعبير يجسد علاقة عدم التكافؤ في الإمكانات المادية والمصادر الإعلامية بين الدول الغربية المتقدمة ، وبين الدول النامية ، كما يجسد عدم التوازن في التغطية الإخبارية وتبادل المعلومات بين الشمال والجنوب ، مما يترتب عليه تشويه الصورة الذهنية لشعوب العالم الثالث، لدى الرأي العام العالمي ، فضلاً عن إلحاق الضرر الجسيم بالثقافات القومية والأنماط السلوكية لدى هذه الشعوب ، وتعميق الاغتراب الثقافي " ٦٠ إن تلك الاعتبارات حدث ببعض الأصوات في العالم الثالث إلى اعتبار التبادل الإعلامي المتكافئ – ما هو إلا خرافة ، ومما يزيد هذه الإشكالية تعقيداً ، ارتباط الثقافة بالإعلام من ناحية ،

واهتمام الدول المتقدمة بالبعد الربحي الاقتصادي من ناحية أخرى ، مع وضع تحفظات من شأنها الحد من تقييد حركة التدفق التكنولوجي الاتصالي والإعلامي.

لقد حدت هذه الملاحظات الهامة بدول العالم الثالث إلى ضرورة طرح مسألة " استلاب الشخصية " للحوار والمناقشة في الاجتماع الأول لخبراء التربية والثقافة قبيل انعقاد قمة دالهي للبلدان غير المنحازة في ابريل سنة ١٩٨٢ ، بينما عقدت القمة نفسها في سبتمبر ١٩٨٣ ، وكذلك بحث مسألة " علاقات الثقافة والتربية بوضوح الإعلام والاتصال " في ندوة " مكسيكو " حول " السياسات الثقافية " عام ١٩٨٢ أيضاً.

ويجدر بنا أن نسوق شيئاً من بعض الاعتبارات التي تبرر مخاوف خبراء العالم الثالث في صورة أقوال وتصريحات أدلى بها بعضهم .

فمن المكسيك مثلاً يقول " فلورانس وليا " .

" إن الاستعمال الحالي لأجهزة الإعلام العصرية ، ينطلق من مبدأ نكران وجود الذاتية الثقافية للمجتمعات ، وهذا يمكن تشخيصه في سعة انتشار الرسالة الإعلامية .

ومن النتائج المترتبة على ذلك ، توحد النماذج والآراء والأذواق ، وتعميم أنماط الحياة والدفع إلى التقليد الأعمى ، وكذلك التلاعب بالمبادئ والعبث بالضمائر من خلال الإعلانات والبرامج الموجهة ، وكل هذا من شأنه أن يخل بقدرة الإنسان على الخلق والابتكار ، وأن يحد من قدرته العقلية على النقد والتحليل ، أي يضر بالمقومات الرئيسية للثقافة " ٧٠

رغم هذا فإن مستر" لوبيز " عضو اللجنة الدولية التي كانت مكلفة بدراسة المشاكل الدولية لإعلام – يرى

أن أجهزة الأعلام يمكن استعمالها للبناء كما يمكن استعمالها للهدم ، وهو لا ينكر التجانس بين الإعلام والثقافة ، وكذلك المزايا التكنولوجية ويؤكد على أن النمو الثقافي لا يكون له حظ من النجاح إذا انعدمت الحرية الإعلامية .

وربما يؤكد هذا الرأي ما ذهب إليه د . سليمان العسكري رئيس تحرير مجلة العربي الكويتية بقوله :" أنه من الخطأ تصور أن الفضاء الإلكتروني يعزز الديمقراطية دائماً ، فنظرة متروية لكيفية عمل وسائل الإعلام في عالم اليوم يتبين أن الإعلام يظل عرضة للتلاعب إما عن طريق السلطة السياسية التي تحركها المصالح الذاتية الآتية ، أو عن طريق القوى الاقتصادية للشركات التي تحد من الموارد الإعلامية وتنوعها ومصداقيتها " ٨٠

ويؤكد د. العسكري أن القوة والتطور اللذان شهدهما وسائط المعلومات ليسا موجودين في الفراغ ، وإنما هما يعكسان حالة التنمية الاقتصادية والتكنولوجية والثقافية لكل مجتمع وكل دولة ويستشهد على ذلك بتحويل وسائل الإعلام في الدول الاستبدادية إلى خادمة للسلطة السياسية وتوجهاتها ، وعلى الجانب الأخر ففي أعرق الديمقراطيات وصلت ملكية وسائل الإعلام إلى ما يعتبره البعض مستوى خطيراً من التمركز والاحتكار . ففي بريطانيا تصل نسبة الانتشار الإعلامي لمؤسسات " روبرت مردوخ "إلى٣٧ % من معدل تداول الصحف الوطنية اليومية .

كما أن الصحف التي يمتلكها " روبرت هيرسانت " – تمثل ما يزيد على ثلث الصحف الوطنية المتداولة في فرنسا ، و ٥٠% في بولندا، أما في ايطاليا فإن رئيس وزرائها السابق الملياردير " سيلفيو بيرلسكوني " يملك القنوات التليفزيونية التجارية الثلاث التي تحتل موقع القمة ، وجميع هذه الأدوات دعمت بقوة حزبه السياسي اليميني حتى وصل إلى السلطة .

" إننا نعيش اليوم عولمة القطب الواحد وإن التكنولوجيا لا تحدث فقط تحولاً في العالم ، بل إنها تخلق عالمها المجازى أيضاً ، وتمكن التكنولوجيا أقمار الإرسال التلفزيوني الصناعي اليوم الناس على طرفي الكوكب من التعرض بانتظام لطائفة واسعة من المحفزات الثقافية " *٩ والجدير بالذكر في هذا المجال ، وعلى مستوى عالمنا العربي والإسلامي – فإن كتابات كثيرة وأحاديث مطولة قد أثيرت تناولت تأثيرات العولمة ومخاطرها في أبعادها الإعلامية والثقافية ، وعبر الكثيرون من مفكرينا عن قلقهم ومخاوفهم تجاه هذه التأثيرات وانعكاساتها على قضايانا ، خاصة ما يتصل بالهوية والوعي من جانب أخر .

لقد نتج عن هذه الكتابات والمناقشات كم ضخم من كتب ومقالات وأحاديث مذاعة وندوات عقدت يصعب حصرها ، خاصة في السنوات الخمس الأخيرة ، وما إن خفت حدة هذه الأصوات وهدأت نوعاً ما ، حتى أثيرت المخاوف من جديد بعد أن قامت حكومة الولايات المتحدة ببث قناة " الحرية " الفضائية الناطقة باللغة العربية والموجهة لمنطقة الشرق الأوسط وذلك مواكبة مع طرح

مشروع " الشرق الأوسط الجديد " والذي يتلخص في رسم خريطة جديدة للمنطقة ومن هنا ارتفعت الأصوات مرة أخرى متوجهة بالنقد لهذا المشروع ولسياسات الولايات المتحدة الإعلامية .

د- محددات العملية الاتصالية :

إن وقوفنا على الدور الذي تلعبه وكالات الأنباء، ومحطات التلفزيون الضخمة، ومحددات العملية الاتصالية نفسها ، يبرر لنا هواجس ومخاوف دول العالم الثالث ، فهذه الوكالات وتلك المحطات تمتلكها الدول المتقدمة ، وتقف ورائها شركات عابرة ضخمة ، ودورها لا يقف عند النقل الإخباري ، بل يشمل إرسال التكنولوجيا ورؤوس الأموال وبيع العديد من الصناعات الإعلامية .

وتورد لنا إحصاءات اليونسكو على سبيل المثال أن مصر وسوريا تستورد كل منها – ثلث إجمالي بثهما وتزيد النسبة في الجزائر أو لبنان حتى تصل في البرامج الثقافية إلى قرابة ٧٠% من إجمالي ما يستورده من الغرب – أما بالنسبة للوكالات الخمس الكبرى وهي :

الأمريكتين (أسوشيتدبرس ويونايتدبرس) ، والبريطانيتين (انترشيونال و رويتر) والفرنسية (أجنس فرانس برس)– فإن الدكتور مصطفى المحمودي الخبير الإعلامي العربي – يورد لها إحصائية عن امتدادات أنشطتها ، تتمثل في أكثر من ٥٠٠ مكتب ، و٤٣١٩ مراسلاً بالخارج في ١١٦ بلداً ، وتصدر كل منها يومياً ما لا يقل عن ١٧,١١,٢ مليون كلمة في المتوسط ١٠.

وتتضح الصورة حين نتناول مكونات العملية الاقتصادية والتي تتحدد في قواعد خمس معروفة وهي :-

١- من (منتج المادة الاقتصادية) ؟

٢- ماذا قال (مضمون المادة)؟

٣- لمن قالها (الجمهور المتلقي) ؟

٤- كيف قالها (الوسيلة الاتصالية) ؟

٥- أثر وصدى (المادة الاتصالية) .

ويشير المحدد الأول إلى مصدر المادة الاتصالية أو منتجها الأصلي .

ونلاحظ أن الشركات الأجنبية وهي حوالي ٢٠ ألف شركة تسيطر على نحو ٨٠ ألف شركة تابعة في سائر دول العالم الثالث وتوجد مقراها الرئيسية في كل من الولايات المتحدة واليابان وألمانيا وسويسرا والمملكة المتحدة وفرنسا ، وأن الأغلبية الساحقة من الشركات الأجنبية التابعة لهذه الدول توجد في دول العالم الثالث التي كانت تابعة لها فيما قبل بشكل رسمي وخصوصاً بريطانيا وفرنسا ، والأهم من ذلك هو أن هذه الدول هي موطن وكالات الأنباء العالمية الرئيسية وعليها تعتمد في الواقع كافة اقتصاديات السوق (ما عدا اليابان) ، وبالمثل فإن نسبة عالية من البرامج التلفزيونية لمعظم دول العالم الثالث يتم استيرادها من الولايات المتحدة وفرنسا والمملكة المتحدة وأخيراً فمن أكبر الوكالات العالمية في العالم للإعلان الدولي وكذلك التسويق ، هناك أكثر من ٢٠ وكالة إعلانية أمريكية ومعظمها تحصل على إعلاناها من الخارج .

المحدد الثاني (مضمون المادة الاتصالية) . :

الخاص بمحتوى الرسائل المنقولة من الدول التي توجد بها المقار الرئيسية للشركات التي تتولى إنتاج الصناعات الإعلامية ، ولا سيما ما يتعلق بالثقافة التجارية لهذه الشركات .. إن الثقافة التجارية تتضمن مجموعة من العناصر يمكن تلخيصها في بعدين :-

أولهما : ما يتعلق بالاتجاهات والقيم وأنماط السلوك .

ثانيهما : أنماط التنظيم والإنتاج والاستهلاك .

ويتسع البعد الأول كي يشمل نطاقاً أكبر من نطاق الثقافة التجارية – يتضمن على سبيل المثال : التفصيلات الإيديولوجية أو الاتجاهات وأساليب الحياة وأنماط السلوك العامة ...ويتضمن البعد الثاني للثقافة التجارية ميكانيزمات تشجيع أنماط وعمليات إنتاجية واستهلاكية لا تلبي احتياجات المجتمعات ، بل تؤدي إلى خلق الإحساس بالحاجة إلى التوسع الاستهلاكي ، ويمكن أن يتم هذا بصفة خاصة من خلال العلاقات العامة ، والتسويق والإعلانات الباهظة التكاليف .

المحدد الثالث (الجمهور المتلقي) :

ويلعب العاملون في شركات الصناعات الإعلامية دوراً في نقل القيم وأنماط السلوك ، ويركزون على " فئات ذات قوة استهلاكية " من الطبقات العليا والفئات العليا من الطبقة المتوسطة في مجتمعات العالم الثالث من خلال الإعلام المقروء والمرئي والمذاع ، وفي ظل العولمة الإعلامية فإن التأثير ينسحب أيضاً وبقوة على الطبقات الفقيرة ، فالعولمة على حد تعبير الدكتور سيد الدسوقي " تتدخل الآن في أعمق

أعماق الريف ، لتصل إلى الفلاح الفقير وزوجته المسكينة ليـــشاركهما في كل شيء يفعلانه ويمنعهما من فعل أي شيء لا يريده هو "١١

والمحدد الرابع (كيف تصل المادة الإعلامية ؟) :

ويتناول القنوات الإعلامية (بأنواعها) التي يتم عبرهـــا إرســـال الرسائل والمواد الإعلامية والتي تسهم في تشكيل الأنماط الاستهلاكية ؛ وتلعب الإذاعة والتلفزيون دوراً رئيـــسياً ، ثم الـــصحف والمجـــلات والنشرات المهنية والكتب والاسطوانات وشرائط الفيديو وأقـــراص ال CD,وثمة قنوات أخرى ذات صلة بالموضوع وهي المعاهد التعليميـــة والمديرون والعاملون في الشركات الأجنبية التابعة بـــل وحـــتى اللغـــة وأساليب تدريسها.

أما المحدد الخامس والمتعلق بالتأثيرات :

فمن المعروف أنه كلما زاد تعرض أكبر عدد ممكن مـــن الأفـــراد والمؤسسات للرسالة الإعلامية ، فإن الأثر يكـــون أعظـــم وأعمـــق ، ويرتبط هذا الأثر بمدى وضوح الرسالة الإعلامية وتكرارها وقـــدرتها على الإقناع ، وكذلك عدد القنوات ومدى تنوعها ومدى اخـــتلاف البيئات الاجتماعية للجمهور، ويبدو على وجه الإجمـــال أن مجموعـــة الشروط الرئيسية للتأثير تتحقق في عموميتها في معظـــم دول العـــالم الثالث وخاصة الدول الأفريقية " ١٢" .. أننا لا نستطيع أن ننكـــر أن الأدوار الأتي تتطلع بها أجهزة الأعلام والثقافة والتي تتزايد أهميتها يوماً بعد يوم والتي تعدت وظيفتها جمع الأنباء والبيانات والصور والتعليقات

إلى وظيفة أكبر وأبعد يمكن لنا أن نستخدمها الاستخدام الأجدى عن طريق سياسات إعلامية جادة نحو تكوين أراء من التوحيد والمشاركة ، الحوافز و الدوافع ، والحوارات والنقاش ، وخدمة المجتمع والتثقيف والتربية وتهذيب الذوق العام .....ألخ .

وبالتالي لا بد من تحديد الوسائل والغايات بوضوح فيما يلي :-

- إقرار الديمقراطية الثقافية
- استحثاث اللامركزية والمشاركة الجماعية
- الإسهام في التنمية ذات الطموحات الاجتماعية الواسعة .
- حماية الهوية الثقافية والحفاظ على اللغة وتطويرها ."*١٣

نعم .. تلك الجوانب الإيجابية نستطيع الإفادة منها ، وواضح أن فعاليات ونشاطات ثقافية تتم الآن في مجتمعنا تعكس بلا شك إحساسها وإدراكها لخطورة سياسات العولمة الإعلامية ، وتنادي هذه الفعاليات بوضع تصورات " وقائية " لمواجهة العولمة وخاصة في بعدها الإعلامي والثقافي ، وتتمثل هذه الفعاليات في صورة كتب وندوات ومناقشات ومقالات في الصحف والدوريات .. وربما يعد من أبرز هذه الأنشطة ما تتم من خلال معرض القاهرة الدولي للكتاب والمجلس الأعلى للثقافة والفنون والأحزاب السياسية ، ونستطيع أن نحدد ما يثار عبر هذه الفعاليات من قضايا وتصورات تختص بالبعد الإعلامي للعولمة وأنماطها الثقافية فيما يلي :

١- ثقافة الاستهلاك المحموم
٢- ثقافة الجنس
٣- ثقافة السلام

وتتعرض هذه الجوانب من العولمة الثقافية والإعلامية لانتقادات حادة وخاصة فيما يتعلق بآثارها على الأنماط السلوكية والجوانب الأسرية والأخلاقية وأثر ذلك على عملية التنمية ذات الطابع المرتبط بظروف دول العالم النامي بصفة عامة ، ومن هنا فتعبير "التبعية الثقافية" الذي يثير حساسية لدى خبراء الدول المتقدمة – حين تطلقه أصوات كثيرة في العالم الثالث ، إنما هو يعكس الإحساس بالتأثيرات على هذه الجوانب الذي ذكرناها وخاصة جانب " الهوية الثقافية والحضارية " .

ويحضرني في مقام تناول الأنماط الثقافية للعولمة " مقال " تحت عنوان " الوزير ..والكتاب ..وثقافة العولمة " للأستاذ مرسي عطا الله رئيس تحرير جريدة " الأهرام المسائي " يقول فيه :" إن أخطر تحديات العولمة بالنسبة لنا ولكل الشعوب صاحبة الحضارة والتاريخ – هو التحديات الثقافية – التي تتجاوز في مخاطرها تحديات التقنية الحديثة وأطماع الكبار في ثمار السوق المفتوحة وحرية التجارة ، ومن المهم أن نتبين بوضوح ، أن العولمة ولو إنها نظام اقتصادي في المقام الأول ... سياسي اجتماعي في المقام الثاني .. إلا أنها بلا شك تحمل ثقافة جديدة .. فالطوفان المعلوماتى والرموز التي تشيعها وتنشرها العولمة بكل وسائل الاتصال الحديثة فائقة القدرة ووسائل الإعلام فائقة السيطرة " سينما ، إذاعة ، تليفزيون " جعلت البعض يطلقون عليها ثقافة " القطيع الإلكتروني " ، والبعض الأخر يطلق علها " ثقافة عالم ماك " نسبة إلى سلسلة " ماكدونالدز " الغذائية الشهيرة ، والبعض ينسبها صراحة إلى الثقافة الأمريكية .. ولكن تبقى الحقيقة المجردة أن هناك أرضية مشتركة واضحة المعالم لهذه الثقافة الجديدة ويرى الدكتور " هاء

الدين" ـــ والكلام لمرسى عطا الله ـــ أنها ثقافة تمجد الاستهلاك هدفها الرئيسي إيجاد أسواق جديدة ، وإطلاق شهوات الاستهلاك إلى أقصى عنان لها ، وما زالت أهداف التجمع الرأسمالي هو إقامة وتطوير حالـــة عدم الرضا المستمرة عن المنتجات الموجودة حاليا حتى تتحقق حالة من الطلب المستمر والجديد على المنتجات الجديدة أو النماذج المستحدثة ، ذلك أن هناك نظرية اقتصادية لها مؤيدون كـــثيرون تـــرى أن زيـــادة الاستهلاك محرك قوى لزيادة الإنتاج وتنشيط الاقتصاد ويطلق عليهـــا اليابانيون " شيندوجو " " تكالب استهلاكي - بصرف النظـــر عـــن إشباع الحاجات "ويتمثل في عشرات من الأجهـــزة والـــسلع والآلات الموجودة فى كل منزل وتكاد لا تستعمل إطلاقا .. إنها ثقافة مادية بحتة لا مجال فيها لروحانيات أو عواطف ، ولا مـــساحة فيهـــا للمـــشاعر الإنسانية ولا للعلاقات الاجتماعية القائمة على التعـــاطف والتكافـــل والاهتمام بالآخرين .. بل إنها ثقافة تروج لتمجيـــد الـــربح وســـحق المنافسين وتؤله المال وتلغى كل ماعدا ذلك من قيم .. إنها ثقافة تشكل عالما يجعل من الشح والبخل فضيلة ..والأهم من ذلك أنهـــا تـــستهين بكثير من القيم المجتمعية .. أنها لا تقيم وزنا لهوية أو انتماء .. ولا تهتم بحقوق المواطنين ولا بفرص العمل ولا باعتبارات البيئة ، وأحيانا تعتبر هذه المفاهيم عقبات يجب إزاحتها ".[١٤٠]

ويقول الدكتور عبد الوهاب المسيرى : " شعار العولمة من الممكـــن طرحه ، إذ يعنى أننا نعيش جميعا فى قرية صغيرة تحكمها مجموعة مـــن القيم الواحدة ، وجوهر ذلك أنه ينبغي أن نتاجر سويا ونتمتع ســـويا

لأن جوهر المنظومة العلمانية هو ما أسميه الإنسان الاقتصادي والإنسان الجسماني ، ونجد فى إعلانات التليفزيون بلـــورة لهـــذا ، فإعلانـــات التليفزيون هي محاولة لبيع السلعة من خلال الجنس بمعـــنى التوجـــه إلى الإنسان الاقتصادي من خلال الإنسان الجسماني ولذلك نجـــد أنهـــم يبيعون لنا المبيدات الحشرية من خلال شقراوات يقفزن ويتراقصن دون أن يكون لذلك أي علاقة بالمبيد العشري . ولكن أدرك العـــاملون في قطاع الإعلانات أن هذه الخلطة هي التي لا يمكن هزيمتها لأنها تتـــواءم وتعبر عن هذا النظام العالمي الجديد "[١٥]

إن مثالي مرسى عطا الله وعبد الوهاب المسيرى يجـــسدان بـــصورة واضحة تلك الفلسفة الإعلامية والثقافية للعولمة والتي حددنا محاورهـــا في: ثقافة الاستهلاك والجنس والسلام ... السلام الذي يعد المـــسرح للتجارة ويهيئ الأجواء للربح دون مشاكل ومعوقات .

هـــ- العولمة تفرض نفسها :

إن جنون الاستهلاك ووحش الجنس وثقافة السلام بدأت بالفعـــل تجنى ثمارها فى مجتمعاتنا العربية والإسلامية ويمكن أن نشير في عجالة إلى وقائع وأحداث تدل على ذلك منها " ، مؤتمر المرأة والسكان العـــالمي الذي عقد في القاهرة في سبتمبر عام ١٩٩٤ والذي ركزت توصـــياته على إطلاق حرية العلاقات الجنسية بكافة أشكالها ، والدعوة إلى الثقافة الجنسية (مصر والدول الإسلامية ليست ملزمة بتلك التوصيات).

- تواجد عدد كبير من مراكز الأبحاث والمنظمات الأهلية والدوليـــة التي تتبنى مفاهيم العولمة وثقافة السلام .

● قانون الأحوال الشخصية الجديد وتعميمه لظاهرة الخلع وإقـــراره للزواج العرفي وإضفاء الشرعية عليه .

● تجارب متعددة ومتناقضة لنظم وسياسات تعليمية يجرى تطبيقهـــا فى مدارسنا رغم تباين التوجهات واختلاف ظروف مجتمعاتنا .

● إعاقة مسيرة التنمية بقوانين الإغراق ومعـــايير " الأيـــزو " الـــتي تواجهنا بها الدول الصناعية المتقدمة فضلا عن الموجة العارمة للأ نمـــاط الاستهلاكية التي تفرض " استيراد استهلاكي " عبر الإعلانات وأغـــاني الفيديو كليب والمعارض التسويقية .

● استخدام بعض " الرموز " الثقافية والفكرية للترويج لثقافة السلام والتطبيع والتى تهدف فى النهاية إلى محو ذاكرة الآمة وتفريغ تاريخها من معانى المقاومة والتضحيات الجسيمة التى قدمتها الآمة لاسترداد حقوقها ومقدساتها الدينية والتاريخية المشروعة .

و- العولمة والأدب والمثقفون:

يكاد يجمع النقاد ودارسو الأدب على اختلاف مذاهبهم الفكريـــة والأدبية ـــ على أن الأدب فى مصر وفى العالم العربي عامة يعيش منـــذ فترة طويلة وحتى الآن ـــ مظاهر أزمة حادة ـــ وهذه الأزمـــة تمتـــد لتشمل كافة الأنشطة الثقافية في السينما والمـــسرح ونـــوادي الأدب وقصور الثقافة ، وإذا كانت هذه الأزمة تعـــود إلى أســـباب كـــثيرة ومتشابكة نذكر منها : ـــ استفحال ظاهرة الشللية الثقافية سواء على مستوى الأدب أو السينما ، ومعوقات نشر الإنتـــاج الـــسينمائي إلى تكاليف إنتاجية باهظة ، ومحدودية دور العرض السينمائي وغيرها مـــن الأعراض السلبية التي نطالعها يوميا عن الحياة الأدبية والفنية ورغم مـــا

يبذل للتخفيف من حدة هذه الأعراض متمثلا في جهود وزارتي الثقافة والإعلام سواء بقطاع الإنتاج السينمائي ، وتوفير الاستوديوهات وهى جهود ملموسة ومشكورة ـــ إلا أن الأزمة تبدو لي وأنا متخـــصص في الأدب ومعنى بدراسته ـــ أعمق وأبعد من تلك الظواهر الـــتي يمكـــن محاصرتها والتغلب عليها واعي أنها أزمة فكر وهوية ثقافيـــة في المقـــام الأول ..إنها أزمة أدب يتلمس طريقه وسط ركـــام مـــن الاتجاهـــات والنظريات ، وثقافة تقف على مفترق الطـــرق تبحـــث عـــن هويـــة وتتجاذبها عوامل متناقضة بين الأصالة والتجديد ، وتعانى من مـــشكلة التوفيق بين طرفي المعادلة هذين وإذا كان قارب الثقافـــة يجـــدف الآن بمجاديف معاصرة وأصبح من المؤكد أنة لا عودة للمقولات والأشكال الكلاسيكية في الأدب والسينما ، إلا أن ما نواجهه مـــن إنتـــاج أدبي وفني والذي يتراوح بين السطحية والاستهلاكية من جهة والتغريـــب المأزوم من جهة أخرى ، ربما يفسر لنا عمق الأزمة التي أتحدث عنها ، فالعولمة التي طالت الطفل في دور الحضانة والفلاح البسيط في حقلـــه ، طالت أيضا الثقافة والأدب بل هي أجدر أن تنال منـــهما ... يقـــول الناقد الدكتور عبد الحميد حمودة متناولاً بعض جوانب هـــذه الأزمـــة الأدبية وذلك بمناسبة حصوله على جائزة " محمد حسن فقي " في نقد الشعر عن كتابه " المرايا المحدبة " : لم يخطر ببالي في يوم من الأيـــام أن الكتاب سوف يكون شهادة على الحالة النقدية العربية في الربع الأخير من القرن العشرين ، كنت أدرك جيداً أننا نقترب من نهاية قرن مـــن الانفتاح على ثقافة الأخر بدرجات متفاوتة ، وأننا نحتـــاج إلى تقيـــيم لموقفنا الثقافي قبل الدخول في الألفية الثالثة ، لكنني لم أحلم أبداً بالقيام بتلك المهمة و لم أدع شرف الاضطلاع بها ، كما أنني لم انطلـــق مـــن سوء نية لتقويض المعبد فوق رؤوس حراس الحداثة العربيـــة وجمـــيعهم

أساتذة كبار أعطوا الفكر العربي دون قيود أو حدود . وسوء النيـة — وهو ما دفع به البعض للأسف في مواجهة تأثير الكتـاب ، وكـأن المفكر العربي في عصرنا الحديث مطالب بتقديم شهادة حسن نية قبل أن يمارس حقه الطبيعي والمطلق في الاختلاف ... اختلفت علـى وجـه التحديد — مع مقولة أساسية : تنادي بالربط بين التحديث والحداثـة الغربية مستغلة في ذلك حماسة الإنسان والمثقف العربي للحاق بركـب الحضارة الغربية ثم مستخدمة شعارات " الاستنارة " " والتنوير " ذريعة لاتهام كل من ينادي بمراجعة موقفنا الفكري بين التـأثير والنقـل — بالرجعية والانعزالية والانغلاق . وأعترف هنا بأن ذلك الاتهـام ظـل سلاحاً مرفوعاً في وجه الجميع طوال العقدين الآخرين مما ولد لـدي المثقف العربي — رهبة واضحة في ممارسة حقه في الاختلاف . فمن هو المفكر الذي يغامر في موقف الدفاع عن النفس ضـد تهـم الرجعيـة والانعزالية والجهل !؟... لكن ما حدث أن كتاب " المرايا المحدبـة "- جاء دون قصد أو تخطيط — شهادة على الحالة النقدية العربية خاصة ، والحالة الثقافية عامة ، بعد أن تحولت الدعوة إلى نهضة فكرية عربية رفع شعارها المفكرون العرب في السنوات المبكرة في القرن العـشرين مـن التأثر الصحي بثقافة الآخر وفكره عن طريق الانتقاء الذكي لما يتفق مع معطيات الثقافة العربية — إلى الارتماء الكامل في أحضان الحداثة الغربية دون إدراك حقيقي للاختلافات الجوهرية بين وقائع الثقافتين ...وهكذا أضعنا فرصة ذهبية للانتقال من مرحلة التأثير والانتقـاء الـصحية إلى مرحلة تطوير فكر نقدي عربي يعكس خصوصيتنا الثقافيـة ، ولـيس صحيحاً ما يردده بعض دعاة الحداثة في العالم العربي من أننا تحولنا ممن استهلاك الحداثة الغربية في الثمانينات إلى إنتـاج حداثـة عربيـة في التسعينات .. وانتهى القرن الماضي ونحن أبعد عن جذورنا الثقافية ممـا

كنا عليه في بدايته..وليس صحيحاً أيضاً أن الحداثة العربية تقوم على الأصالة والمعاصرة .. إذ أن واقع الحال – كما كتب أحد نقادنا الكبار ممن تنبهوا لخطورة الذوبان الكامل في ثقافة الأخر – يؤكد أن العلاقة بين الأصالة والمعاصرة عند الحداثيين لا تتعدى واو العطف بين المفردتين بل وصل الأمر بالبعض في تطبيقهم الخاطئ لبعض شطحات ما بعد الحداثة – إلى الدعوة إلى حرق التراث الشعري لبعض عمالقة الشعر العربي وهي دعوة تعطي مصداقية لرأي مناهضي مشاريع ما بعد الحداثة الغربية داخل الواقع الثقافي الغربي نفسه – حين شبهوا التفكيكية بثور هائج انطلق داخل حانوت للعاديات يحطم كل شيء ويدمر كل ما هو تراثي في فوضى كاملة!!!..ليس معنى هذا بأي حال من الأحوال أن فكر الحداثة الغربية شر كله ، فمثل هذا القول يعني التعصب الفكري القاصر والدعوة إلى العزلة في عصر أصبحت فيه تلك العزلة ترفاً فكرياً مستحيلاً ، ولكنه يعني في نفس الوقت أن فكر الحداثة الغربية ليس خيراً كله ..."[١٦٠]

تلك شهادة ناقد أدبي كبير تعرض لبعض أسباب وتداعيات أزمة النقد والأدب العربي الذي يعاني كما أسلفنا إشكالية " الاغتراب " ونلخص شهادة الدكتور حمودة محاولين تفسيرها في النقاط الآتية :

١- توقف محاولة إيجاد نقد عربي يجمع بين الأصالة والمعاصرة نتيجة تعالي أصوات تطالب"بالحداثة" وتطبيق ممارسات " البنيوية " التي كانت تعني " دراسة مدخلات النص الأدبي نفسه وموت المؤلف".

٢- إن محاولة تأصيل نقد عربي معاصر ، أو بمعنى أوضح محاولة تأكيد " هوية الفكر العربي " جوبهت بحملات " مكارثية " تدين أصحابها بالتخلف والجمود والانغلاق ، تحت شعارات " الاستنارة "

و " التنوير " والتي كانت يمكن أن تمتـــد إلى اتهامـــات " بالجهالـــة " و " الإرهاب " وهى " موضة العصر ".

٣- إن الأدب العربي الذي كان مازال في جدلية مرهقة مع الحداثة و " البنيوية " فوجئ وهو فى خضم هذه العملية بموجات ما بعد الحداثة الداهمة تكاد تغرقه وتزيل ما تبقى له من قوة .

٤- إن تيار ما بعد الحداثة " التفكيكية " هو المتحـــدث الرسمـــي للعولمة من الجانب الفكري و الأدبي وهذا التيار ، يعنى " موت النص نفسه " بعد المؤلف ، ويعني مهاجمة كل الأنساق والأطر الفكرية القديمة والحديثة ، وعدم الاعتراف بأية مقولات أو حقائق تتصل بالطبيعـــة أو ما بعد الطبيعة أو الإنسان أو النظم الاجتماعية أو حتى العمـــل الأدبي نفسه ، وإنما الاعتراف برؤية نقدية يمارسها المتلقي فيما يسمى " إعادة كتابة النص " وهى مقولة ينبه كثير من النقـــاد إلى التوقـــف عنـــدها ومناقشاتها قبل الاتفاق معها ، إذ إنها تقود إلى إحداث حالة تفكيكيـــة من " فوضى الدلالة " بعد الفوضى الأولى التي ترتبت عن البنيوية عندما أماتت " المؤلف " .

٥- إن تفكيكة ما بعد " الحداثة " والتي يبدو انبهار بعض نقادنـــا وبعض أدبائنا " التنويريين " بها انبهارا شديدا – ما هـــي إلا ترديـــد لمقولات العولمة التي يرددها بعض سماسرتهم " الغربيين ومـــسوقيها في العالم " وخاصة العالم الثالث " وكان أخرهم الفيلسوف الفرنـــسي " جاك دريدا " الذي كان ضيفاً على مصر لمده ثلاث أيام في فبراير عام ٢٠٠٠ م وقال فى إحدى محاضراته بالمجلس الأعلى للثقافة: " إننا نشهد ما نسميه (نهاية العمل) فى ظل الثورة التكنولوجية التي أعلنت نهايـــة العامل بعد أن تشبع العالم بالآلات وأصبحنا نعايش وضعا جديدا " ١٧٠

ويقول الدكتور عبد الوهاب المسيري مفككاً لفكر العولمة " إن معظم الأدبيات التي تحدثت عن العولمة لم تتحدث عن صورة الإنسان التي توجد خلف الأفكار التي يرددها منظروا ، العولمة . موضحاً أن الإنسان الذي يتم تخليقه من خلال العولمة والماكدوناليزم أو اللوكاليزم إنسان حركي ارتباطه بأسرته ومحيطه ليس قوياً وهو إنسان اقتصادي دوافعه الأساسية اقتصادية وهذا الإنسان هو الذي يقف وراء العولمة ، ولا يفصح عنه دعاة العولمة " *١٨

ويقول الدكتور جابر عصفور معبراً عن أزمة الفكر والنقد العربي: " يبدوا حالنا كما لو كنا نغرق في التخلف والتراجع في الوقت الذي يمعن فيه العالم الأول في التقدم والتطور والتحول ويفرض علينا إيقاعه المتسارع الذي نستجيب إليه استجابة " السلب والتقليد " من ناحية ، واستجابة " الرعب والخوف " من ناحية ثانية..،وليس هناك فارق جذري،كيفي بين الاستجابتين اللتين نتمزق بينهما في إيقاع لاهث من التغير "*١٩

وأقول تعليقاً على د. جابر عصفور: إن الفارق الجذري يتمثل في تشجيع ودفع محاولات إيجاد نقد وفكر عربي أصيل ومعاصر ينبع من معطياتنا ويستجيب لطموحاتنا وهي الدعوة التي أعلنها الدكتور حمودة في " المرايا المحدبة " .

والآن نأتي إلى رصد بعض القضايا والظواهر الأدبية التي ارتبطت بتواجد العولمة وتأثيرها المطروح في واقعنا الثقافي ولعل ما يأتي في مقدمة وأبرز هذه الظواهر :-

أولاً :- " ظاهرة جائزة نوبل " للأدب والدوافع التي تقف وراء معاييرها والجدال الذي تركته مناسبة حصول كاتبنا الكبير " نجيب

محفوظ " عليها وبالذات على " أولاد حارتنا " التي رأتها لجنة جـــائزة نوبل أعظم إبداعات نجيب محفوظ " رغم تميز أعمال أخرى كثيرة له.. فهل ما طرحته أولاد حارتنا من مقولات " تفكيكية " هو المغزى المعني بنيل الجائزة ؟ .

إن مقولات (أولاد حارتنا) ، تمس البنى العقائدية لمجتمع إســـلامي في رأي كثير من النقاد والدارسين الذين تعرضوا لتفسيرها ونقـــدها ، وإن لم يكن الأمر كذلك فهو على الأقل نص يحمل في رأينا – كـــثيراً من الالتباس والتشكيك في المدارك والوعي ، وأن أدنى اتهام يوجهـــه " التنويريون " – للمتعاملين مع هذا النص إنما هو العجـــز والفجاجـــة العقلية والقصور والجمود الفكري ...الخ .

ثانياً :– تلك الاحتفالية التي كانت مصحوبة بضجة مفتعلـــة مـــن دوائر الفكر والسياسة والنقد الغربي وخاصة بريطانيا وأمريكا حـــول كتاب " آيات شيطانية " للكاتب الهندي سليمان رشدي الذي لاقـــى تعاطفاً وحماية غربية بغير حدود لا لشيء إلا أن كتابه يتضمن افتراءات بالغة الوقاحة والبذاءة لرموز الإسلام والمسلمين ، ونتساءل لو كانـــت آيات سليمان رشدي الشيطانية – تتناول الرموز المسيحية أو الصهيونية هل كانت ستنفجر من أجله مظاهرات التأييد الهـــستيرية في شـــوارع لندن وأمريكا ، وهل سيعلن البرلمان الأوربي في ستراســـبورج تأييـــده مثلما أعلن عن هذا التأييد والحماية للكتاب الذي نشرته "دار بنجوين" أكبردار نشر في بريطانيا !؟

أم أنه سيحاصر ويطلق عليه رصاص الإرهاب الفكري مـــن كـــل صوب ، مثلما حدث مع الفيلـــسوف الفرنـــسي المـــسلم " روجيـــه جارودى " الذي كثيراً ما تربصت به الدوائر الصهيونية في فرنسا .

وما يقال عن سلمان رشدي يقال عن الكاتبة البنجلاديشية " نسرين تسليمه " والكاتب المصري " نصر أبو زيد " .. ولعل من نافلة القول أن الهجوم على الإسلام تحت ادعاءات ومزاعم التحضر والتحرر الفكري والتنوير أصبح أسهل وأقصر الطرق للشهرة والمجد تحت بؤر الأضواء في الداخل والخارج .

ثالثا : الدعوة المتصاعدة لتدعيم اتجاه " أدب الجسد " المواكب لمؤتمرات حقوق المرأة وتعديلات قوانين الأحوال الشخصية وهو اتجاه سائد فى الغرب يتناول التعبير عن حركات واتجاهات من الشذوذ الفكري والجنس معاً يسمى فى الأصل " بالأدب الخنثوى " !

رابعاً : الدعوة إلى تبنى أدب " حضارة الصورة " " أدب عولمي " ، والمقصود الأدب المنتج والمنقول عبر الوسائط الإعلامية والاتصالية الحديثة والتى تعكس صورة إنسان عالمي ذى بعد واحد وهو البعد الدائم المغايرة ، والمحطم لكل الأنساق والباحث عن الموضة والجديد كل لحظه ... أي الإنسان المطلوب بمواصفات النظام الاقتصادي العالمي الجديد والشركات المتعددة الجنسيات ! تلك بعض الظواهر والقضايا الأدبية المفروضة علينا بمنطق العولمة ، والتي أردت لفت الأنظار إليها وأخذها فى الاعتبار عند محاولة صياغة فكر ونقد أدبي عربي شامل يستجيب كما أسلفت لظروفنا ويعبر عن طموحاتنا .

الهوامش :

١- " الثقافة وعصر المعلومات " د. نبيل على صـــــ٥٥٤،٥٥٥ ـ الإصدار الثاني – سلسلة عالم المعرفة – المجلس الوطني للثقافة والفنون – العدد (٢٧٦) – الكويت ديسمبر سنة ٢٠٠١م

٢-المصدر السابق : صـــــ٤٧،٤٨ .

٣-" الإبداع والحرية "" د. رمضان بسطاويسي صـــ٣٨٥- الهيئة العامة لقصور الثقافة – سلسلة كتابات نقدية – العـــدد (١١٩) – القـــاهرة فبرايـــر ٢٠٠٢م .

٤-الثقافة العربية وعصر المعلومات " صـــــ٤٨ - مصدر سابق .

٥-أنظر :" النظام الجديد للإعلام الدولي " مقال – د. خليل صابات – مجلة عالم الفكر – الكويت – المجلد الرابع عشر – العدد الرابع مارس ١٩٨٤م.

٦-المصدر السابق صـــــ١٣٥.

٧-" النظام الإعلامي الجديد " د. مصطفى المحمودي صـــــ٢٠٢ – سلسلة عالم المعرفة ، العدد (٩٤) – الكويت – اكتوبر ١٩٨٥م .

٨-الإسلام والغرب " مجموعة من الكتاب صـــــ٥٣ - " كتاب العـــربي " العدد (٤٩) – الناشر مجلة – العربي – الكويت يوليو ٢٠٠٢م .

٩-المصدر السابق صـــــ٥٥.

١٠- النظام الإعلامي الجديد " – مصدر سابق – أنظر بهامشه صـــــ٤٢.

١١- الإسلام والعولمة " مصدر سابق صـــــ٦٣.

١٢- مجلة عالم الفكر – العدد الرابع مصدر سابق صـــــ١٣٦،١٣٧.

١٣- " النظام الإعلامي الجديد " مصدر سابق صـــــ٢٠٠.

١٤- جريدة الأهرام المسائي عدد ٤/٣/٢٠٠٠م .

١٥- الإسلام والعولمة " مصدر سابق صـــ٨٧.

١٦- جريدة الأهرام القاهرية ملحق عدد الجمعة ٣/٣/٢٠٠٠م.

١٧- الأهرام المسائي عدد ٢٠/٢/٢٠٠٠م .

١٨- جريدة الشعب عدد ١٨/٢/٢٠٠٠م .

١٩- " آفاق العصر " د. جابر عصفور صـــــ١٤٤ـــ مكتبة الأسرة — الهيئة المصرية العامة للكتاب — القاهرة سنة ١٩٩٧م .

٧- في نقد البعد الأيديولوجي للعولمة :

في تناولنا الموجز للبعدين ، الاقتصادي والإعلامي الثقافي للعولمة – تعرفنا على الملامح الأساسية للتوجهات الاقتصادية للعولمة ، والتي تعبر في حقيقتها عن طور من أطوار الرأسمالية (ربما يكون آخر أطوارها) ، والتي اتخذت من " التنميط الاستهلاكي " سياسة للتعامل تتوافق وهذا الطور الرأسمالي الجديد ، من خلال اقتصاد ضـــخم يتحـــرك بـــسرعة ووحشية عبر أقاليم العالم مستعيناً بشبكة هائلة متطورة مـــن وســـائل ووسائط الإعلام والاتصال ، ومتخذا هذه الشبكة المصغرة والمحاصـــرة للعالم أرضاً وسماء- في الترويج لنمطيته طارحة شعارات "ثقافة العولمة" أي ثقافة عالم جديد داعٍ إلى : التعددية والسلام ونبـــذ العنـــصريات وحماية الأقليات ....ألخ . وهي شعارات كما يعهد الجميع عن كـــل شعارات الغرب – أبعد ما تكون عن المصداقية والثقة وخاصة حـــين تتعارض هذه الشعارات مع نفعية الغرب ومصالحه إضافة إلى أن هـــذه الشعارات كانت ولا زالت تعاني فجوة هائلة بين " إنسانية " المضامين المطروحة " نظرياً " من جهة والواقع اللاإنساني الدامي الذي يمارس فيه الغرب " نفعيته " من جهة أخرى .

ورغم ما تعلنه العولمة من طرح شعارات أكثر تعميماً وإنسانية ، إلا أن إيمان الغرب المترسخ في عقيدتـــه الفلـــسفية بـــالتفوق والأولويـــة الاقتصادية وعقيدة البقاء للأقوى مازال حاكماً لسياساته الغرب ، ولقد جنى الغرب ثمارها طوال " عصر التحديث الصناعي " من خلال هيمنة

المركز " الأوربي خلال قرنين ونصف من الزمان ، أما الآن فـالغرب بصدد طرح جديد وممارسة لنوع أخر من الهيمنة .. فمنذ أواخر القرن العشرين وبعد سقوط وتداعي الأنظمة الشيوعية كانت هناك معطيات جديدة تفرض نفسها ، حدت بالغرب إلى تعديل سياسات الهيمنة وقوة المركز ، فقد تعددت المراكز لتعدد التكتلات الاقتصادية وبروزها على الساحة الدولية متمثلة في أوربا الموحدة أو اليابان وبعض نمور جنـوب شرق آسيا أو العملاق الأصفر القادم من الصين . والعالم بصدد تكوين تكتلات أخرى لا شك أنها ستطرح معطيـات سياسـية جديـدة ، وخلاصة هذا الأمر أنه حدث خلخلة لمركز الهيمنة الذي كان محصوراً بين الشاطئين الأوربي والأمريكي وبالتالي فإن الأمر يستوجب الإشراف على عملية " إعادة توزيع الأدوار" و " تقسيم العمل " بالمنطق الرأسمالي وتصميم نظام عالمي جديد اعتماداً على منجزات القـوة الاقتـصادية ومكتسبات الثورة التكنولوجية ومن هنا كانت العولمة .

أولاً : لا للفلسفة والأيديولوجيا :

والسؤال هل الغرب بصدد إقامة فلسفة عامة لمرحلة العولمـة ؟ أي بصدد تشكيل نوع من الأنساق الفكرية الكبرى التي تسود مرحلـة معينة من مراحل التاريخ ؟ أم أن العولمة مجرد " أيديولوجية " متفرعـة من الفكر الفلسفي الليبرالي للنظام الاقتصادي مستفيداً من مجالات هذا النظام المعرفية ومحاولاً تعديله على ضوء المرحلة الجديدة .

الواقع أن منظرى العولمة ومنهم " جاك دريدا " الفرنسي ومن خلال محاضراته بالقاهرة (فبراير عام ٢٠٠٠) — لم يدع أن العولمة تملك حتى الآن نظرية كبيرة أو نسقاً فكرياً واضحاً، وإنما كل الذي طرحه هـذا

الفيلسوف إنما كان فكراً يدور حول " ما بعد الحداثة ،" وهو فكر نقدي غايته " التفكيك " .أي توجيه ضربات نقدية تفكيكية لكل الأنظمة والمؤسسات في المجتمع الغربي وذلك بعد أن وصلت أزمة الإنسان في الغرب إلى مرحلة دقيقة وخانقة أفقدته الثقة في مؤسساته ونظمه الجمعية ، وغدا إنساناً فرداً معزولاً عن الآخرين محصوراً في دائرة ذاتية مغلقة ، ويحمل في داخله قدراً هائلاً من الشك إزاء هذه المؤسسات والحكومات التي تعلن الإنسانية وتمارس اللاإنسانية .

إن إنسان ما بعد الحداثة الغربي هو إنسان ثائر على " النمطية " و " الآلية " و " اللاإنسانية " التي أفرزها المجتمع الصناعي ، ورغم قيام الليبرالية في الأساس على محاور " تنويرية علمانية " من : الحرية والعدل والمساواة إلا أن هذه المحاور كانت تدور في إطار فلسفي غير مكتمل ، وانحصر هذا الإطار داخل بعدين لا ثالث لهما وهما بعدان غير منسجمين بل متجادلين تجادلاً شديداً البعد الأول : " الإنسان الفرد "، والبعد الثاني هو " العالم الطبيعي " الذي تعامل معه الفكر الغربي بمنطق عدم انسجام بل بمنطق " العداوة " أحياناً وتسخيره لهذا العالم الطبيعي لتحقيق المنفعة والسعادة للإنسان الفرد الذي قدسته الحضارة الغربية والذي جعلته هدفاً وغاية في حد ذاته وليس كائناً منسجماً أو متوازناً في علاقته بالإنسان الآخر – خارج إطار مراكز الهيمنة الغربية . لقد ترتب على هذه المنظومة الناقصة :

١- اغتراب روحي ونزعة واضحة للبحث عن التوازن نتيجة عدم إشباع الحاجات الروحية الضرورية .

٢- تفاقم الأزمات الأخلاقية للنظام الرأسمالي نتيجة عدم كفاية النظم المدنية لإقرار الوازع الخلقي وشموليته .

٣- موقف الحضارة الغربية وآثارها من العالم الطبيعي ، أدى إلى تفاقم مشكلات البيئة وظهور أنواع جديدة من الغضب الطبيعي ، احتجاجا على ممارسات الإنسان العدوانية إزاء عالمه الذي يعيش فيه والمفروض أن ينسجم معه .

ثانياً : محاولات الإنقاذ :

إن تلك المنظومة الغربية الناقصة والتي تعاني الاختلال بين بعديها الإنساني والطبيعي والاختلال حتى في بعدها الإنساني نفسه ، أدت إلى أزمات تاريخية حادة جابهها الفكر الغربي عبر عصور فلسفته الحديثة ، وقادت الإنسان الغربي إلى أزمته التاريخية الحالية ذات النزعة التشكيكية التفكيكية للأنساق الفكرية والنظم الاجتماعية ، سواء في العالم الغربي أو المجتمعات التي تتبنى هذا النوع من الأنساق " لأنسنة " وتطوير "مادية " الفلسفة الليبرالية وتخفيف حدة أزمتها الأخلاقية ، ولكن هذه الجهود لم تثمر عن تعديل هائل أو جوهري في مسار الفكر الليبرالي الذي ظل مستندا ليقين " المادة "، والمنكر في وضوح وحسم لما بعد المادة ، وبالتالي لم تغن " ترقيعات " و " تجميلات " هؤلاء الفلاسفة شيئاً، بدءا " بـ" ماكس فيبر " منظر العقلانية و فرويد منظر الروح الفردية ، وانتهاءاً بالأمريكي " جون رولز" صاحب كتاب " نظرية في العدل "، مرورا بمنظري المنفعة والسعادة " لوك وبنتسام وجون ستيوارت مل " والمعدلين لهم أمثال " كارل بوبر وشتراوس وهايك " ، هذا فضلا عن دعوات ونظريات دعت إلى تجاوز الحضارة الغربية ذاتها، وقد تفاوتت هذه الدعوات في نبرة التشاؤم عند " هربرت ماركيوز " الداعي إلى نبذ هذه الحضارة بالكلية وألا نتخلى أبداً عن إنسانيتنا وفضائلنا البشرية بل يجب المقاومة ولو أدى ذلك إلى رفض هذه

الحضارة .١٠ ومن هنا ، لم تمنع هذه التعديلات " غير الجوهرية " من ظهور فلسفات وثورات طلابية احتجاجية كظهور الفلسفات الوجودية العدمية واجتياح ثورات الطلبة أوربا وأمريكا في أواخر الستينات إلى دعوات تهجر مظاهر الحضارة المادية والمدنية ، ونبوءات فردية اجتهادية تدعى لنفسها امتلاك " الخلاص الروحي" . إن الفلسفات الوجودية الإلحادية التي حاولت علاج أزمات وأمراض الغرب الرأسمالي أو الشيوعي على السواء بمزيد من الاغتراب الروحي ، وعلى طريقة " وداوني بالتي هي الداء "، كانت أقصر الفلسفات الغربية عمراً وأسرعها فناءاً .. وأستطيع أن أقول في قراءة خاصة بي – لما بعد الحداثة ورؤيتها التفكيكية – أننا بإزاء "وجودية غربية من نوع جديد"!.. فهل هذا يقودني إلى القول بأن الفكر الفلسفي الليبرالي المستند إلى " المادية البحتة " يعيش أخر أطواره ؟ أي أننا بإزاء تكوينات المشهد الأخير للحضارة الغربية !

ثالثاً:الوجودية الجديدة :

إن نقد فلاسفة الغرب ونظريات حكمائه لم تسفر كما قلت – عن تعديل جوهري لمسار هذه الحضارة وإنما فقط – أمدها بطاقة ذاتية إضافية – حتى تصل لمشارف قرن جديد ، وإذا كنا نعلم محدودية الطاقة العقلية ، ونسبية الأخلاق الإنسانية ، فالسؤال الذي يفرض نفسه الآن هو " وماذا بعد " ؟! .. اعتقد أن هذا السؤال قد طرح نفسه مراراً على الغرب وبقوة – فلم يجدوا له حلاً غير أن الحركة تؤدي لمزيد من الحركة ، والصيرورة تتحول إلى صيرورة، وبالتالي سنظل

متنقلين من حلقة مفرغة إلى حلقة مفرغة أخرى وهو ما يعني العبثيـــة والتي أسميها " الوجودية الجديدة " التي يعيشها الغرب الآن .

وإذا كان فلاسفة السياسة الغربيين من أمثـــال " كـــارل بـــوبر " والفيلسوف الأمريكي " هايك " يؤكدان أن استحالة التنبـــؤ ســـلفاً بالمسار الذى سوف يسلكه نمو المعرفة البشرية وحالات تشكل الطبيعة الإنسانية ، فإن مستقبل المجتمع البشري ينبغي أن يكون موكـــولاً إلى التطور التلقائي فهل هذا هو المقصود من " فكر ما بعد الحداثة " الجدلي التفكيكي ، الذي يؤدي بنا إلى وضع معين سرعان ما نفككه ثم نكون في صورة نفككها وهكذا .

رابعاً :عالم ما بعد الحداثة :

وعلى جانب آخر فإن عدداً من مفكرينا الإســـلاميين يتـــصورون بعضاً من السيناريوهات المتوقعة لهذا الوضع المتـــأزم فمـــثلاً يـــذهب الدكتور محمد مورو إلى أن " تطور الرأسمالية سيمضي بها إلى الإفلات من زمام الغرب لكي تعمل بتلقائية ذاتية وتلغي الإنسان نفسه في النهاية ويصبح العالم أجمع تحت سيطرة مجموعة من مبرمجي الكمبيوتر ومراكز المعلومات وبعد ثلاثين عاماً مثلاً قد يصبح العالم خاضعاً لتلك الآلة." ٢٠

ويذهب كل من الدكتور عبد الوهاب المسيري والأســـتاذ محمـــد مبروك ، إلى أن إفلاس الرأسمالية لم يعد بحاجة لدليل أو برهان فلم تجد الحضارة الغربية غير أساس " بيولوجي جسماني "مبـــدعاً للأشـــكال والألوان ، مخاطباً على حد تعبير الدكتور المسيري- الإنسان الجسماني الاستهلاكي "٣٠ مثيراً لغرائزه بتنكيك " الصورة "، هذا التنكيك الذي

يعتمد على الإثارة والإبهار والذي تحولت معه " صنعة الفن " الخالد إلى صنعه عابرة فقدت هالة التفرد واستبدلت بها التكرار اللانهائي للاستنساخ الآلي ، هذا الاستنساخ بدوره هو ما دفع " ريتشارد كيرني "إلى القول بأن ثقافة ما بعد الحداثة تتحدث عن " مجتمع المشهد " الذي لا توجد فيه صورة جديدة تحت الشمس، وإنما صور عن صور لصور على صور إلى ما لانهاية .. ويلخص الدكتور جابر عصفور فكر ما بعد الحداثة في أربع مقولات :

١- رفض الذات المتخيلة بوصفها " مركز " أو أصل متعال للمعاني، أي إزاحة الذات عن موضوع إبداعها بل وتفتيت الموضوع نفسه وتشظيته لإعادة إنتاجه بمقولات جديدة ثم ينتج وهكذا ..

٢- رفض ألوان السرد التعميمية الكبرى أو التصورات المطلقة للتاريخ التي رأت في التاريخ وثبة إلى الجديد ، أو مسيرة مستمرة للزمن تقضي إلى تقدم العالم وتحرره .

٣- رفض التصور الحديث للحقيقة من حيث هي أيديولوجيا الهوية الشاملة أو العقل المكتفي بنفسه الذي يسعى إلى إيقاع الوحدة في التعدد اللا محدود للغاتنا وعالمنا

٤- رفض التعارض الحداثي الأجوف بين الفن الراقي للصور الأصلية والثقافة الجماهيرية للنسخ المستنسخة إلكترونياً " ٤٠

إن طبيعة هذه الثقافة " وصورها " ما هي إلا تجسيد لفلسفة الحركة تؤدي لمزيد من الحركة ولا شيء سوى ذلك .. إذن لم يعد لدى الحضارة الرأسمالية من جديد لتقوله و لم تعد لتعترف بأية أنساق فلسفية كبرى تنتظم عالمنا الإنساني بل توليد واستنساخ وإبهار لصور أنتجتها

حداثة عصر التصنيع تنتقل من ضرورة إلى ضرورة محطمة كل الحـدود بين الكلاسيكي والشعبي ، ساخرة مـن كـل الفلـسفات والـنظم والأنساق.

إن اغتراب الإنسان وأزمته التي لم تستطع مواجهتها حضارة الرخاء والترف المادي الرأسمالي ، انتهت بنقد هذا الإنسان ، لمجتمعه بل ونقده لنفسه أيضاً..لقد انتهت فكرة الإنسان بوصفه الفاعل للتـاريخ ولقـد وضع عالمنا كله في ظل العولمة وما بعد الحداثة موضع المـساءلة .. إن هذا ما سميته في بداية حديثي " عالم جديد من الوجوديـة العبثيـة ".. حيث الحقيقة أنه لا حقيقة !!

خامساً : الإسلام والظرف التاريخي :

من هنا نستطيع القول : أننا نعيش في مرحلة هامة ومنعطف تاريخي على قدر كبير من الأهمية والخطورة سيترتب عليه مستقبل الكوكـب ربما لنصف قرن قادم أو أقل ، وذلك بحـساب الـتغيرات الـسريعة المتلاحقة والأحداث غير المتوقعة لعالمنا ، وسواء كان الإعداد والتمهيد لعالمنا لقرن أو ربع قرن قادم .. فإن الظرف التاريخي الآن يبدو مهيـأً بصورة لن تتكرر – لطرح المنهج الإسلامي المتكامل بحضور وتواجد فعال ومقنع ، ورغم بعض الإجراءات التي أتخذها العولميون وقبـل أن يفيق المسلمون – بهدف احتواء هذا الظرف التاريخي والفوز بأحقيـة صياغته وتشكيله – فإن الفرصة مازالت متاحة للإسلام وإلا فإن العولمة اللا شرعية – ستتحول في ظل هذا الفراغ العقائدي والأيديولوجي إلى

واقع يكتسب مشروعيته من هذا الفراغ .. ويجب أن يعـي مفكـرو الإسلام في الشرق والغرب هذه الحقيقة التاريخية ويعملون بسرعة وفي تركيز على إعداد المشروع الإسلامي التكاملي ، ويدركون الخطـوات العملية التي سيخطونها لضمان واقعية الطرح الإسلامي ونجاحه .

إن مقولات ما بعد الحداثة اللا منطقية التي تتردد في عامنا اليوم ، ما هي في النهاية إلا إعلان رسمي لوفاة المادية الغربية ، و لم تكن هذه المرة الوحيدة التي يعلن فيها عن فقر الفلسفة الغربيـة ، وموتهـا ولكنـها بالتأكيد ستكون المرة الأخيرة .. ولأنه لم يعد هناك شيء تجمـع بـه الفلسفات الغربية شتاتها، وتستر بها عوراتها لتواصل بذلك شهقة ما قبل الرقدة الأخيرة – فقد لجأت إلى أتفه السبل وأرخصها وأحقرها شأناً – وهو مخاطبة الجانب المادي الغرائزي والاستهلاكي في الإنسان فارتكن الغرب وليس ثمة حل أخر- إلى تلك الحالة من " العولمة الاستهلاكية " المرتدية لأقنعة وشعارات لم يعد أحد يعيرها أدنى اهتمام .

سادساً : <u>الوجه القبيح للعولمة ..الحـروب الدينيـة الوقائيـة.. والاستباق التصادمي :</u>

لقد أسفر انهيار الإتحاد السوفيتي وسقوط الكتلة الشرقية عن فـراغ ايدولوجي هائل في مساحة كبيرة من أوربا ومناطق كـثيرة في أسـيا وأفريقيا ، مما أدى بالفكر الليبرالي إلى الإسراع لمـلء هـذا الفـراغ والإعلان عن انتصاره تاريخياً في أطروحة "يوكاهاما " " نهاية التاريخ "

وكان ذلك الإعلان بداية لمرحلة نستطيع أن نقول — أنها الأخـــيرة في مسيرة الفكر الليبرالي وهي مرحلة النيوبرالية أو ما بعد الحداثة يواكبها اقتصادياً نزعة هيمنة على أسواق العالم وتنميطها وإدخالهـــا جميعـــاً في نظام اقتصاديات السوق " ، يتوازى معها تقنياً وعلمياً ، احتكار صناعة المعرفة والتحكم في إنتاج المعلومات وبرامجهـــا وتقنياتهـــا والتـــدخل بإنجازات الثورة البيولوجية وفتوحات الهندسة الوراثية لتحوير الانتخاب الطبيعي السلالي إلى انتخاب اصطناعي لصالح الجنس الآري فيما يسمى " اليوجينيا " *» التي ظلت تخفي ورائها أهدافا سياسية عرقية وأغراضاً اقتصادية نفعية طوال قرن من الزمان تقريباً حتى كشفت عن وجههـــا وسقط عنها القناع .

لقد كانت مرحلة ما بعد سقوط الشيوعية فرصة تاريخيـــة نـــادرة وظرفاً مواتياً ومهيئاً لكي يعيد الغرب حساباته الخاطئة دائماً ، ويبـــدأ الجنس البشري عملية إعادة مراجعة ، والقيام بمصالحة كبرى على أسس إنسانية حقيقية ، ولكن طبيعة الغرب النفعية تقوده دائماً إلى ارتكـــاب الأخطاء المصيرية الكبرى التي ما فتئـــت تجلـــب المزيـــد مـــن الآلام والانتكاسات لمسيرة البشرية فها هو الغرب بدلاً من تصحيح المـــسار يستثمر ذلك الوضع التاريخي المتاح لطرح مـــشروعه العـــولمي علـــى الكوكب كله ، وقد وضع له سلفاً برامج وآليـــات محـــددة سياســـياً واقتصادياً وثقافياً ، ليحقق الهيمنة ويدفع بالمزيد من الرخاء والحيويـــة لمسيرة مجتمعاته ، ولما كانت المشاريع الكبرى المصاغة من قبل حضارة معينة تغاير في الكثير من قيمها ورؤاها العديد مـــن القـــيم والـــرؤى الحضارية الأخرى ، وأن مثل هذا الطرح القسرى لا بد وأن يسفر عن

مواجهات وصدام كان لا بد للغرب – كما هي عادته التاريخية وكموقف مبدئي وأصل في نسقه الإيديولوجي قديماً ووسيطاً وحديثاً- أن يختلق المبرر القوي ويبتدع العدو الرهيب الذي يبرر به مواجهاته ويصدر به صداماته التي تنشأ عن مشاريعه المهيمنة وآخرها المشروع العولمي مع بداية الألفية الثالثة ، ومن ثم ، كان هذا العدو الرهيب هو " الإسلام " أو الخطر الأخضر القادم.

ومن هنا أيضاً كانت أطروحة " هنتجنتون " *٦ المعروفة بصدام الحضارات وقد مهد الغرب لصدماته العولمية بحملات تشويه وافتراءات ضخمة ومنظمة ضد الإسلام ورموزه ، فكانت " فوبيا الإسلام " في الغرب أعقبها سياسات الحروب الاستباقية والضربات الوقائية ، فكان ضرب أفغانستان واحتلال العراق واعتماد آلية الحروب الطائفية وإثارة النعرات العرقية والإثنية ، اختصاراً للجهد والوقت والإنفاق الهائل وتجنباً لأخطاء الماضي ومنها خطأ التدخل العسكري السافر .

وحول ما أحدثه حادث ١١ سبتمبر من تغير عميق ، قال " روبرت يانج " الأستاذ بجامعة أكسفورد وأحد المتخصصين في دراسات " ما بعد الاستعمار " – في محاضرة له بعنوان " إعادة قراءة الغرب " ، القاها في المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة ، يتساءل فيها المحاضر :

هل العالم واحد أم اثنان أم ثلاثة ؟ هذا هو السؤال – سؤال للغرب..

منذ انقسام الإمبراطورية الرومانية سنة ٣٩٥ق . م ومن بعدها الكنيسة المسيحية سنة ١٠٥٤م إلى شرق وغرب ، وتلاعب الأوربيين والقوة الأوربية باحتمالات أن يكون عالمهم عالماً واحداً أو عالمين .

ومنذ هيجل ، أضيف احتمال أن يكون ثلاثة ، أي عالم واحد أو عالمين يضاف إليهما الباقي"، مركز ومحيط وهوامش ، نحن – هم .

إذن هل عالم النظام العالمي واحد أم اثنان أم ثلاثة ؟

يمكننا أيضاً التساؤل : هل الغرب واحد أم أكثر من واحد ؟ هل للغرب وجود على الإطلاق ؟

ألم يأت رد الفعل الأول ضد ما يسمى الغرب من داخل أوربا في صيغة رد فعل تيوتوني ضد التنوير الفرنسي ، أو نفور رومانسي من المنفعة المادية ، أو من الثقافة الألمانية ضد الحضارات التحررية للغرب الرومانسي ؟

كيف يبدو هذا الغرب من وجهة نظر" الباقي " ؟

ولكن أيما بدا ، وكيفما كانت صورته ، لقد بدا الغرب يسمع عن نظرة الآخرين إليه في وقت متأخر ، كيف يبدو المشهد عندما تنظر إلى الغرب من الشرق ؟

كان الغربي كراعي البقر على جواده جزءً من الحضارة الأوربية المتحركة ولكن هذا يختلف جذرياً عن تصور الغرب في القرن العشرين، وقت استبدلت رؤية الحضارة الأوربية أو الآرية كثقافة مرتحلة بالضرورة ، متجهة دائماً غرباً بمفهوم الغرب .

ثبت الغرب في هذا الموضع كنظام عالمي فضائي واقتصادي وجغرافي منتشر فوق سطح الأرض كثقافة وحضارة واعية بذاتها ، بينما استخدمت لفظة الغرب في الإنجليزية منذ قديم الأزل للدلالة على الجزء الغربي من العالم – سواء كان غرباً محلياً أو عالمياً – وشجعت أسطورة

الأصول القوقازية على استخدام اللفظة لتميز بين أوربا وأسيا ، فكما يقول روديارد كبلنج الشرق شرق والغرب غرب ! ولكن في القرن العشرين بدأت كلمة الغرب تعني الحضارة الأوروبية في كل من أوربا وأمريكا ، وأصبح هذا المعنى هو المعنى الرئيسي سنة ١٩٤٦ مع هزيمة ألمانيا النازية التي وضعت نفسها ضد الغرب مع حلول الحرب الباردة ضد الشرق الاشتراكي . إن الغرب بمعناه الحديث اختراع حديث جداً. يرتبط تاريخ الغرب بهذا بتاريخين لمناسبتين تحددان ظهوره واختفاءه : إحداهما في القرن العشرين والثانية في القرن الحادي والعشرين ، هما مناسبتان قيام رئيس الولايات المتحدة بزيارة بريطانيا وكانت الزيارة التي قام بها " ويلسون " سنة ١٩١٨ ، والثانية زيارة جورج بوش في نوفمبر٢٠٠٣ ، والتي أعقبت الأولى بخمس وثمانين عاماً ، وفي الحالتين كانت الزيارة تتويجاً لنهاية حرب خاضتها الولايات المتحدة وبريطانيا كحلفاء .

ويمكن القول بأن الزيارة الأولى دشنت الغرب ، أما الزيارة الثانية فقد أنهته رسمياً .

في هذه القصة الممتدة من عام ١٩١٨ وحتى الآن ، كان الشرق الأوسط هو المنطقة الوحيدة التي بقيت في بؤرة الاهتمام، ولعل تاريخ الغرب هو في الواقع وإلى حد بعيد تاريخ الشرق الأوسط . " الغرب " هو بالضرورة مفهوم علاقاتي وجزء من ثنائية الغرب / الشرق ، من المنطقي إذن أن يعني أن العالم عالمان ، إن قسمة العالم إلى عالمين ظهرت أول ما ظهرت مع نشوب ما يسمى بالحرب العالمية الأولى .

ويبدأ الفصل الثاني من تاريخ الغرب مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، ومرة أخرى انقسمت قوى العالم العظمى إلى فريقين ، في حرب ناتجة عن رؤية النازيين لقسمة بين الثقافة الألمانية والغرب .

انتصر الغرب ولكن في الحال تزحزح الخط الفاصل بين أوربا وألمانيا ليعود إلى الحدود الإسلامية السابقة في صيغة شقاق بين الحلفاء والاتحاد السوفيتي ، وقد أدى انقسام أوربا سنة ١٩٤٥وبداية الحرب الباردة إلى اقتران لا يمحى بين أوروبا الغربية وأمريكا في صيغة " الغرب" واستحسن هذا الغرب تسمية نفسه " بالعالم الحر " ، ومن اللافت أن هذا التعريف تضمن جنوب إفريقيا العنصرية ، العالم الحر هو عالم الحرية للجنس الأبيض فقط ولقد أصبح عالمين!

ومع اندلاع الحرب الكورية سنة ١٩٥٥ ، اجتمع في باندونج بإندونيسيا تسعة وعشرون سياسياً من دول أسيا وأفريقيا التي كانت قد نالت استقلالها حديثاً ، وكان من أبرز هذه الشخصيات و رئيس إندونيسيا ، ورئيس وزراء الهند ، ورئيس وزراء غانا ، ورئيس مصر، ورئيس وزراء الصين ، ورئيس وزراء فيتنام الشمالية ، ومن المثير للدهشة أن الوفود المشاركة في هذا المؤتمر أفصحت عن مخاوفها من الاتحاد السوفيتي وبالتحديد من أن تتحول دولها إلى ساحة معارك في الصراع بين الشرق والغرب كما حدث لكوريا وفيتنام ، أو أن يجدوا أنفسهم على مسرح الحرب الباردة المحمومة ، و تحققت هذه المخاوف بالفعل ، فقد كان العالم الثالث الميدان الذي اكتملت فيه معارك الحرب الباردة القاتلة .

لقد كان الرئيس العراقي الأسبق محمد فاضل جمالي — وهو أحد الموقعين على ميثاق الأمم المتحدة — هو الذي اقترح على وفود

باندونج فكرة تشكيل كتلة ثالثة تتكون من أمم صغيرة حماية لهم من تكتلات القوى الغربية والشرقية المفترسة ، وقد قاوم نهرو هذه الفكرة في البداية ، ولكن في العام التالي ، وبعد العدوان البريطاني الفرنسي الإسرائيلي على السويس ، بدأ قادة باندونج في اتخاذ خطوات لتكوين حركة عدم الانحياز ، وأصبح العالم ثلاثة .

وبعد السويس بثلاثة أعوام فقط ، أي عام ١٩٥٩ تغير الوضع مرة أخرى تغيراً مهماً ذا دلالة بسبب الثورة الكوبية التي ربطت بين النضال ضد الاستعمار في أمريكا الجنوبية والنضال ضد أوربا في أسيا وإفريقيا ولكن صعوبة التمسك بمبدأ عدم الانحياز أخذت في التزايد بسبب زيادة التورط الأمريكي في فيتنام والتحول إلى الكفاح المسلح في معظم مستعمرات إفريقيا الجنوبية التي لم تكن قد نالت استقلالها بعد ، فبعد اتجاه الثورة الكوبية نحو الاتحاد السوفيتي تضافرت كل من مقاومة الاستعمار والكفاح الثوري وعملا معاً ضد حكم الخاصة من حكومات أمريكا اللاتينية العميلة للولايات المتحدة ، بلدان صغيران كوبا وفيتنام ، وجد نفسيهما يحاربان غارات الولايات المتحدة بنجاح.

وقد قوى هذا الإفصاح عن الحركات المناهضة للاستعمار والامبريالية في المؤتمر الأول لمنظمة تضامن شعوب أفريقيا وأسيا وأمريكا اللاتينية ، الذي عقد فيه هافانا من ٧إلى ١٦ ينساير عام ١٩٦٦، فللمرة الأولى اجتمعت قارات الجنوب على مصالح مشتركة وموقف دفاعي مشترك في مواجهة الغرب .

في ١٧أكتوبر ، توافق أوبك " الإمـــارات إندونيـــسيا ، إيـــران ، الجزائر، السعودية ، العراق ، فيترويلا ، قطر ، الكويت ، ليبيا ، نيجيريا " على استخدام سلاح النفط عن طريق تخفيض إمدادات النفط للدول غير الصديقة بنسبة ٥٥% شهرياً ، وفي حالة الولايات المتحدة خفـــض توريد النفط تدريجياً حتى يصل إلى صفر، وطبقاً لحسابات عام ٢٠٠٣، إرتفع سعر النفط حتى وصل إلى ما يقرب إلى ٦٠ دولاراً للبرميل .

وأعيدت صياغة العلاقة بين الشرق والغرب كعلاقة بين دول منتجة للنفط ودول مستهلكة له ، وتحولت موازين القـــوى بحـــسم لـــصالح المنتجين .

ومع حلول نظام العالم الواحد في زمننا هذا ، أصبحت العولمـــة في الطريقة الجديدة للحديث عن العلاقات بين المستعمر والمستعمر ، أصبح العالم عالماً واحداً ، فبعد نهاية العالم الثاني وقدوم العولمة أصبح الغرب في كل مكان ، لقد انتهى كنظام إقليمي جغرافي سياسي وأصبح نظاماً عالمياً يجب على الجميع الخضوع له كراهة أو طواعية .

ولكن ، هذا العالم ليس بعالم واحد تماماً ، فقد تزايـــد الاســـتياء والضجر في العالم الثالث ، فقد تدهور الوضـــع في فلـــسطين أخـــر مستعمرة مهمة على وجه الأرض ، ولم ير صامويل هنتجتـــون هـــذا الغليان المتجدد على أنه مسألة سياسية وحقوق أرض وإنمـــا كـــصراع داروييني بين الحضارات ، وهكذا أصبح العالم عالمين .

ويبدوا أن كتاب هنتجتون قد استدعى ذلك الشبح الذي خافـــه في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، وفي مواجهة الهجوم الذى قامت به " القاعـــدة " والمؤلفة من منشقين سعوديين في أغلبيتها ، أعلنت الولايات المتحـــدة الحرب على الإرهاب وأعلن جورج بوش قولته الشهيرة " إما معنا أو

علينا " ، وأصبح العالم عالميين ، ولكن من بالضبط هؤلاء المقـــصودون بـــ " نحن " ؟ وعلى من يعود ضمير المتكلم في هذه الحالة ؟ من هـــم " US " ؟ كبر الحروف وأنظر : إنها " US " – الولايات المتحدة .

ومع إعلان كلمات جورج بوش هذه انتهى الغرب ، أصبح شـــيئاً من الماضي .

إن الهجوم على العراق والذى عارضته معظم شعوب العالم كمـــا عارضته معظم حكومات أوروبا ، قد أشار إلى نهاية الغـــرب ، فقـــد حلت الولايات المتحدة والدول العميلة لها محل الغـــرب ، واتـــضح أن العولمة ليست بتحول إلى العالمية وإنما تحول إلى الإنجليزية وعـــودة إلى أقدم حركات التضامن القومي في القرن التاسع عشر ، التآخي العـــالمي للشعوب الأنجلو- ساكسونية .

لقد أدى ١١ سبتمبر إلى إعادة صياغة العالم ، فالهجوم على أراضي الولايات المتحدة ورد الولايات المتحدة المنفرد بغزو العـــراق يعـــني أن الغرب لم يعد يتحرك بالطريقة السابقة نفسها ، فأوروبا ليست متحفزة ضد العالم الإسلامي في الواقع ، لقد أصبح التمييز بين أوربا التي يمثـــل المسلمون ٥% من سكنه – والعالم الإسلامي – أصعب مما كان عليه في السابق والفروق بينهما أخذة في الاضمحلال .

ما يوجد على مسرح العالم اليوم هو القوى العظمى – والباقي ، لم يعد هناك ، " غرب " ، إنما هناك إستثناء أمريكي .. إن مفهوم الغرب بالمعنى الذي كان دارجاً في القرن العشرين قد انتهى. قالت جرتـــرود شتاين : الحرب العالمية الأولى طعنت القرن التاسع عشر ، ولكنه مات في الحرب العالمية الثانية .

١١ سبتمبر طعنت الغرب ولكن كم عدد السنين أم عدد الحروب التي سيستغرقها حتى يموت؟!٣٠

إن تعبير" صدام الحضارات " الذي صكه الأمريكي اليهودي " صمويل هنتجنتون " كان محلاً لمناقشات وانتقادات الكثير من المفكرين والمحللين في الشرق الغرب الذين ذهبوا إلى تخطئته ورأو – أن تاريخ الحضارات لا يعبر في فترات كبيرة من عمر البشرية إلا عن جوانب ايجابية ، ويفصح في الكثير من وقائعه عن صور عديدة من مشاهد الأخذ والعطاء ، التأثير والتأثير ، التواصل والحوار ، التناص وإعادة إنتاج الإنجازات وتطويرها ، حضارة تسلم حضارة لتتسلم حضارة ثالثة وهكذا.. وإن حضارتنا الحديثة ما هي إلا نتاج لما سبق من تلاقح وامتزاج ، وكل له فيها إسهام ، وكل له فيها نصيب .

لقد كان على هنتجنتون أن يلجأ إلى لي عنق الحقائق وجلدها حتى تصرخ بما ليس فيها فتحول " الصراع " عنده – وهو ظاهرة طبيعية إنسانية يومية – إلى نظرية متكاملة جعلها " صداما" ، وأكد على حتميتها ، بل رسم في شروحه للنظرية بعض سيناريوهاتها .

إن طبائع وظواهر الحياة التي تستمد استمراريتها وتواصلها من التباين والتنوع والاختلاف تستوجب بالضرورة تعدد الأفكار واختلاف وجهات النظر وتباين المواقف والمصالح وهي ظاهرة إنسانية بل وكونية يومية والأمر الطبيعي أنها طبائع وفطر ونواميس توجب التفاهم وتدفع للتعارف والتعاون وهي أدعى للتبادل والتكامل.

إننا ومنذ نهايات القرن العشرين الماضي في إطار منعطف تاريخي هائل وذي بعد مصيري بالنسبة إلى مصائر البشرية ، فإذا كانت نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين قد تحددت من واقع

الرأسمالية الأميريالية في قانون إعادة توزيـــع العـــالم اســـتراتجياً وفـــق مصالحها، فإن نهايات القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين تفصح عن نفسها من واقع رأسمالية نيوبرالية عولمية أتت بعـــد انهيـــار المنظومة الشيوعية وتفتيت الواقع العربي والإسلامي بعد حرب الخلـــيج وضرب أفغانستان واحتلال العراق وإثارة القلاقل مع السودان ومحاولة حصار وضرب إيران وغيرها وغيرها في سبيل طرح الوضـــع الجديـــد و تهيئة الأجواء والأرض لاختزال العالم إلى هوية وحيدة هـــي هويـــة الكوسموقية السلعية بدلاً من كوسموبوليتنية القرن التاسع عشر مع تقدم هائل غير مسبوق على الصعيد العلمي الاقتصادي والعسكري .

يقول د. طيب تزييني منطلقاً مما سبق من حقائق :" هكذا ، الرغبة العولمية الوطيدة لإعادة بناء العالم كله عبر إعادة بناء هوياتـــه الوطنيـــة والقومية أولاً ، وعبر استبدال الصراعات المثمرة والمفتوحـــة تاريخيـــاً (كالصراع السياسي والقومي الوطني والطبقي) بـــصراعات عميقـــة تاريخياً، ومن ثم مغلقة تاريخياً ، من نمط الصراعات الطائفية والمذهبيـــة والإثنية والإقليمية " ٨٠ وينبه د. طيب تزيني إلى أمر هام يجب أن يؤخذ بعين الإعتبار وهو " أن المشروع الصهيوني راح يندغم شيئاً فـــشيئاً في بنية النظام العولمي الجديد ، محققاً بذلك عملية الانتقال إلى " ما بعـــد الصهيونية " كنوع من الاستجابة العميقة للمرحلة ، العولمية والانتقال وفق واقع الحال إلى مشاريع الشرق أوسطية ، والمتوسطية ، والأوربيـــة التوحيدية " ٩٠

سابعاً : ١١ سبتمبر ..قبل وبعد :

وربما أظهرت أحداث سبتمبر عام ٢٠٠١م كيف أن الولايات المتحدة وحلفها الغربي استغل هذه الأحداث واستثمرها جيداً للتعجيل بالمشروع العولمي والدفع بكثير من مخططاته لحيز التنفيذ خاصة مخططه لضرب الإسلام .

ويعلم الغرب أن لا صلة للإسلام كدين وحضارة بالإرهاب والعنف بصفة عامة ، فالعداوة والكراهية للإسلام نابعة من كونه دين وحضارة ترفض الاستئثار ولا تجيز احتكار الخيرات والمنافع ، ولكن كان على الغرب أن يزيف الحقائق ويشحن شعوبه ضد الإسلام والمسلمين مثلما حدث أيضاً قبل إعلان الحروب الصليبية في العصر الوسيط ومثلما حدث أيضاً قبل الهجمة الاستعمارية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

في كتابه " انفجار سبتمبر بين العولمة والأمركة " *١٠ ، يقول إبراهيم نافع : من أهم تداعيات أحداث هجوم الطائرات على برجي مركز التجارة في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ما نادي به كثير من مفكري الغرب من ضرورة " عولمة العولمة "، فعقب هذه الأحداث طالبت الولايات المتحدة العالم كله بالوقوف معها في معركتها السياسية والاقتصادية والعسكرية ضد الإرهاب وما أسمته الدول المارقة " ومن جانب آخر ، فإن الهبوط الذي اعترى الاقتصاد الأمريكي من جراء هذه الأحداث قد ارتد إلى نحر دول العالم كله بحكم ما للولايات المتحدة من روافع وآليات تجعلها تتحكم في اقتصاديات الآخرين .

فإذا كان العالم سيدفع فاتورة ما جرى لأمريكا بحكم قوانين العولمة، فإن من حق دوله أن تطالب أيضاً بأن تكون العولمة طريقاً يسير في اتجاهين وليس اتجاه واحد وأن يعم نفعها الجميع بأقصى درجة ممكنة من المساواة والعدالة ، وألا تكون لصالح القطب الأوحد في المحل الأول.

ويرى بعض المفكرين أن الولايات المتحدة اغتنمت فرصة ما جرى لتحقيق مزيد من المكاسب بتوظيف العولمة لصالحها بدرجة أشد كثافة من قبل ، ويستدلون على هذا بمخططاتها للسيطرة على وسط آسيا وفي القلب من أفغانستان بموقعها الحاكم — بما يزخر به الوسط الآسيوي من ثروة نفطية ، بل ويقولون إن مخططات السيطرة هذه كانت معدة وستنفذ سواء وقعت أحداث سبتمبر أم لم تقع .

وكما كان متوقعاً ، فإن الولايات المتحدة باتت أكثر تشدداً وخاصة عقب عملياتها في أفغانستان والعراق — في مطالباتها واشتراطاتها الاقتصادية ، سواء من الهيئات والمنظمات الدولية ، أو من شركائها التجاريين ، بما يتيح لصادراتها من السلع والخدمات ورؤوس الأموال والتكنولوجيا فرصاً أكبر للربح ، ويرى البعض أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين ما جرى في الولايات المتحدة في ١١ سبتمبر وبين العولمة كأسلوب للعلاقات الاقتصادية الدولية ، وآلية إدارة شئون الاقتصاد العالمي ، ويؤكدون أن عولمة ما قبل ١١ سبتمبر تختلف عن عوالم ما بعده وذلك من عدة نواح:

- إن عولمة ما قبل ١١ سبتمبر كانت تجعل الأسبقية والأولوية للمسائل الاقتصادية في حين أن عولمة ما بعدها قلبت الأمور ، ضف إلى ذلك أنها أعادت الحكومات إلى موقع الصدارة وعاد المفكرون حتى

في أغنى الدول الرأسمالية يتحدثون عن الــدور الرئيــسي للدولــة في الاقتصاد وعدم ترك الحبل على الغارب للسوق وقواها وآلياتها .

– إن العولمة كانت في رأي البعض صنواً للاستعمار ، وأن أحداث ١١ سبتمبر أكدت ضرورة ترابط العالم وتحتم تحويلها من مجرد طريــق سريع للسيطرة على الأسواق إلى طريق سريع لتبادل المنــافع وتقاســم الثمار .

– إن أحداث ١١ سبتمبر جلبت أسوأ ثمار العولمة متمثلة في نقــل الكساد والتباطؤ الاقتصادي الذي ترتب علي البلدان النامية وزاد مــن وطأة الفقر فيها ، ويطرح هذا ضرورة وضع آليات للعولمة تكفل حماية المعرضين للمعاناة وعدم تحميلهم متاعب الآخرين الأغنياء .

– تصاعدت بعض الأصوات في الولايات المتحدة للمطالبــة بــأن تكون العولمة أولاً وأخيراً لصالح الأقوى وثم استغلال فرصة الأعمــال العسكرية في أفغانستان لفرض الهيمنة على هــذه المنطقــة الحــساسة استراتيجياً وبترولياً ما يجعل منها منطقة " خليج ثانية "

والحقيقة أن هذه التصورات والتوقعات التي سجلها إبراهيم نــافع كانت أصلاً موضوع نقاشات لدراسات وكتب كثيرة أفردت علــى ضوء معطيات عالم ما بعد ١١ سبتمبر مثلما فعل المفكر " إيمانويل تيد " في كتابه "ما بعد الإمبراطورية .. بحث في تحليل النظام الأمريكي " ، وهو مبحث هام نشره عام ٢٠٠١م وفيه يقول إيمانويل تيد :

إن الكوكب يتجه نحو الاستقرار وســط آلام التحــول التعليمــي والديموجرافي ، والعالم الثالث يسير نحو التنميــة ونحــو المزيــد مــن الديمقراطية عبر نوبات الحمى الأيدلوجية والدينية وما من تهديد عــالمي

يستلزم نشاطاً خاصاً من الولايات المتحدة لحماية الحريات. وثمة تهديد واحد للاستقرار يرزح اليوم على الكوكب ، هو أمريكا ذاتها التي تحولت من حامية إلى طائر كاسر ، ففي ذات الوقت الذى كفت فيه فائدتها السياسية والعسكرية عن أن تكون واضحة ، أخذت تبين أنها لا تستطيع الاستغناء عن الخيرات التي ينتجها الكوكب ، لكن العالم واسع وكثير السكان ومتنوع ويتعرض لقوى غير محكومة ، وما من إستراتيجية أياً كان ذكاؤها يمكن أن تتيح لأمريكا تحويل وضعها شبه الإمبراطوري إلى إمبراطورية بحكم الواقع أو القانون ،فهي أضعف من ذلك اقتصاديا وعسكرياً وأيدلوجياً وهذا هو السبب في أن أي حركة ترمى إلى إعادة تأكيد قبضتها على العالم تؤكد ردود فعل سلبية ، تزيد من ضعف وضعها الاستراتيجي .

ويتساءل إيمانويل تيد :

ماذا حدث خلال العقدين الأخيرين ؟ .. لقد كانت هناك إمبراطوريتان بالفعل انهارت إحداهما الإمبراطورية السوفيتية ودخلت الثانية الأمريكية في عملية تحلل ، غير أن السقوط الفجائي للشيوعية خلق وهم تصاعد القوة المطلقة للولايات المتحدة ، واعتقدت أمريكا أن بوسعها مد هيمنتها على الكوكب بأسره في حين كانت سيطرتها على مجالها الخاص نفسه في طريقها إلى الضعف . ويذهب " تيد " إلى أن بلوغ الهيمنة الكوكبية المستقرة تستلزم شرطين ضروريين في مجال علاقات القوات الحقيقية :

أولاً : الاحتفاظ بقبضة كاملة على أروبا واليابان اللتان تمثلان الآن القوة الاقتصادية الحقيقية المحددة أكثر بالإنتاج لا الاستهلاك .

ثانياً : القضاء النهائي على القوة الإستراتيجية الروسـية والتحلـل الكامل لتوازن الرعب النووي .

ولم يتحقق هذا الهدف أو ذاك ، ومن ثم فقد كان على أمريكا التي لم تعد قادرة على السيطرة على قوى عصرها الحقيقية ، اليابان وأوربا في المجال الصناعي وكسر روسيا في المجال العسكري النـووي وحـتى تظهر بمظهر الإمبراطورية كان عليهـا أن تختـار تـصرفاً عـسكرياً ودبلوماسياً يمارس في عالم غير الأقوياء " محور الشر " والعالم العربي- ، وهما مجالان يتقاطعان في العراق ، وقد أصبح العمـل العـسكري – بمستوى جدته ومخاطره – في منتصف الطريق بين الحـرب الحقيقيـة وألعاب الفيديو ، فيفرض الحصار على بلد غير قادرة على الدفاع عـن نفسه ، وتقصف جيوش قليلة الشأن ويزعم تصميم وإنتـاج أسـلحة متزايدة التقدم لها بالتحديد دقة ألعاب الفيديو ، أما في الممارسة ، فتشن غارات كثيفة أشبه بالحرب العالمية الثانية على سكان مدينتين عـزل ، ويكاد في وسط هذا كله . أن يكون مستوى الخطـر عـديم الـشأن بالنسبة لجيش الولايات المتحدة ، لكنه ليس صفراً بالنـسبة للـسكان المدنيين الأمريكيين ، لأن السيطرة غير المتسقة ، تولد ردود فعل إرهابية قادمة من المناطق الخاضعة ، كان أنجحها هو ١١ سبتمبر ٢٠٠١م[١١].

ثامناً : توجهات عنف مبكرة لضرب الإسلام وفرض العولمة :

على كثرة ما أسفر عنه انفجار ١١ سبتمبر ٢٠٠١ من تصريحات وتفسيرات وما تناولته من كتب ودراسات يبقى تفسيره كحادث انتقامي وضربة إفاقة وتحذير صامداً إلى حد بعيد ، فعلى مدى رحلة التاريخ قديماً وحديثاً تعرضت منطقة الشرق الأوسط لهجمات شرسة وشن حروب كثيرة للسيطرة وتحويلها إلى مناطق نفوذ من جانب الغرب ، ويأتي حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ محملاً برصيد هائل من غضب تاريخي وتراكمات من المعاناة والآلام خلفتها مغامرات الغرب العسكرية وحقبه الاستعمارية ثم أخيراً مشروعه العولمي المعاصر ، وتتبنى الولايات المتحدة تفعيل هذا المشروع على كل مستوياته ، وعلى المستوى الحضاري والثقافي استعدت الولايات المتحدة والغرب معها – الإسلام ديناً وحضارة وتعاملت مع مصالح العرب والمسلمين بالمكاييل المزدوجة وتخاذلت والغرب معها عن الإسراع لإنقاذ المسلمين وغض الطرف عن حروب الإبادة العرقية التي مورست ضدهم والتي أعادت للأذهان عصور البربرية الأولى ، كما ذهب الغرب إلى حدود قصوى في تأييد ودعم إسرائيل على حساب حقوق العرب ومستقبلهم ومقدساتهم ، ويمعن الغرب بزعامة الولايات المتحدة في استخفافه بشعوب المنطقة ومصائرها ويتدخل بأشكال سافرة لفرض إرادته ومخططاته عن طريق التقسيم الإثني وإثارة الصراعات العرقية والمذهبية .

ثم بعد هذه الجرائم والآلام يأتي الغرب ليسأل سؤالاً غبياً وهو لماذا يكرهوننا ؟!!

في تحليل عميق لبعض أبعاد حادث ١١ سبتمبر ، أيديولوجياً واقتصادياً وسياسياً ، يكتب د. محمد دويدار الأستاذ بجامعة الإسكندرية ، والمفكر الاقتصادي والمحاضر الدولي يقول :

الحدث هو ما شهدته نيويورك وواشنطون وكل الولايات المتحدة الأمريكية وشاهده معها العالم في ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، والضربة هي ما تقدره المؤسسة السياسية الأمريكية الحاكمة لمواجهة الحدث أما الرشادة فتتبدى في مدى عقلانية اختيار الضربة وعقلانية البصر بتداعياتها ، وما إذا كانت العقلانية تستند مطلقاً إلى العلم المجرد أم إلى العلم مرتبطاً بوظيفة اجتماعية أم إلى العلم ملتصقاً بطموحاته الإنسانية. هل الحدث واقعة أم أنه يرمز إلى الواقعة إذا ما أخذ في المجرى التاريخي للمرحلة الحالية لتطور الرأسمالية ؟وهل الضربة سبيل تحقيق مصالح رأس المال الدولي ممثلاً برأس المال الأمريكي، أم أنها مناسبة تفجير رأس المال الأمريكي لتناقضات مجمل التنظيم الرأسمالي الدولي في مرحلة التمركز العالمي لرأس المال المبرز للحدود التاريخية لهذا النظام ؟ في ضوء هذا وذاك ، وما الذي يكشف عنه الحدث والضربة في شأن " رشادة " رأس المال الدولي بصفة عامة ورأس المال الأمريكي بصفة خاصة ؟ ألا يزال يتمتع سياسياً بعقلانية تتناسب مع ما أطلقه التنظيم الاجتماعي الرأسمالي من إنجازات علمية تكنولوجية ؟ أم أن حدة تناقضاته ، خاصة مع المليارات من أبناء البشرية المنتمين إلى " عالم العمل " تدفع به إلى تكريس الإنجازات التكنولوجية لتعظيم " البؤس النسبي " للبشرية ؟ بعبارة أخرى ، ما الذي يكشف عنه الحدث والضربة فيما تبقى من "شاردة " تاريخية لرأس المال ، كظاهرة اجتماعية ، بقيادة رأس المال الأمريكي ؟ [١٢]

ولعل حادث سبتمبر وما دار حوله من تحليلات ، قد أضاء شيئاً من الحقائق وكشف عن بعض ما زيفوه من التاريخ لشعوبهم ، خاصة فيما يتعلق بالمسلمين ، ولقد دفع حجم الحادث وما طرحه من دلالات الكثير من الغربيين إلى محاولة فهم الإسلام والتعرف إليه بصورة مباشرة، مما أدى إلى تعديل كثير من الرؤى والمفاهيم ، ولا يزال هذا الأمر يحتاج إلى جهد المسلمين أنفسهم والتحرك بفاعلية ونشاط داخل مؤسسات العالم الغربي ووسائله الإعلامية لإزاحة هذا العبء الثقيل من سوء الفهم عن الإسلام والمسلمين ، وتصدير تلك الصورة القبيحة عن أكثر الأديان تسامحاً وأوسعها انتشارا ، وإذا كنا نعترف بأن أوضاع العرب والمسلمين الداخلية شديدة التمزق والسلبية قد ساهمت بطريقة أو بأخرى في تدعيم هذه الصورة القبيحة وتأكيدها ، فإن الغرب بزعامة الولايات المتحدة يتحمل جزءاً من هذه المسئولية حين يؤازر ويدعم كثيراً من حكومات هذه الدول المرفوضة من شعوبها والتي مارست القمع طويلاً ومازالت تمارسه على تلك الشعوب مما حدا بالكثير من شباب هذه المجتمعات إلى الإحباط والاحتقان والتطرف .

والجدير بالذكر أن ممارسات الولايات المتحدة ومعها حلفائها الغربيين ضد العرب والمسلمين ، تلك الممارسات التي اتسمت بالاستفزازية وازدواجية المكاييل قد تصاعدت بصورة كبيرة

قبل حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ ، فمنذ نهايات القرن العشرين ومع مطالع القرن الجديد نطالع مثلاً:

ذلك المشهد الممعن في السخرية والاستخفاف بالإسلام والمسلمين الذي يرسل فيه الرئيس الأمريكي عبر وكالات الأنباء رسالة تهنئة للمسلمين بموسم الحج وعيد الأضحى في الوقت الذي كانت فيه

طائرات إسرائيل إل إف ١٦ الأمريكية الصنع تدك الجنوب اللبناني ، ولا تتورع إسرائيل عن ضرب المسلمين في الجنوب والانقضاض عليهم بطائراتها حتى في عيد مقدس من أعيادهم فقد تم منحها صكوكاً من الشرعية – وهي أصلاً لا تضع أية أهمية لشريعة – ومع ذلك تم المنح من قبل بعض المتحدثين باسم البيت الأبيض.

وأما رئيس وزراء فرنسا " جوسبان" الذى اتهم المقاومة اللبنانية بالإرهاب في نفس الوقت الذى امتنع فيه عن زيادة شيلي لأن النظام الحاكم استقبل " بونيشيه " استقبالاً حافلاً ؟؟ هذه لقطة ، ولقطة ثانية في نفس التوقيت لجزار روسيا ومزيل جروزني من الوجود السفاح " بوتين" وهو يصافح بعض علماء الروس المسلمين ويهنئهم بعيد الأضحى في ساحة خصصت لصلاة المسلمين أمام الكرملين حرصت الوكالات الإعلامية الغربية على توزيعها على صحف العالم ومنها الأهرام صبيحة يوم الجمعة ثاني أيام عيد الأضحى يوم ١٧مارس٢٠٠٠م ، وبالمناسبة قد نشرت الصحف أيضاً في نفس هذا اليوم وثيقة بعنوان" ذكرى ومصالحة "، أعلن فيها الفاتيكان اعتذاره عن الأخطاء التي ارتكبت في الماضي والحاضر ، واقترفها البعض تحت راية الصليب، ومن أهمها الحروب الصليبية ومحاكم التفتيش ، وصدرت هذه الوثيقة في مناسبة سنة اليوبيل العظيم والأسبوع الأول من الصوم للكاثوليك ، وكان الرئيس الأمريكي وقتئذ في زيارة رسمية لباكستان ، يحاول فيها أن يقنع النظام العسكري الجديد هناك بالتحلي ولأقصى درجة بضبط النفس ، إزاء الممارسات الاستفزازية وسياسات القمع

الهندوسي للمسلمين في كشمير، وقد سبق هذه الأحداث بقليل وقائع زيارة البابا يوحنا بابا الفاتيكان للقاهرة وإلقاءه لموعظة في دير سانت كاترين ، تدعو إلى الحب والتسامح . والزيارة كانت من وجهة نظر الكثيرين زيارة " سياسية " في المقام الأول ، من نوع تلك المشاهد التلفزيونية السائرة على درب العولمة .. على أية حال ما مضمون تلك المشاهد الحية ؟ إن مضمونها يؤكد بما لا يدع أي مجال للشك أن الغرب كان وما زال وسيظل مؤمناً ومنتهجاً لأسلوب النفاق والازدواجية وهو أسلوب يجيده الغرب ويعشقه — أسلوب ، يعتمد على الضرب والمصافحة ، دبلوماسية السياسة المعسولة ومنطق الحرب ، شعارات الاستهلاك وأسلوب القوة والقهر .

فهل هذا هو المقصود " بالعولمة "؟أم أن "حالة" العولمة التجارية الاستهلاكية شيء وأساليب القمع شيء أخر ؟.. إذن ما بال شعارات التسامح والإنسانية والسلام العالمي الشامل المواكبة للعولمة ؟ على أية حال هذه جوانب نرفضها من العولمة علاوة على الجوانب التي أشرنا إليها في أبعادها الاقتصادية والثقافية والأيديولوجية ..إن كان لها أيدلوجية !؟ ...ثم أن هناك اعتبارا أهم من كل تلك هذه الاعتبارات وهو أن المسلم ليس مستعداً للتضحية بآخرته في سبيل تبني عولمة دنيوية بحتة مهما أوتيت هذه العولمة من مفاتن الدنيا ومباهجها لسبب جد بسيط — وهو أن المسلم يعتقد اعتقاداً جازماً في قوله تعالى " وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وأن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون " . (العنكبوت ٦٤)

الهوامش :

١- أنظر : " أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة " تأليف أنطـــونى كـــريس وكينث مينوج ترجمة د. نصار عبدالله . هـــ . م . ع للكتاب- القاهرة ١٩٩٦

٢- " الاسلام والعولمة "-ص١٦٩ - مصدر سابق

٣- المصدر السابق- ص ٨٣ وص ١٠٦

٤- "آفاق العصر" د. جابر عصفور ص ٢٦- الهيئة المصرية العامة للكتـــاب القاهرة ١٩٩٧-.

٥- أنظر : مجلة سطور العدد (٧٩)- القاهرة-يوليو٢٠٠٣م .

٦- أنظر : تصادم الحضارات أم حوار الحضارات - مقال - د. عبد العزيز محمود -مجلة الهلال - القاهرة أغسطس ١٩٩٣م .

٧- مجلة سطور صــ ٦٣،٦٢- العدد (٨٦)- القاهرة يناير ٢٠٠٤.

٨- " بيان في النهضة والتنوير العربي " د. طبيب تيزيني صــ٧١ ، مجلـــة " عالم الفكر " - العدد (٣) المجلد ٢٩ - الكويت مارس ٢٠٠١م

٩- المصدر السابق-ص ٧٢ .

١٠- أنظر : " انفجار سبتمبر " إبراهيم نافع صــ٥-٧ مكتبة الأسرة - هـــ .م . ع للكتاب - القاهرة سنة ٢٠٠٢ .

١١- نقلاً عن مجلة سطور العدد (٨٤) صــ٦٦ القاهرة ديـــسمبر ٢٠٠٣م من كتاب إيمانويل تيد ، " ما بعد الإمبراطورية " ، ت : د. محمد مستجير .

١٢- مجلة سطور صــ ٤٤ -* العدد (٦١)- القاهرة ديسمبر ٢٠٠١ .

الفصل الثاني

تاريخ من العلاقات الشائكة
والأسئلة الملتبسة

١- صناعة الكراهية :

بالرغم من تناول كتابات غربية كثيرة الإسلام والمسلمين من جميع الجوانب والتخصصات سواء في إطار دراسات استشراقية منهجية ومنصفة ، أو في بعض دوائر المثقفين الغربيين أو حتى بعض المفكرين وقليل من الساسة المنصفين ، إلا أن منطق اليمين المتطرف الحاكم في الولايات المتحدة الأمريكية وفي كثير من عواصم أوربا الغربية ومعه بعض الدوائر الصهيونية والمسيحية إلى جانب الإعلام النفعي ومصالح الرأسمالي العولمي ، مازال كل ذلك يسيطر على العقلية الغربية ، وبالتالي ما زالوا يرددون تلك المقولات والمغالطات والتشويهات التي واكبت عصور الاستعمار ومناطق النفوذ ، مضافاً إليها موضة الربع الأخير من القرن العشرين ونقصد بها " الإرهاب " ، مدعمة بتهمة " الأصولية والتطرف " ، مع بداية الألفية الثالثة وعصر العولمة

وتعتمد تلك الجهات غير المنصفة التي أشرنا إليها على كافة الأساليب المتاحة في ترسيخ الصورة الشوهاء عن الإسلام والمسلمين — بدأً بالدراسات الاستشراقية السلبية غير المنصفة، وليس انتهاءً بالإعلانات واستخدام السلع التجارية والاستهلاكية وأفلام السينما الهوليودية والترويج الإعلامي لأشباه الأدباء وأنصاف المثقفين المحسوبين على الإسلام كسلمان رشدي وأمثاله من الذين يعانون " عقدة الغرب"، مع تضخيم أراء وكتابات العلمانيين واللادينيين في بلاد الإسلام .وهم يصدرون ذلك كله مغلفاً بشعارات حرية الفكر والرأي وطرح قضايا الحداثة والتنوير .

إنها في الحقيقة صناعة الكراهية التي أشرنا إليها ، والتحالف التكتيكي بين الصهيونية والغرب اليميني ، والإصرار على إيجاد عدو

حتى وإن كان غير حقيقي ، لتبرير سياسات الهيمنة والقطب الأوحد .. فبعد سقوط الشيوعية واستخدام المسلمين أنفسهم للإطاحة بها (على نحو ما حدث في التجربة الأفغانية) — لم يجد الغرب عدوا يمارس من خلاله عقيدته المادية النفعية إلا الإسلام ونؤكد مرة أخرى إن الساحة الدولية كانت مهيأة بالفعل بعد السقوط الشيوعي لعقد مصالحة كبرى بين المذاهب والأديان .

وكان عام ٢٠٠٦ شاهداً على أمثال تلك المغالطات والمقولات المضللة ومنها :

- كلام الرئيس الأمريكي بوش عن الإسلام الفاشستي .
- وأزمة الرسوم الدانيماركية .
- التدخل العسكري الأثيوبي في الصومال بمباركة وتأييد أمريكي واسع لإزاحة المحاكم الإسلامية .
- ومحاضرة بابا الفاتيكان بندكت السادس عشر التي أساء فيها للإسلام ولنبي المسلمين .

وهذه المحاضرة ألقاها البابا (جوزيف راتزنجر) الملقب بندكت السادس عشر أمام جمع أكاديمي في جامعة (ريجينسبرج) الألمانية في الثاني عشر من سبتمبر عام ٢٠٠٦ م ، واقتبس فيها أقوالاً من العصور الوسطى تضمنت تلك الإساءات ، ما حدا بتفجير أزمة أشبه بأزمة صحيفة " أولاند يوسان" صاحبة الرسوم المسيئة .

وقد أثارت مثل هذه الإساءات الاستفزازات مشاعر المسلمين ، كما انتقدها الكثير من المعتدلين في الغرب والشرق على السواء ،

وذهب بعض الكتاب والمثقفين المسلمين إلى أن تصريحات البابا وجهت طعنة نجلاء لجهود الحوار والتفاهم ، كما أثارت تساؤلات العديد منهم حول مغزى التصريحات وتوقيتها وهل تدشن هذه التصريحات لحرب صليبية جديدة ؟

أم أن أقوال البابا إنما هي غطاء ديني لحرب أمريكا في كل من أفغانستان والعراق ؟

ووصف البعض منهم البابا بندكت السادس عشر " بالأصولي الصارم " و أنه بتصريحاته هذه يعقد "صفقة مع الشيطان الأمريكي" [١]

وقالت صحيفة (الهيرالدتريبيون) :

" يجب على أوربا أن تتعلم كيف تسوي خلافاتها مع تنوع ما ضيها من أجل الوصول إلى الضرورة التعددية لمستقبلها ، واستخفاف البابا لم يفعل شيئاً لمساندة ذلك الإجراء ، والوضع الحرج الحالي علينا أن لا نتوقع خلاله أن يقدم اعتذاراً ، لكن علينا ببساطة وتعقل أن نكشف له أنه قد أخطأ من الناحية التاريخية والعلمية والدينية "[٢]

٢- منابع الكراهية :

إن أمثال هذه الاستفزازات والمقولات تحمل كثيراً من العداء ، والعداء يولد التحامل وهذا التحامل يولد الجهل والتعصب .

يقول " مريدت جونز":-

" استند المفهوم الغربي لمحمد وتعاليمه على المصادر الأدبية لا على الملاحظة المباشرة الفعلية للمسلمين ..وقد استمد الكتاب معلوماتهم من

مصادر ثانوية مغمورة ، فكانت النتيجة مزيجاً من قـدر ضـئيل مـن الحقيقة -- وقدر كبير من الخيالات ذات الصبغة المتحاملة جداً "وقـد جاء بهذه المصادر في أغلبها المسيحيون الشرقيون الذين كانوا يهربـون من أمام الجيوش الإسلامية المتقدمة في كثير من الجبـهات ، والـذين كانت تمنعهم معتقداتهم الدينية من تصور صورة صحيحة عن الإسلام، ناهيك عن نقل تلك الصور لمسيحي الغرب ، ثم أنه لم يطـل الأمـر بالإسلام حتى بدأ يدق أبواب أوربا نفسها ، ويؤسس مـواطئ قـدم هناك، كان من المحتمل أن يستعملها من أجل فتوحات أخرى ، وعندما تفتتت قوة المسلمين في أسبانيا ظهر خطر أعظم هو الخطـر العثمـاني الذي بدأ يهدد الغرب من جهته الشرقية وفي تلك الأثناء كانت الحملة الصليبية الغربية لاستعادة بعض المناطق التي خسرتها المسيحية للإسلام قد فشلت في بدايتها — في أن تحقق الكثير سواء من الناحية العـسكرية أو التبشيرية . واضح إذن ، أن تاريخ الصلات بين الـشرق المـسلم والغرب المسيحي تاريخ ملأته العداوة والشك ، لذا فإنـه مـن غـير المستغرب أن تكون الصورة التي كونها الغرب عن الإسلام والمـسلمين صورة مشوهة لم تتضح معالم سلبيتها إلا ببطء شديد خلال القـرنين الآخرين ، مع تقدم الروح العلمية الحديثة وضعف التطرف الـديني في الغرب وأصول هذه الصورة تعود إلى العصور الوسطى حينمـا كـان الإسلام هدفاً للكثير من الكتابات الجدلية "٣٠ ، وفي إطار التشويه الذي ينتاب صورة المسلمين لدى الغربيين — فقد جاء في محاضرة لمـوريس بوكاي — ألقاها حول ترويج الأفكار الكاذبة انطلاقاً من موروثـات استعمارية وأخطاء أيضاً في ترجمات القرآن — أثناء الندوة الدراسية عن الإسلام التي التأمت باليونسكو بمبادرة من منظمة المؤتمر الإسـلامي في شهر ديسمبر ١٩٨٠ "......قال :إنه لمن الصعب للغاية بالنسبة لغربي

لا يحسن اللغة العربية ويعيش في بيئة تظهر في معظم الأحيان عـــداوتها للإسلام ، أن تكون له فكرة دقيقة عن ماهية الإسلام ، إذ أن ما يتعلمه هذا الشخص وما يسمعه من الأشخاص الموثوق فيهم عن الإسلام، وما يقرؤه عن المؤلفات المتعددة يسهم في تشويه صورة هذا الدين ، لأنه ما عدا بعض الاستثناءات فإن الكثير من المستشرقين الملمين بدين محمد لا يفهمون الإسلام إلا كما يشتهونه أن يكون بدلاً مما هو عليه في الواقع " ويستدل المؤلف على ذلك فيقول: " لما شـــرعت للمـــرة الأولى في دراسة القرآن راغباً التعمق في حقيقة الإسلام ، كان لا بد أن أســـتعين بتراجم المستشرقين ، إلا أن ذلك كان للأسف لا يفيد بشيء إذ عثرت في عدة ترجمات لنفس الآية القرآنية على فـــروق تـــدل بوضـــوح أن الاختلاف في المعنى يرجع سببه إلى المترجمين والى تأويلاتهم الخاصـــة . وبعدد ما تعلمت العربية على المستوى الذي يسمح لي بتلاوة القـــرآن وفهمه ، أيقنت أن بعض النيات كانت تريده غامضاً عن قصد ، إمـــا لتشويه معناه أو لتطويعه لوجهات نظرهم المنحازة " .

وفي هذا الصدد أكد " روبرت سوان" وكان وقتذاك الأمين العـــام للرابطة البرلمانية من أجل التعاون الأوربي – في محاضـــرة لـــه حـــول الإسلام كما يراه الغرب "، ألقاها بنفس المناسبة " إن الموقف الـــراهن الذي يتخذه الغرب إزاء العالم الإسلامي يرجع أكثر مما نتصور – إلى أهواءٍ وأجيالٍ سبقتنا وإلى أحكامها المسبقة "٤٠

وتكتب " كارين آرمسترونج " الأستاذة الانجليزية للأديان المقارنة :

" كان القرن الحادي عشر يطوي صفحته ، عندما شرعت أوربا في النهوض من جديد بزعامة البابا والاستيلاء على بعض أرض المسلمين .

ففي عام ١٠٩١م ، كان النورمانديون قد بدأو الهجوم على المسلمين في جنوب ايطاليا ، وتمكنوا من فتح المنطقة .عام ١٠٩١ ، كما شرع المسيحيون في شمالي إسبانيا في شن حروبهم ضد مسلمي الأندلس ، ففتحوا طليطلة عام ١٠٨٥ وفي عام ١٠٩٥ قام البابا أوربان الثاني باستدعاء فرسان أوربا لتحرير قبر المسيح في أورشليم في حملة كتب لها أن تعرف باسم الحملة الصليبية الأولى ، وبعد سنوات من الشدائد والأهوال تمكن الصليبيون في عام ١٠٩٩م من فتح أورشليم وإنشاء أول مستعمرات غربية في الشرق الأدنى ، وقد اتخذ هذا النجاح الغربي الجديد صورة الحرب التي لا هوادة فيها ضد الإسلام ولأن لم يكن أحد في أوربا في البداية ، يكن كراهية خاصة للدين الإسلامي أو لبني المسلمين ، إذ كان ما يشغل الناس هو تحقيق أحلامهم الخاصة بالمجد وتوسيع رقعة أوربا البابوية ، وتفصح ملحمة أنشودة " رولان" التي ألفت في زمن الحملة الصليبية الأولى عن جهلٍ فاضحٍ بالطبيعة الأساسية للعقيدة الإسلامية ، إذ تصور المسلمين من أعداء شارلمان ورولان في صور عابدي الأصنام ، وهم يركعون أمام ثلاثة آلهة هي " أبولو " و" تيرفاجان" و "محمد" .

لقد أحس الفرنجة بالوشائج التي تربطهم بجنود المسلمين في موقعة "روريليوم "إلا أنهم لم يستطيعوا اعتبار المسلمين بشراً مثلهم ، إذ قاموا بارتكاب مذبحة بين سكان المدينة عامدين ، وهي المذبحة التي صدمت مشاعر الجميع حتى من معاصريهم ، وأصبحوا بعد ذلك يعتبرون المسلمين وباء لا بد من تطهير الأماكن المقدسة منه ، وكانت الصفة الرسمية التي أطلقت في الحملات الصليبية هي " القذارة ".

كان اهتمام أوربا بالنبي محمد يكاد يكون معدوماً قبـــل ١١٠٠م ، ولكن الجميع أصبحوا يعرفونه في عام ١١٢٠ ، ففي نفس الوقت الذي كانت فيه أساطير شارلمان والملك أرثر وروبن هود قد بدأت تشيع في الغرب ، أصبحت أسطورة " ماهوند " عدو الممالـــك المـــسيحية – ، راسخة في مخيلة أبناء الغرب .

وأعلن البابا كلمنت الخامس (١٣٠٥-١٣١٤)م، أن وجود مسلم على الأرض المسيحية يعتبر إهانة لله ، وكان المسيحيون قد شرعوا قبل ذلك في التصدي لتلك الظاهرة التي اعتبروها مخزية، فقام ملك فرنـــسا (شار آنشو) عام ١٣٠١ بإبادة من بقى من المسلمين الصقليين ومـــن أبناء جنوب إيطاليا في محمية " لوسيرا" وكان قد وصفها بأنهـــا وكـــر الوباء و لم تمض سنوات معدودة حتى كان مسلمو إســـبانيا يواجهـــون الاختيار بين الترحيل أو التحول إلى اعتناق المسيحية ، و لم تلبث محاكم التفتيش أن قامت باضطهادهم هم وذرياتهم على مـــدى ٣٠٠ســـنة أخرى .

لقد كان الفيلسوفان " ابن سينا " و " بن رشد" يحظيان بالتبجيل ، باعتبارهما من نجوم الفكر الساطعة ، ولو أن الجمهور كـــان يواجـــه صعوبة متزايدة في تقبل كونهما من المسلمين ، وقد وجدت المـــشكلة أبلغ تعبير عنها في ملحمة " الكوميديا الآلهة " لدانتي ، التي تصورهما في البرزخ مع فضلاء الوثنيين الذي أرسوا أسس الثقافة الفكرية وأعـــانوا الغرب على اكتسابها مثل (إقليدس وبطليموس وسقراط وأرســـطو) ، ولكن دانتي يصور محمدا في الفلك الثامن للجحيم ، مع أرباب الفتنـــة التي أحدثت الانشقاق الديني في أوربا ويصوره في عذاب مهـــين ، أي

أن دانتي لم يكن يستطيع أن يسمح حتى ذلك الوقت بأن تكون للنبي محمد رؤيته الدينية المستقلة فهو يصفه بأنه منشق ، خرج عن العقيدة الأصلية ، والصور البذيئة التي يرسمها دانتي تفصح عن مدى الاشمئزاز الذي كان الإسلام يبعث عليه صدور المسيحيين ، ولكنها تبين أيضاً مدى الانفصام في النفس الغربية ، إذ ترى في الإسلام صورة لكل ما لا يستطيع هضمه في ذاتها ، وكان المزيج من الخوف والكراهية الذي يعتبر مناقضاً بل وإنكاراً تاماً لرسالة المحبة التي أتى بها المسيح ،يمثل كذلك جرحاً عميقاً في وحدة المسيحية الغربية وسلامتها ، وفي عام ١٧٤١م كتب فولتير مسرحية عنوانها " محمد أو التعصب " ، وفيها يستعين بالكراهية الشائعة لمحمد في جعله نموذجاً لجميع الدجالين الذي أحالوا شعوبهم إلى عبيد للدين متوسلين بالتحايل والأكاذيب ، وعندما وجد أن بعض الأساطير القديمة لم تكن فاحشة إلى الحد الذي يرضيه ، عمد إلى ابتداع أساطير جديدة أفعمت قلبه " •ه

ويتعمق د.جوستاف لوبون المؤرخ الشهير في تأصيل منابع الكراهية الغربية للإسلام -عندما يتوقف عند مظهر من مظاهر الصراع بينهما في حديثه عن الحروب الصليبية (منشأ وأهدافاً ونتائج)، يقول:

" كان سلطان العرب السياسي في أواخر القرن الحادي عشر من الميلاد، أي في الدور الأول من الحروب الصليبية،في طور الانحطاط ، وان لم يذو نفوذ اسمهم في العالم ، فقد كانت إفريقيا وإسبانيا في قبضتهم ، و لم يتقادم بعد الزمن الذي كانوا فيه سادة البحر المتوسط وسادة جزء من فرنسا وملوكا لصقلية ، والذي أوغلوا فيه حتى روما فأكرهوا البابا علي دفع جزية لهم ، و لم يصل قياصرة روما في إبان مجدهم إلي ما وصل إليه اسم محمد من إلقاء الرعب في برابرة أوروبا ،

فهجوم أوروبا النصرانية علي الإسلام من الأعمال التي كانت تتطلب حماسة دينيه بالغة وجيشا مؤلفا من مليون جندي .

وكل يعلم كيف أجاب العالم المسيحي دعوة ذلك المجذوب " البابا أوربان " ، وكيف أنقضت أمم علي الشرق، وكيف أن دفع تلك الجيوش الهائلة لم يؤد إلي غير نصر وهمي ، وكيف ضعفت عزيمة المقاتل المسيحي الذي لم ينقطع سيله مده قرنين من أجل فتح القدس والمحافظة عليها أمام هلال الإسلام .

واصطلح الناس علي تسمية ذلك الصراع بين المسيحية والإسلام بالحروب الصليبية ، وكان لتلك الحروب نتائج مهمة في تاريخ حضارة أوربا العام .

وبداية نقول كلمة عن حال الغرب والشرق في زمن الحروب الصليبية .

كانت أوربا ولا سيما فرنسا في القرن الحادي عشر الذي جردت فيه الحملة الصليبية الأولي في اشد أدوار التاريخ ظلاما، وكان النظام الإقطاعي يأكل فرنسا وكانت مملوءة بالحصون التي كان أصحابها من أنصاف البرابرة – يقتتلون دائما ولا يملكون سوي أناس من العبيد الجهال ، لم يكن في ذلك الحين نفوذ شامل إلا للبابا، وكان الناس يخشون البابا أكثر من احترامهم له .

كانت دولة الروم في الشرق قائمة وكانت القسطنطينية مع انحطاطها عاصمة لدوله كبيرة وميدانا للمنازعات الدينية وكانت تخسر كل يوم جزءا من أملاكها فضلا عن انطفاء سلطانها في إيطاليا ، وكان كل من بابا روما وبطريق بيزنطة قد حرم الأخر فصار للمسيحيين كنيستان.

وكان قسم من سوريا تابعا للترك السلاجقة ، وكان القسم الأخر تابعا لسلاطين مصر و لم يكن الخليفة في بغداد سوي شبح ، وكانت دولة العرب السياسية في دور الانحلال مع محافظة حضارتهم علي سلطانها ، و لم يكن الصراع العظيم الذي كان يتمخض عنه العالم إذن غير نزاع عظيم بين أقوام من الهمج وحضارة تعد من أرقي الحضارات التي عرفها التاريخ.

وكانت الصلات بين أوربا والشرق مقصورة علي زيارة الحجاج المسيحيين لفلسطين وواظبوا علي زيارتها مع زيادة منذ عهد قسطنطين ، ولا سيما منذ أن تحسنت العلاقات بين هارون الرشيد و شارلمان ، وزاد عدد زيارات المسيحيين لفلسطين مع الزمن ، وكانت تتألف من بعض القوافل جيوش حقيقية ، ومن ذلك استصحاب الأب ريتشارد سبعمائة حاج في سنة ١٠٤٥م ، و لم يستطع أن يصل إلي ما أبعد من قبرص ، ومن ذلك أيضا أن رئيس أساقفة مايانس (سيجفروا) وأربعة آخرين قادوا قافلة من سبعة آلاف حاج في سنة ١٠٦٤م وقد اشتملت علي بارونات وفرسان فحاربت هذه القافلة الأعراب والتركمان.

وحدث أن جاء لزيارة بيت المقدس جندي قديم كان قد ترهب بعد أن طرأ علي حياته الروحية ماكدر صفوه وكان اسم هذا المجذوب المتعصب النشيط بطرس وأضاف التاريخ إلي اسمه لقب (الناسك) .

وغاص بطرس الناسك في بحر أحلامه فرأي أنه مرسل لدعوة أوربا إلي استخلاص الأرض المقدسة وملكت هذه الأوهام مشاعره فتوجه إلي روما ليستعين بالبابا ، فأذن له البابا أوربان الثاني في دعوه المسيحيين

إلي إنقاذ الأماكن المقدسة ، فصار يجوب بلاد ايطاليا وفرنسا ويلقي الخطب النارية ممزوجة بالبكاء و العويل وصب اللعنات علي الكافرين ، وبوعد الرب للذين يزحفون لإنقاذ قبر المسيح بالمغفرة ، وتؤثر فصاحته في قلوب الناس ويعدونه نبيا في كل مكان . و لم تكن الجموع التي ألهبها بطرس الناسك لتستطيع عمل شيء وحدها وإنما حدث ما حفز السادة إلي دعم تلك الحركة ، وذلك أن قيصر روما ألكسيس كومنين، الذي كانت دولته تخسر كل يوم قطعة من أملاكها ، استغاث بالبابا وملوك أوربا حينما حاصر الترك القسطنطينية ، فأقام ذلك العالم المسيحي وأقعده بالإضافة إلي مواعظ بطرس الناسك.

ورأي البابا أن يشجع تلك الحركة ، فعقد في ايطاليا مؤتمرا دينيا لم يسفر عن نتيجة، ثم عقد في سنة ١٠٩٥ م مؤتمرا ثانيا في كليرمون بأوفرن ، وحضر بطرس الناسك هذا المؤتمر الأخير ، وتحالف المؤتمرون تلبية لدعوته الصارمة وترديد الجموع الهائجة لكلمة " الرب يريد ذلك!". علي الزحف إلي فلسطين لإنقاذ الرب ملصقين الصلبان علي أكتافهم وأجمع المؤتمرون علي أن يبدأ الزحف في عيد انتقال العذراء من السنة القادمة حتي يجمع أولياء الأمور جيشا كبيرا قادرا علي القيام بذلك.[٦٠]

مظاهر الوحشية والعنف في الحروب الصليبية :

ويتحدث المؤرخ جوستاف لوبون ببعض الاستفاضة عن سلوكيات الصليبيين الوحشية وممارساتهم البربرية أثناء الحروب الصليبية قائلاً :

" نشأ عن عزم القوم علي غزو فلسطين اشتعال النفـوس حميـة، وصار كل واحد يرجو إصلاح حاله فضلاً عمـا ينالـه في ملكـوت السموات، فغدا العبيد يطمعون في فك رقاهم ، وغدا أبناء ألأسر الذين حرموا الميراث بسبب نظام البكرية ، والأمراء الذين قسمتهم ضـيزي يطمعون في الاغتناء ، وغدا الرهبان الذين أضنتهم حياة الأديار وجميع المحرومين طيب العيش ،وكان عددهم كبيراً - يعللون أنفسهم بأطيب الأماني .

حقا لقد أصاب القوم نوبة حادة من الجنون، فرغب الأمراء والعبيد والرهبان والنساء والأولاد وجميع الناس في الزحف ، وأخذ كل امرئ يبيع ما يملك ليتجهز ، واستعد من الرجال ١٣٠،٠٠٠ مقاتـل لغـزو فلسطين حالا.

وكانت تلك الحالة تزيد حده كل يوم ، ولم يرغب الذين بكروا في انتظار تأليف جيش منظم،وما كاد ربيع١٩٠٦م يحل حـتي توجهـت عصابات كبيرة من كل صوب وحدب إلي نهر الدانوب .

وكانت الحركة شامله ما بين بحر الشمال ونهر التيبر ،وكانت تجرف سكان بعض القرى آخذين ما عندهم من الأموال، وكانـت أوربـا تنقض علي آسيا .

وكلما اقتربت تلك العصابات من هدفها المـأمول زادت جنونـا ودارت المعجزات والكرامات في أدمغتها المشتعلة التي طـارت منـها العقول إلي الأبد.

وكان بطرس الناسك والفارس الفقير جوتيـه علـي رأس أهـم العصابات الزاحفة إلي الشرق،وأكرمت هذه العـصابات في البلـدان

الأوربية التي كانت تمر بها في بدء الأمر ، ولكنها لم تكد تصل إلي بلغاريا حتي التقت بأناس ضعاف الإيمان أبوا أن يضيفوهم مجانا، وساء هذا الرفض الصليبيين ،و لم يحجموا عن اغتصاب ما منعوه وعن نهب قري تلك البلاد وذبح أهليها ،و لم يصبر الأهلون علي ذلك فأخذوا ينتقمون ويقتلون فريقا كبيرا منهم أو يغرقونه، وجد الصليبيون في طلب النجاة بسرعة،وبلغوا القسطنطينية ناقصي العدد،ووجدوا فيها عصابات من التوتون والطلاينة والجاكسون والغال والبروفنسيين كانت قد سبقتهم إليها ،وهنالك انضم هؤلاء إلي أولئك وأخذوا يقتلون وينهبون ويأتون كل ما يفوق الوصف من الأعمال الوحشية،ويعزم البيزنطيون علي التخلص منهم ،وينقلونهم بالسفن إلي ما وراء البوسفور.

وبلغ عدد ما سيق من الصليبيين إلي آسيا الصغرى علي ذلك الوجه مائة ألف، واقترف هؤلاء، من الجرائم نحو المسلمين والنصارى مالا يصدر عن غير المجانين من الأعمال الوحشية:

وكان من حقوق الترك أن يقابلوهم بالمثل،ولذا صار الترك يتصيدونهم كما يتصيدون الحيوانات المفترسة مقيمين من عظامهم هرما عظيما.

و لم يلبث جيش الصليبيين الأول المؤلف من مئات الألوف أن أبيد ، و كانت تأتي من خلفه فيالق منظمة تامة العدة مؤلفه من سبعمائة ألف مقاتل بقيادة أقوي الأمراء ،أي كان يأتي من الفيالق ما لم يسبق للعرب أن جمعوا لجبا مثله. ومن هذه الفيالق الفيلق الذي كان يقوده دورق اللورين الدنيا، " جود فري البويوني"،والذي كان مؤلفا من ثمانين ألف مقاتل من سكان اللورين وبافاريا وسكسونيا .

وحاصر الصليبيون مدينة آزنيق الواقعة في آسيا الصغرى ،وهزموا جيشا تركيا،وقطعوا رؤوس جرحي الترك وربطوها بسروج خيولهم وعادوا إلي معسكرهم، ثم رموها إلي تلك المدينة التي كانت محاصرة.

و لم يكن ذلك مما يرضي الأهلين ،فسلم الأهلون،الذين علموا ماذا كان ينتظرهم ، أمر أنفسهم إلي القيصر بالقسطنطينية ،فاضطر حلفاؤه الصليبيون إلي القتال مرتدين .

وبقي علي الصليبين أن يقطعوا نحو مائتي فرسخ ليصلوا إلي سوريا وكان همهم مصروفا إلي الاغتناء ،و لم يحسنوا سياسة الآهلين وخربوا البلاد،وكشر الجوع لهم عن أنيابه،واضطرب حبل نظامهم،وتفرقوا، وتقاتل من قادتهم القائدان المهمان :تانكريد وبودوين ،ثم انفصل بودوين عن رفقائه هو وفيلقه كي يسلب ويحارب لحساب نفسه.

وفتكت الأمراض والمجاعة بالصليبيين فتكا تذريعاً،وقنط بطرس الناسك من النصر وفر من المعسكر،وأعيد إليه،فاستقبله تانكريد بضرب العصي.

ودبت الفوضى في مفاصل الجيش الصليبي ،وشاع التجسس فيه،وأمر بوهيموند بتقطيع الجواسيس وطهيهم وإطعامهم للجنود الجائعين ،فتدابير كهذه تخبرنا عن حال جيش اضطر إلي اتخاذها.

ويدل سلوك الصليبيين في جميع المعارك علي أنهم من أشد الوحوش حماقة،فقد كانوا لا يفرقون بين الحلفاء والأعداء والأهلين العزل والمحاربين والنساء والشيوخ والأطفال ،وقد كانوا يقتلون وينهبون علي غير هدي .

ونري في كل صفحة من الكتب التي ألفها مؤرخـــو النـــصارى في ذلك الزمن —براهين علي توحش الصليبيين، ويكفي لبيـــان ذلـــك أن ننقل الخبر الآتي الذي رواه الشاهد الراهب "روبـــرت" عـــن ســـلوك الصليبيين في مدينه مارات، للدلالة علي سياسة الصليبيين الحربية وذلك بالإضافة إلي ما حدث حين الاستيلاء علي القدس .

قال المؤرخ الراهب التقي روبرت :"وكان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلـــهم مـــن التقتيـــل ، وذلـــك كالوحوش، وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ويقطعونهم إرباً إربًا ، وكانوا لا يستبقون إنسان ويشنقون أناسا كثيرين بحبل واحـــد طلبا للسرعة ، فيا للعجب ويا للغرابة !

وكان قومنا يقبضون علي كل شيء يجدونه فيبقرون بطون المـــوتى ليخرجوا منها قطعا ذهبية فيا للشره وحب الذهب !

وكانت الدماء تسيل كالأنهار في طرق المدينة المغطاة بالجثث ، فيـــا لتلك الشعوب العمياء !

ثم أحضر بوهيموند جميع الذين اعتقلهم في برج القصر وأمر بضرب رقاب العجائز والشيوخ والضعاف وساق الفتيان والكهول إلي إنطاكية لكي يباعوا فيها ، وحدث قتل هؤلاء في يوم الأحد الموفـــق ١٢مـــن ديسمبر وإذ لم يمكن إنجاز كل شيء في ذلك اليوم قتل قومنا ما بقـــي من أولئك في اليوم التالي ".

وليس من العسير أن ندرك رأي الـــشرقيين المتمـــدنين في أولئـــك فتاريخهم مملوء بما كانوا يوحون به إليهم من الاحتقار العظـــيم ،قـــال

الشاعر الفارسي الكبير السعدي بعد زمن :"لا يـــستحق أولئـــك أن يسموا بشراً".

وكان عدد الصليبيين مليون شخص حينما خرجوا مـــن أوربـــا، فأخذت المجاعات والأوبئة والمنازعات تبيد هذا الجيش العظيم الـــذي كان يمكنه فتح العالم لو كان من أناس آخرين ، إلا انه لم يبق منه عند بلوغه القدس سوي عشرين ألفاً.

وكانت القدس تابعه في ذلك الحين لسلطان مصر الذي استردها من الترك فاستولي عليها الصليبيون في ١٥ من يوليه سنه١٠٩٩م ، وقـــد جاء في الأقاصيص أن القديس جورج تراءي للـــصليبيين مـــن جبـــل الزيتون ، وأنه حرضهم علي القتال فانقضوا علـــي أســـوار القـــدس واقتحموها.

وكان سلوك الصليبيين حين دخلوا القدس غير سلوك الخليفة الكريم عمر بن الخطاب نحو المسيحيين حين دخلها منذ بضعه قرون .

قال كاهن مدينة " لوبوي ريموند داجيل "حدث ما هو عجيب بين العرب عندما استولي قومنا علي أسوار القدس وبروجها ،فقد قطعـــت رؤوس بعضهم فكان هذا أقل ما يمكن أن يصيبهم وبقـــرت بطـــون بعضهم فكانوا يضطرون إلي القذف بأنفسهم من أعلي الأسوار وحرق بعضهم في النار وكان ذلك بعد التعذيب الطويل ، وكان لا يـــري في شوارع القدس وميادينها سوي أكداس من رءوس العـــرب وأيـــديهم وأرجلهم فلا يمر المرء إلا علي جثث القتلى ".

وروي الكاهن الحليم أيضا خبر ذبح عسره آلاف مسلم في مسجد عمر قال :"لقد أفرط القوم في سفك الدماء في هيكل سليمان وكانت

الجثث تعوم في الساحة هنا وهناك وكانت الأيدي والأذرع المبتورة تسبح كأنها تريد أن تتصل بجثث غريبة عنها فإذا ما اتصلت ذراع بجسم لم يعرف أصلها وكان الجنود الذين أحدثوا تلك الملحمة لا يريدون رائحة البخار المنبعثة من ذلك إلا بمشقة".

ولم يكتف الفرسان الصليبيون بذلك ، فعقدوا مؤتمرا اجمعوا فيه علي إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج المسيحيين الذين كان عددهم نحو ستين ألفا فأفنوهم علي بكره.. أبيهم في ثمانية أيام، ولم يستثنوا منهم امرأة ولا ولد ولا شيخا ، وأراد الصليبيون أن يستريحوا من عناء ذبح أهل القدس ،فانهمكوا في ضروب السكر والعربدة واستاء مؤرخو النصارى أنفسهم من سلوك حماة النصرانية فنعتهم برنارد الخازن بالمجانين وشبههم بودان الذي كان رئيس أساقفة دول-بالخيول التي تتمرغ في الأقذار .

وهاج العالم الإسلامي من استيلاء الصليبيين علي القدس ، ولاح لوقت قصير ضعف نفوذ المسلمين الذي تأصل من خمسة قرون ولكن المسلمين تناسوا جميع عوامل الانقسام الذي كان يفت في عضدهم مع ما أحدث ذلك الاستيلاء من الذعر الكبير،وتغاضي سلطان القاهرة عن منافسته لخليفة بغداد ،فتبادلا السفراء للبحث عن عمل لتلافي تلك المصيبة .

اختار الصليبيون جود فري ملكا علي القدس لشجاعته ،ولكن الشجاعة لا تكفي لتنظيم دولة فقد كان جود فري عاجزا عن إدارة شئون دولته مع شده باسه ثم مات بعد زمن قليل ولم يكن خليفته بولدوين أقدر منه علي تدبير أمور الحكم.

وكان قد مضي علي وجود الفرنج في فلسطين عشرون عاما حينما توفي بولدوين في سنة ١١١٩م ،و لم ينشأ عن حكم الفرنج لها سوي خرابها وإقفارها وكان من نتائج هذا الحكم أن عرفت البلاد نظام الإقطاع كما في أوربا وقسمت البلاد إلي إمارات إقطاعيه متقاتلة علي الدوام :طرابلس وعسقلان ويافا ...الخ، و لم يلبث الطغاة أن خربوها بعد أن كانت مدننا زاهرة في ظل الحكم العربي الرشيد ، ونسوق ما قاله أسقف عكا الصليبي جاك دوفتري عن أبناء الصليبيين الأولين وذلك في تاريخه عن القدس:" خرج من الصليبيين الأولين جيل من الفجرة الأشرار الفاسدين وكان هؤلاء الأبناء يختصمون ويقتتلون لأتفه الأسباب ،حتى أن بعضهم كان يستعين علي بعض بأعداء النصارى ، وكان لا يري منهم في أرض الميعاد غير الزنادقة والملحدين واللصوص والقتلة والخائنين والرهبان الدعار والراهبات العواهر ".

و لم يكن غليوم الصوري أقل صراحة من ذلك ، فقد قال بعد أن وصم أبناء الصليبيين بأنهم من السفهاء والملاحدة : " تلك هي رذائلهم الوحشية التي لو أراد كاتب أن يصفها لخرج من طور المؤرخ ليدخل في طور القادح الهاجي .وبينما كان النصارى يخربون القدس ،كان المسلمون يستردون بالتدريج ما خسروه ، وقد أورث تقدمهم في سوريا واستيلاؤهم علي الرها هلعا في قلوب النصارى بفلسطين،فاستغاث النصارى بأوربا .

ونظمت حملة صليبية ثانية لإمداد أولئك،ونجح سان برنارد في إيقاد نار التعصب الديني ،فقد توجه ملك فرنسا لويس السابع علي رأس الحملة الصليبية الجديدة إلي فلسطين،وتبعة الملك الألماني كورنارد الثالث،غير أن جيش لويس السابع الذي كان عدده مائة ألف لم يكد

يصل إلي أسيا الصغرى حتي أبيد علي بكرة أبيه ، ففر لويس الـــسابع بطريق البحر ليذهب إلي انطاكية ويتوجه منها إلي القدس كحاج عادي ،وما كان جيش كونراد الثالث أوفر حظا من جيش لويس الـــسابع . و لم يبد سلوك الصليبيين في هذه الحملة الثانية أحسن من سلوك رجال الحملة الأولي.

قال الكاهن انكتيل في تاريخه :

" قلما كان يوجد صليبي يسير بوحي ديني، فلــم يتــرك أولئــك الصليبيون جرائم وحشية وضربا من قطع الطرق وفــضائح مزيــة إلا اقترفوها " .

وعزي سان برنارد ذلك الإحباط إلي ما ارتكبه هؤلاء الصليبيون من تلك المظالم ، وتم طرد الصليبين من القدس علي يد السلطان صـــلاح الدين الشهير وذلك أن صلاح الدين دخل سوريا بعـــد أن أصـــبحت مصر و جزيرة العرب والعراق قبضته ،وأنـــه غلـــب ملـــك القـــدس دولوزينيان واسترد القدس في سنة١١٨٧م.

و لم يشأ السلطان صلاح الدين أن يفعل في الصليبيين مثل ما فعلوه من ضروب التوحش ، واكتفي بفرض جزية طفيفة عليهم مانعا سلب شيء منهم . وقضى علي مملكة القدس بعد أن عاشـــت ٨٨ ســـنة ، ومرت سبعة قرون علي تلك الحوادث من غير أن تخرج هذه المدينـــة المقدسة من أيدي أتباع محمد علي الرغم من جميع الجهود التي قام بهـــا العالم المسيحي من ذلك الحين . ولا نري فائدة كبيرة في تاريخ الجهود المجدية التي قامت بها أوربا لاسترداد القدس أي في تـــاريخ الحمـــلات الصليبية الست الأخيرة ، وإنما نكتفي بذكرها الخاطف.

لقد حرض رئيس أساقفة مدينه صور في فينيقا -غليوم — أوربا علي تجريد الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩-١١٩٢)، وقد قاد هذه الحملة الثالثة ملك فرنسا فيليب أوجست ، وملك انجلترا ريتشارد قلب الأسد، وقيصر ألمانيا فريدريك بارباروس ،أي اقوي ملوك أوربا، فأما بارباروس فقد مات في آسيا الصغرى ، حينما كان يغتسل في نهر البردان ، و لم يصل سوي بقايا جيشه إلي سوريا ، وأما فيليب أوجست فقد تعب سريعا وأبحر إلي صور بعد إقامة قصيرة بفلسطين تاركا خلفه جيشه مؤلفا من عشره آلاف مقاتل بقيادة أمير بورجونية ، ولذا ظلت القيادة العليا في يد قلب الأسد ريتشارد الذي اقترف جرائم وحشية كالتي اقترفها رجال الحملة الأولي. وكان أول ما بدأ به ريتشارد هو قتله ثلاثة آلاف أسير مسلم سلموا أنفسهم إليه بعد ما قطع لهم عهدا بحقن دمائهم ،ثم أطلق لنفسه العنان في اقتراف أعمال القتل والسلب ، وليس من الصعب آن يتمثل المرء درجة تأثير تلك الكبائر في صلاح الدين النبيل الذي رحم نصارى القدس و لم يمسهم بأذى ، والذي أمد فيليب أوجست وقلب الأسد بالزاد والمرطبات في إثناء مرضهما ،فقد أبصر الهوة العميقة بين تفكير الرجل المتمدن وتفكير الرجل المتوحش وأدرك أنه لا يجوز أن يعامل أولئك الحمقى بغير ما تعامل به الوحوش الضارية.

وأكره ريتشارد من فوره علي مغادرة فلسطين قبل أن يري القدس، و لم يكن للحملة الصليبية الثالثة التي قادها ملوك أوربا الأقوياء نتيجة سوى بقاء المسيحيين مالكين لبعض مدن الساحل .ثم نظمت الحملة الصليبية الرابعة(١٢٠٢-١٢٠٤م) بقياده أمير الفلاندر (بودوان) ، وعزم الصليبيون في هذه المرة علي بلوغ فلسطين بحرا لا برا كما في

الماضي وأبحروا من ميناء زاره متــوجهين إلي عاصــمة الإمبراطوريــة الرومانية الشرقية(القسطنطينية) ،ولما بلغوها رأي بعضهم أن سوريا لا تزال بعيدة ،وأن الصليبين السابقين أنهكوها غير تاركين فيها ما ينهب، وأن كل الصيد والغنائم في القسطنطينية، فانضم بقية الصليبين إلي هذا الرأي الصائب وآخذوا ينهبون ما فيها وكانت في ذلك الوقت تضم ما تركه الإغريق والرومان من كنوز الفن والأدب ، ولم ير الصليبيون في هذه الكنوز شيئاً نافعا فساروا يحطمون كل ما لم يكن من الــذهب أو الفضة ، أو يلقونه في البحر ، وصاروا يكسرون التماثيل الرخامية التي صنعها الفنانون الرومان ويتلفون في يوم واحــد مؤلفــات الأطبــاء والفلاسفة اليونان والرومان ، ولم يفكر بودوان وأصحابه في الزحــف إلي فلسطين بعد ما شبعوا من الغنائم ، ونصب " بودوان " قيــصرا ، وأجاز البابا إينوسان الثالث ذلك مع بيان أن الصليبيين اقترفوا أفظــع الجرائم ولا حاجة إلي ذكرنا أن سلطة هذا القيصر الجديد كانت مؤقتة فلم يكن الصليبيون من غير انمج العاجزين عن إقامة دولة دائمة، وعن غير التخريب، ولم ينشأ عن إقامتهم القصيرة بالقسطنطينية غير إبــادة كنوز العالم اليوناني اللاتيني القديم . ولم تكن الحملتــان الــصليبيتان الخامسة والسادسة من الحملات المهمة ولم تهــتم بالجهــاد في ســبيل القدس ، وإنما ذهب أكثر رجالهما إلي مصر طمعا في الغنائم فاضــطروا إلي التقهقر بعد أن أوغلوا قليلا فيها .

وتوجه جيش صغير إلي القدس بقيادة فردريك الثاني الألماني الــذي تعاهد هو والمسلمون،فسمح له المسلمون بدخول القدس حليفا،فعــاد إلي أوربا مكتفيا بهذه المجاملة الحقيرة . ومع ذلك فإن الحملات الصليبية أخذت تفقد صبغتها الأوربية الشاملة التي اصطبغت بها في أول الأمــر

،فقد قام بعد ذلك بعض السرايا الصغيرة بمغامرات في صورة حمـــلات سريعة غير منظمة باحثة عن الثراء وظلت القدس وفلسطين علي الرغم من الحملات الصليبية الست في قبضة المسلمين ، ثم عزم ملك فرنـــسا سان لويس علي العودة إلي الجهاد فجرد حملة صليبية سابعة في ســـنة ١٢٤٨م ، وقد غادر ايجمورت علي رأس خمسين ألف مقاتل متوجهـــا إلي مصر ، وقد احتل دمياط وزحف إلي القاهرة حيث كثر القتـــل في جيشه قبل أن يبلغها ووقع أسيراً وافتدي نفسه وذهب إلي سوريا فأقام بها سنتين من غير أن يظفر بطائل،ثم رجع إلي فرنـــسا قبـــل أن يـــري القدس، و لم تضعف عزيمة سان دويس رغم هذا الانكسار،فقد جهـــز حملة صليبية جديدة بعد ست عشرة سنة وقد غادر إيجمورت في أربعه يوليه سنة ١٢٧٠م علي رأس جيش مؤلف من ثلاثين ألفاً من المـــشاة وستة آلاف من الفرسان ، وقد توجه إلي تونس طمعا في حمل أميرهـــا علي اعتناق المسيحية ، فأصابه الطاعون حينما كان محاصرا لها ومـــات في خمسة وعشرين أغسطس في سنة١٢٧٠م .

وكانت تلك الحملة الثامنة آخر الحملات الصليبية فبها ختمت تلك المغازي الكبيرة إلي الأبد ،وبقي المشرق خاضعا لإتباع النبي العربي.
و لم يلبث المسيحيون أن خسروا ما كانوا يملكون من النواحي القليلة في فلسطين ، وأراد البابوات أن يوقظوا حمية المسيحيين الدينية ولكن دون جدوى ، فقد فترت حرارة الإيمان في النفوس ،وصار هـــم شـــعوب الغرب مصروفا إلي أهداف أخري ".

ويضيف المؤرخ " جوستاف لوبون " ، بعد أن عرض موجزاً قصيراً لتاريخ الحملات الصليبية وأظهر في موضوعية وحياد بعـــض الفظـــائع

والجرائم الوحشية التي ارتكبها الصليبيون في هذه الحملات التي كانت من أقوى الدوافع والأسباب المؤدية إلى الكراهية..يقول :

" ولا أحاول في خاتمة هذه الخلاصة القصيرة التي سردها عن تاريخ الحروب الصليبية-تسويغ تلك الحروب ، ولا أعلم أن فاتحا في القرون القديمة أو الحديثة فكر ثانيا في عدل جهاده الحربي أو ظلمه ما لائم ذلك الجهاد مصالحه ، وما رأى وصوله إلي مقصده من غير خطر كبير ، فإذا كتب له النجاح في جهاده كفاه نجاحه ولم يبق ما يستلزم تسويغه ، ولم يعدم عند الضرورة بيان لتمجيد ما صنعه ، وإذا ما هجا بعض الكتاب مظالم القوه قائلين أن علي القوه ألا تتغلب علي الحق،كان ذلك من قبيل ذم الأمور الطبيعية غير المجدي ، كما نشتكي من السقم والهرم والموت .حقا أن مبادئ الحقوق النظرية المدونة في الكتب لم تكن دليل أمة في أي زمن ، وأن المبادئ التي احترمتها الأمم هي المبادئ التي أيدها قوة السلاح كما أثبته التاريخ وأن البابـاوات لم يسيروا علي غير سنن الفاتحين في الماضي والمستقبل حينما حرضوا المسيحيين علي الحروب الصليبية الطاحنة المنافية لأبسط قواعد الإنصاف ، من الناحية النظرية فلا يفيد لومهم علي ما فعلوا " . ٧٠

ويترك جوستاف لوبون الحديث عن الحروب الصليبية وحملاتها العسكرية ، ليتحدث عن نتائج هذه الحروب التي كانت مفتتح خير وتقدم ونهضة لأوربا وأخرجتها من ظلمات العصور الوسطى ، في حين أنها كانت مسببة لخسائر فادحة للمسلمين وشكلت مع الهجمة التتارية الكاسحة الآتية من الشرق ضربة قوية للدولة الإسلامية التي بدأت تصيبها عوامل الاضمحلال والضعف من داخلها .

يقول جوستاف لوبون عن نتائج الحروب الصليبية بـين الـشرق والغرب:

"أسهب كثير من المؤرخين في نتائج الحروب الصليبية وكانت الآراء في نتائجها متناقضة للغاية ، وإذا نظرنا إلي هدف الحـروب الـصليبية القريب وهو فتح فلسطين رأينا أنها لم تسفر علي أية نتيجة مـع مـا خسرته أوربا في قرنين من المال والرجال ،فقد بقي المـسلمون سـادة لتلك الأماكن ، ولكننا إذا نظرنا إلي النتائج البعيدة التي أسفرت عنـها هذه الحروب تجلت لنا أهمية تلك النتائج التي كان بعضها نافعا وبعضها ضارا ، وإن شال الميزان ورجحت كافه النافع منها، فقد كان اتـصال الغرب بالشرق مدة قرنين من أقوي العوامل علي نمو الحضارة في أوربا وبهذا تكون الحروب الصليبية قد أدت إلي نتائج غير التي نشدتها ،وليس التاريخ خاليا من الأمثلة علي عدم المطابقة بين الضالة المنشودة والهدف المدرك ،بل هو حافل بهما حتي يكاد البصير يـري ذلـك في قاعـدة مطردة.

وإذا أراد المرء تصور تأثير الشرق في الغرب وجب علية أن يتمثـل حال الحضارة التي كانت عليها شعوبهما المتقابلة ، فأما الشرق فكـان يتمتع بحضارة زاهرة بفضل العرب ، وأما الغرب فكان غارقا في بحـر من الهمجية ، وقد ظهر من بياننا الوجيز عن الحـروب الـصليبية أن الصليبيين كانوا في سلوكهم وحوشا ضارية وأنهـم كـانوا ينـهبون الأصدقاء والأعداء ويذبحونهم علي السواء وأنهم خربوا في القسطنطينية ما لم يقدر بثمن من الكنوز القديمة الموروثة عن اليونان والرومان .

ولم يكن عند أولئك البرابرة ما يفيد الشرق ولم ينتفع الشرق منهم بشيء في الحقيقة ولم يكن لهذه الحروب عند أهل الشرق سوي بذرها في قلوبهم الازدراء للغربيين علي مر الأجيال ، ولم ينشا عـن جهالـة الصليبين وغلظتهم وتوحشهم ، وسوء نيتهم غير حمل الشرقيين أسـود الأفكار عن مسيحي أوربا وعن المسيحية وغير إيجاد هـوة عميقـة لا يمكن سدها بين أمم الشرق وأمم الغرب وما إلي ذلك مـن النتـائج الضارة التي أشرنا إليها .

ولم تكن العداوة العادلة التي يحملها الشرقيون تجاه أمم الغرب هـي كل ما صدر عن الحروب الصليبية ، فقد نشا عنها أيضا زيادة سـلطة البابوات وزيادة سلطة رجال الدين الذين اغتنوا بالأراضي التي باعها لهم الأمراء ليقوموا بنفقات الغزو وقد نجم عن نمـو سـلطة أولئـك و ازدياد ثرائهم أن رغب البابـاوات في الـسيطرة علـي الـشعوب والملوك.، وأن عم الفساد " الإكليروس " فأدي هذا الفساد بعد زمـن إلي الإصلاح الديني وما قاسته أوربا بسببه من المنازعات الدامية ، ومن أكثر نتائج الحروب الصليبية شؤما، أن ساد عدم التسامح العالم عـدة، اجل ، كان العالم قبل الحروب الصليبية يعرف الشيء الكثير من عـدم التسامح ، ولكنه ندر أن كان عدم التسامح يصل إلى حـد الجلـف والطغيان، وقد بلغ عدم التسامح هذا مبلغاً من الحميـة الـشديدة في الحروب الصليبية مالا يزال العالم يقاسى أثره إلى زماننا تقريبـا ،فلـم يلبث رجال الدين الذين تعودوا سفك الدماء أن ساروا ينشرون المعتقد ويبيدون أصحاب البدع على الطريقة التي كانوا يبيدون بها الكـافرين، ويرون أنه يجب إخماد أقل انحراف بأفظع تعذيب ، ومن نتائج ما نما في

الحروب الصليبية من روح عدم التسامح المشئومة ما حدث من ذبح " اليهود " و" الاليبجوا " وكل ذي بدعة ، ومن إنشاء محاكم التفتيش ومن الحروب الدينية، ومن الحروب الوحشية التي ضرجت أوربا بالدماء زمناً طويلا .

ولنبحث الآن في نتائج الحروب الصليبية النافعة بعد أن ذكرنا نتائجها الضارة الثابتة:

كان من النتائج السياسية التي نشأت عن الحروب الصليبية أن تضعضع النظام الإقطاعي في فرنسا وإيطاليا على الأقل ، وذلك أن الأمراء لم يخسروا كثيرا من أراضيهم التي باعوها لينفقوا على ما جهزوه من الحملات فقط،بل باعوا أيضا ما كانت تصبو إليه المدن من الحرية والامتيازات ، فصارت هذه المدن دويلات مستقلة ضمن دول الإقطاع تابعة للملك وحده ، ثم أصبح اشتراء المدن بحريتها مبدأ عام ، فقامت بلديه مستقلة في كل مدينة ، فكانت نتيجة ذلك أن ضعف شأن الإمارات الإقطاعية الصغيرة ، لا الكبيرة التي مالت إلى التوسع، وان أضحى ملكاً حاكما بين الناس وسادهم السابقين أكثر مما في الماضي، وزادت بذالك سلطة ملوك فرنسا ، الضعيفة قبل الحروب الصليبية، على حساب سلطة السادة التي كادت تساوى سلطة الملك فيما مضى.

و لم يتقلص النظام الإقطاعي بفعل الحروب الصليبية إلا في فرنسا وإيطاليا، لا في انجلترا وألمانيا اللتين لم يشترك أمراؤهما في الحروب الصليبية الأولى إلا قليلاً ، و اللتين حافظتا على إقطاعياهما فيهما، وصاروا رقباء على ملوكهما الذين تورطوا فيها كثيرا ، فاستفادوا من ذالك فقيدوا سلطة هؤلاء الملوك، ونحن إذا أنعمنا النظر فينا نشأ عن

سير الحوادث من النتائج البعيدة بدا لنا أنا أصـــول دســـتور انجلتـــرا السياسي المتين ترجع إلى حوادث الحروب الصليبية .

اجل، اشترك ثلاثة من قياصرة ألمانيا في الحروب الصليبية، فلما مات فردريك الثاني الذي هو آخرهم كانت السلطة القيصرية من الأوهـــام، واشترك ثلاثة من ملوك فرنسا في الحروب الصليبية، فأما رحلة فيليـــب أوجست فكانت قصيرة وأما سلطة الأشراف في غياب لويس الـــسابع ولويس التاسع فكانت غير خطرة، فسهل على نائب الملـــك ســـوجر والملكة بلانش أن يردا جماحها.

وكان لاصطراع أوربا وآسيا تأثير كبير في التجارة أيضاً ، فقد نشأ عن تجهيز الجيوش الكبيرة التي قذفت بها أوربا في الـــشرق في قـــرنين وتموينها ونقلها حركة عظيمة في التجارة والحركة البحريـــة ، فـــاغتنى بذلك الكثير من أهل مارسيليا وجنوه والبندقية على الخصوص وبلغت بحرية مارسيليا درجة عظيمة من النمو استطاعت معه في سنة ١١٩٠م، أن تنقل إلي الأرض جيش قلب الأسد ريتشارد .

و لم يقف نمو التجارة بعد طرد الصليبين من آسيا ، فقد عقدت أكثر جمهوريات ايطاليا وأمراء المسلمين معاهدات تجارية وكانت صـــلات البندقية التجارية الوثيقة بالمشرق سبب عظمتها ، واطرد تقـــدم هـــذه التجارة مع الزمن إلي أن اكتشفت طرق بحرية جديدة ، فانتقل زمامها إلي أيدي أخري .

و لم يكن تأثير الحروب الصليبية في الصناعة والفنون أقل من ذلك ، فقد استوقفت نفائس الشرق الباهرة أنظار الأمـــراء الـــصليبيين مـــع حلفهم، فوجدوا في التجارة وسيله تقليدها ، فنري اقتبـــاس نفـــائس

الشرق في أسلحة الغرب وثيابه ومساكنه في القرن الثاني عشر ، والقرن الثالث عشر علي الخصوص .

وكلما نمت النفائس أدت إلي تقدم الصناعة بحكم الضرورة ، وتبحث الصناعة علي المنتجات التي تطلبها التجارة منها بطبيعة الحال ، فتحفزها الضرورة إلي القيام بذلك من فورها .

وإذا كانت صناعة الخشب والمعادن والميناء والزجاج تتطلب معارف كثيرة فقد اقتبسها الأوربيون من آسيا مع جهلهم لها قبل دور الحروب الصليبية ، وعم أمرها بذلك في أوربا فعن صور أخذت البندقية نماذج صناعه الزجاج ،وعن المسلمين أخذت أوربا صناعة النسائج الحريرية والصباغة المتقنة ، وعن سوريا أخذ عمال الحملات الصليبية التي دام أمرها قرنين وصنعوا أسلحتها ومهندسوها ونجاروها ومن إليهم ممن كانوا يجهلون من المعارف الصناعية ، ومن ذلك في أثناء إقامتهم الطويلة بها.

وكان تأثير فنون الشرق في الغرب عظيما أيضا ،فقد نشأ من إيلاف الصليبين دروب منتجات الشرق المتمدنين من القسطنطينية إلي مصر تهذيب أسواقهم الغليظة ، ولم يلبث فن العمارة في أوربا أن تحولاً تحولا تاما ، ولا يصعب علينا والحالة هذه ، أن نثبت في فصل آخر قوه تأثير اثر حضارة العرب في أطواره الأولي .

وأما استفاد الصليبيون من علوم العرب الخالصة فكانت ضعيفة إلي الغاية خلافا إلي ما ذهب إليه كثير من المؤرخين ، فالجيوش الصليبية إذا كانت جاهلة لم تكن لتبالي بالمعارف والأصول مبالتها بشكل البناء أو الأسلوب الصناعي .

ولا يحتج علينا بان القرون الوسطي استنبطت معارفها العلمية والأدبية من مؤلفات الشرقيين ، فالواقع أن تلك المعارف لم تدخل أوربا بفضل الحروب الصليبية قط كما نبين ذلك في فصل آخر .

و لم يكن تأثير آداب العرب في الصليبين صفرا بل أمتد التأثير إلى أن استوحاها كثير من شعراء الغرب وكتابهم ،فكان سحرة مصر وعجائب الشرق وغودروا وتانكريد وغيرهما موضوع قصص مهم للشعراء الجوالين الذين كانوا ينشدون بين قصر وقصر.

ظهر مما تقدم أن تأثير الشرق في تمدن الغرب كان عظيما جدا بفضل الحروب الصليبية ، وأن ذلك التأثير كان في الفنون والصناعات والتجارة أشد منهم في العلوم والآداب ، وإذا نظرنا إلي تقدم العلاقات التجارية العظيم باطراد بين الغرب والشرق وإلي ما نشأ من احتكاك الصليبين والشرقيين – من النمو في الفنون والصناعة تجلي لنا أن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من التوحش واعدوا النفوس إلي التقدم بفضل علوم العرب وآدابهم التي أخذت جامعات أوربا تعول عليها فانبثق عصر النهضة منها ذات يوم ". ٨٠

وتعليقاً على النص السابق لجوستاف لوبون نقول :

أنه إذا كان المؤرخ الشهير قد اعترف بصفة عامة بفضل العرب والمسلمين على أوربا نتيجة الاحتكاك في زمن الحروب الصليبية ، فإننا لا نستطيع أن نذهب معه في التقليل من شأن التأثير العلمي للعرب والمسلمين في أثناء فترة هذه الحروب . وذلك باعتراف الكثير من العلماء والدارسين والمستشرقين أنفسهم ثم إن الكثير من المجالات التطبيقية التي استفاد منها الغربيون أثناء هذه الحملات كانت نتيجة تقدم العلم العربي في سائر ميادين العلوم الطبيعية .

ويذكر دكتور مصطفى المحمودي ، في مجـــال تأصـــيل الكراهيـــة ومنابعها التي تفجرت بين الشرق والغرب - وهو أحد خبراء الإعلام العربي والدولي - ، أن تقريرا عن النشاط ، الإعلامي العربي بالغرب ثم إعداده بدولة قطر أتى فيه ، أن أغلب الكتب التي تؤلف عن العـــرب والمسلمين لا تتوخى الدقة والإنصاف ، بل تجارى الصورة التي استقرت في الأذهان عنهم ، وأن مكتبات أوربا وأمريكا لا تعرض إلا القليل من الكتب عن العرب والإسلام ، وأما ما ترجم حـــديثاً عـــن الإســـلام فمعظمه يتناول كتب الصوفيين " ، ويقول الدكتور المحمودي " ومـــن جراء كل هذا صرخت الأصوات في جميع أنحاء العالم النـــامي مناديـــة بإقرار نظام إعلامي جديد قوامه العدل والإنصاف ، وغايتـــه ، تغـــير النظرة الغربية وحماية الهوية الثقافية لكل مجتمع، وتأمين التبادل الـــدولي على أساس الاحترام والكرامة "٩٠

إن خلاصة ما سبق وما أكده الباحثون الغربيون أنفسهم ، أن منابع الكراهية والعداء للإسلام بدأت تتفجر منذ الفتح الإسلامي وانحـــسار النفوذ البيزنطي عن الشرق ، وتدفقت هذه المنابع بعد فشل الحـــروب الصليبية وازدادت مع الغزو التركي العسكري لأوربا ودعـــم هـــذا التدفق كتابات الجدليات اللاهوتية ، ثم بعد ذلك كتابات المستشرقين ، وبصفة خاصة ، هؤلاء الذين ارتبطت دراساتهم للشرق ببدايات حقبة الاستعمار والنفوذ منذ أواخر القرن الثامن عشر الميلادي .

ويدفعنا ذلك إلى تناول الحديث عن الاستـــشراق والمستـــشرقين ، والإشارة من خلاله أيضا لتلك العلاقات الشائكة بين الشرق والغـــرب والأسئلة الملتبسة التي تثيرها .

٣- عن الإسلام والاستشراق:

يعتبر الاستشراق جزأ لا يتجزأ من قضية الصراع الحضاري بين الإسلام والغرب ، ويذهب المفكر الإسلامي د.حمدي زقزوق إلى أن الاستشراق " يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع ، ولهذا فلا يجوز التقليل من شأنه بالنظر على أنه قضية منفصلة عن باقي دوائر الصراع الحضاري ، فقد كان للاستشراق – من غير شك – أكبر الأثر في صياغة التصورات الأوربية عن الإسلام ، وفي تشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة "١٠

تعد دراسة الفكر الاستشراقي أمراً ذا أهمية لمفكري العرب والمسلمين خاصة في هذه المرحلة من مراحل تاريخنا الحديث والمعاصر ، لا على أساس أنها دراسة متوجهة بنزعة الإدانة أو الرفض ، بل على أساس أنها تمثل شيئاً من وعي الذات أو اليقظة الفكرية، والتي يتم بموجبها رؤية الذات من خلال ملاحظة اتجاهات الآخرين وتصوراتهم ، ومن ثم تبين ما يستحق المعالجة الذاتية أو الاعتراف ببعض هنات هذه الذات والسعي لتصويبها ، أو بعكس ذلك ، تقصي الصورة المشوهة أو المغلوطة على أساس أن بعض هذا التشويه جرى أو حصل عمداً أو قصداً ، بينما يظهر بعضه عن جهل أو إخفاق أو نقص في المعلومات والتصورات .

ولا يهدف الجهد في مثل هذه الحالة أو لا ينبغي له – أن يطوف في هذا الميدان بقصد التسلية أو تقريع الذات أو إدانة الآخر ، بل يلزمه على حد توضيح د . محسن جاسم الموسوى – أن يتبين تبعات هذا الأمر في القرار السياسي ، وما يتتبع ذلك من توفير فرصة أحسن للمواجهة أو التحاور .

والاستشراق من هذه الزاوية ، وفي ضوء ما قدمه " إدوارد سعيد "، يقصد به مجموع الجهود التي بذلت لدراسة الشرق على أنـــه تكـــوين ثابت بمعنى خضوعه للوصف والتحليل والمعالجة ،ومن ثم الاحتواء .

ورغم أن الاستشراق ينبغي أن يعني بالشرق ، إلا أنه في واقعه معنى بالإسلام وتحديدا في المنطقة العربية ، على أساس أن عظمـــة الإســـلام كما يقول " بيرجر" طابقت عظمة العرب، لكن العظمة المقـــصودة لا تنحصر في نطاق المنجزات المعرفية ، بل تتجـــاوز ذلـــك كـــثيراً إلى المواصفات الجغرافيـــة لمـــا سمـــى في الأدبيـــات الاستـــشراقية بـــــ (الإمبراطورية) ، حيث تقترن العظمة بالاتساع بينما يترادف الأفول مع الانحسار .

وعلى الرغم من التغيرات الطارئة على حركة الاستـــشراق ، قبـــل المؤتمر الأول في عام ١٨٧٣ وبعده ، إلا أن مراحله التاريخية لا تعـــني موت هذه الحركة بل تلوها واتساعها في منظومات معرفية وعملياتيـــة جديدة لها علاقة وطيدة بما يجري في عـــالم اليـــوم ، ١١* ، ويـــذهب د . محسن جاسم الموسوى ، إلى أن الاستشراق مر في تاريخه بطورين كبيرين :

الأول : شغلت فيه أفكار أرنست رينان مكانة رئيسية .

والثاني:شغلت فيه النزعة الأمريكية للدراسة الميدانية حيزاً واضـــحاً ١٢* أما أفكار رينان المستندة إلى التوزيع العرقي للحضارة وصراعها فقـــد أثرت تأثيراً بالغاً في الكتابات المختلفة عن الشرق العربي ، كمـــا أنها أسقطت نفسها بقوة على اتجاهات الـــسياسة الاســـتعمارية ، ســـواء تجسدت عند نابليون أو عند كرومر .

وبينما يفترض أن تقود الاهتمامات الجديدة بالدارسات الميدانية في الخمسينات من القرن العشرين – إلى وضوح أكبر في الرؤية إلا أن صعوبة تخلصها من ذلك الإرث المتراكم في الذاكرة يجعل مثل هذا الخلاص أمراً مستحيلاً .

ويؤكد الباحث إن واقع الحال في الدراسات الاستشراقية الميدانية عكس استمرار الروح الاستشراقية في التكوينات الحلقية الجديدة بل كانت هذه الأخيرة في مجملها اعتراف يتزايد بأهمية دراسة المنطقة في ضوء تزايد المصالح الأمريكية فيها ولهذا لم يكن تولي المستشرق جب Gibb إدارة معهد دراسات الشرق الأوسط في هارفارد في الخمسينات غير تعميد لهذا المنهج الذي يستدعي الدراسة المتخصصة المتنوعة ، انسجاماً مع دعوات كثيرة متكررة لبلوغ دراسات غنية بالاستقصاء الدقيق حول منطقة الشرق الأوسط كما سميت في أدبيات المعاهد الجديدة التي انتشرت فجأة في الحياة الأكاديمية الأمريكية .

٤- الاستشراق في جانبيه الإيجابي والسلبي:

في كتابه هموم" الأمة الإسلامية "، استعرض د . حمدي زقزوق في نظرة تاريخية – حديثاً موجزاً عن حركة الاستشراق وتطورها ١٣٠ مشيراً إلى ما لهم من ايجابيات، وما عليهم من مآخذ وسلبيات ، وينبه إلى أن بعضاً من إيجابيات المستشرقين تعد من الأمور التي تخص المستشرقين أنفسهم، وتتصل بأسلوب عملهم ومدى ترابطهم والقصد من ذكرها هو مجرد الاعتبار بها فقط ، وبعضها الأخر تتصل ايجابياته بإنتاجهم العلمي الذى يعود بعضه بالفائدة على الدارسين العرب ، وإن كان المستشرقون قد قصدوا به في المقام الأول خدمة أنفسهم ، ولكنهم مع ذلك لم يحجبوه عن غيرهم .

ومن الجوانب الإيجابية التي يشير إليها :

١- إن المستشرقين يخدمون أهدافهم الـتي وضـعوها لأنفـسهم بإخلاص تام لهذه الأهداف وتفان إلى أقصى حد وبكـل الوسـائل ، وأنهم بصفة عامة لديهم صبر عجيب ونادر في البحث والدرس وإحاطة تامة بالعديد من اللغات القديمة .

٢- الترابط والتنسيق المستمر بين جماعات المستشرقين في مجـالات الدراسات العربية والإسلامية واستمرارية قنوات الاتصال فيما بينهم .

٣- إنجازهم لدائرة المعارف الإسلامية – على ما لنا نحن المسلمين عليها من مآخذ.

٤- إنجاز " بروكلمان " لتاريخ الأدب العـربي – وهـو كتـاب أساسي في الدراسات العربية والإسلامية ، فضلاً عـن أنـه سـجل للمصنفات العربية المخطوط منها والمطبوع .

٥- باعهم الطويل في مجال المعاجم .

٦- الحفظ والعناية الفائقة والفهرسة الدقيقة للمخطوطـات سـواء الذي انتقل إليهم بوسائل شرعية أو غير شرعية ، ونشر الكـثير مـن أمهات كتب التراث .

أما الجوانب السلبية :

فهي تنصب بصفة أساسية على دراستهم عن الإسلام وما يتصل به ويعرض د . زقزوق نماذج منها فيما يلي :

١ – اعتماد الاستشراق أسلوباً خاصاً في التفكير يقوم على التفرقة الأساسية ين الشرق والغرب ينتج عنه إسناد السمات الإيجابية للغرب وإلصاق السلبية منها إلى الشرق .

٢ – عدم اهتمام الاستشراق بتطوير الكثير من أساليبه ومناهجه ، فدراسته للإسلام لم يتخلص فيها من الخلفية الدينية للجدل اللاهوتي العقيم الذى انبثق منه الاستشراق أساساً.

٣ – تعمد المستشرقين تطبيق المقاييس المسيحية على الدين الإسلامي وهو خطأ فكري ومنهجي كبير يترتب عليه مغالطات عظيمة ومنها إطلاقهم على الإسلام اسم " المذهب المحمدي "، وإعطاء الانطباع بأن الإسلام دين بشري من وضع محمد وليس من عند الله ، أما بالنسبة للمسيحية فهي تنسب للمسيح إلا أنها لا تعطي هذا الانطباع لديهم لاعتقادهم أن المسيح ابن الله .

٤ – الخلط بين الإسلام كدين وتعاليم ثابتة في القرآن الكريم والسنة الصحيحة وبين الواقع المتردي للمسلمين في عالم اليوم .

٥ – التأكيد على أهمية الفرق المنشقة عن الإسلام ، كالبابية والبهائية والقاديانية ، وغيرها من فرق قديمة وحديثة ، وتعميق الخلاف بين السنة والشيعة .

٦ – افتقاد الموضوعية في كتابات معظم المستشرقين عن الدين الإسلامي في حين أنهم عندما يكتبون عن ديانات وضعية مثل البوذية والهندوكية وغيرها يكونون موضوعيين في عرضهم لها .

٧ – يعطي الاستشراق لنفسه في دراساته للإسلام موقف ممثل الاتهام والقاضي معاً، فبينما نجد مثلاً أن علم التاريخ يحاول أن يرصد ويفهم ،

نجد الاستشراق يعطي لنفسه حق الحكم ، بل حق الاتهام والرفض للأسس الإسلامية التي يقوم عليها المجتمع المسلم وذلك ناتج عن نوايا مسبقة لا يمكن بحال من الأحوال أنن تكون نوايا علمية صافية كما يدعي المستشرق رودي بارت .

٨- تحالف فريق من المستشرقين مع الاستعمار في حقبة من العصر الحديث ومنهم " كارل هينرش " توفى ١٩٣٣ ، وهو مؤسس " مجلة الإسلام " الألمانية ، وأيضاً " بارتولد " توفى ١٩٣٠ وهو مؤسس مجلة " مير إسلاما " الروسية ، وأيضاً العالم الهولندي الشهير " سنوك هور جورنيه " توفى ١٩٣٦ ، وقد شغل مناصب قيادية في السلطة الاستعمارية الهولاندية في إندونيسيا، أما المستشرق الفرنسي المعروف " ماسينيون " فقد كان مستشاراً لوزارة المستعمرات الفرنسية في شئون شمال إفريقيا .

٩- الدعوة إلى إصلاح الإسلام بالزعم بأن الإسلام دين جامد ، وأنه لم يعد مسايراً لروح العصر ولذلك فهو في حاجة إلى إصلاح جذري وهي دعوة يوجهها غريب عن الإسلام للمسلمين بشأن ما ينبغي عليهم أن يفعلوه في دينهم ، وهذا الإصلاح المزعوم يمثل محاولة من محاولات تغيير وجهة نظر المسلم عن الإسلام.

٥- في نقد الاستشراق:

منذ مطالع النهضة العربية الحديثة والاستشراق خاصة في جوانبه السلبية ، يتعرض لعملية نقد وفحص وتصحيح لكثير من مقولاته - من مفكري العرب والمسلمين، ومن بعض المستشرقين أنفسهم ، وتكاد هذه العملية النقدية تشمل كل جوانب الإستشراق ؛ منطلقات وأيديولوجيات ورؤى ، مواد وموضوعات،مناهج وأدوات، ونتج عن ذلك أيضاً تراكم درسي وبحثي نستطيع أن نطلق عليه دراسات " نقد الاستشراق" وهو مصطلح استخدمه أساتذة كبار كتبوا في هذا الميدان باستفاضة ، كأنور عبد الملك وفؤاد زكريا وإدوارد سعيد *١٤

والمعروف أن هذه العملية في الرد على المستشرقين ونقدهم لما تزل مستمرة منذ رفاعة الطهطاوي حتى هذه اللحظة ، ونستطيع أن نذكر على سبيل المثال وليس الحصر بعض الأسماء المؤثرة في هذا المجال منهم :

الشيخ جمال الدين الأفغاني وتلميذه الإمام محمد عبده ، محمد رشيد رضا ، شكيب أرسلان ، محمد كرد علي ، خير الدين التونسي ، نجيب العقيقي، عباس العقاد ، أنور الجندي ، مصطفى الغلاييني ، علال الفاسي ، قاسم السمرائي ، مصطفى السباعي ، محمد محمود شاكر ، مصطفى عبد الرازق ، أحمد شلبي ، أحمد الشرباصي ، أنور عبد الملك، فؤاد زكريا ، حسين مؤنس ، حسن حنفي ، إدوارد سعيد ، عبدالله العروي، محمد أركون ، محمد البهي ، محمد عمارة ، مالك بن نبي ، عبد الرحمن بدوي ، حمدي زقزوق ، عبد الصبور مرزوق ، أحمد عبد الرحمن ، عبد العظيم المطعني ، وغيرهم كثيرون .

وسأورد مثالين مختلفين لنقد الاستشراق أحسبهما تركا أثراً قوياً ،ورسخا لمرحلة جديدة في نقد الاستشراق ربما كان من أهم سماتها :

- الندية في المثاقفة والحوار .
- التقدم خطوات نحو الموضوعية العلمية والمنهجية .
- إلغاء اسم " الاستشراق " في معظم المعاهد والأكاديميات الغربية خاصة الأمريكية ، على نحو ما سنرى لاحقاً لما ارتبط به هذا المصطلح من إيحاءات سلبية ، والاتجاه إلى استبداله بأسماء أخرى مع محاولة القائمين على هذه الدراسات بعملية إعادة نظر لكثير من آساليبها ومناهجها، خاصة في مجال الاستشراق السياسي .

أما المثال الأول :

فهو للفيلسوف المصري ، الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوي وهو يأتي في مجال الرد على أكاذيب ومطاعن كثير من المستشرقين ضد الإسلام بصفة عامة والقرآن الكريم ورسول الإسلام بصفة خاصة ، وجاء ذلك في صورة ثلاثة كتب أصدرها د. بدوي باللغة الفرنسية ، والواضح أن هذا المثال من نقد الإستشراق ، يتناول مجالاً دينياً بحتاً وموجه بصفة أساسية للقارئ الأوربي.

وقد قدم الأستاذ الدكتور عطية القوصي أستاذ التاريخ الإسلامي بآداب القاهرة – عرضاً لهذه الأعمال من خلال دراسةى : مقدمة للقارئ العربي يقول فيها :

" أصدر الأستاذ الدكتور عبد الرحمن بدوي من باريس مجموعة كتب إسلامية باللغة الفرنسية ، يدافع فيها عن الإسلام ، وعن نبي

الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام ، وعن كتاب الإسلام المقدس القرآن الكريم .وقد أعلن الدكتور بدوي في مقدمة كتبه هذه ، أنه كتبها ليدافع بها عن الإسلام المستهدف هذه الأيام من قبل كتاب الغرب ، وبسبب الحملة المسعورة التي تشن الآن في أوربا وفي أنحاء كثيرة من العالم ضد الإسلام وضد المسلمين ، لا لذنب اقترفوه ولكن بسبب عداء قديم للإسلام مارسوه عن سوء فهم كتاب الغرب لطبيعة هذا الدين ، خلال العصور الوسطى وخلال العصر الحديث .

وقد صدر الكتاب الأول سنة ١٩٨٩ تحت عنوان " دفاع عن القرآن ضد منتقديه " Defense Du Coran Ses Critiques وصدر الكتاب الثاني في العام التالي تحت عنوان : " دفاع عن حياة النبي محمد ضد المنتقصين لقدره " Defense Du La Vie Du Orophete Muhammad Contr Ses Detracteurs. وجعل عنوان الكتاب الثالث ، الذى لا يزال تحت الطبع : " الإسلام كما أرتاهَ فوليتر ، وهيردو ، وجيبون وهيجل " L ' Islam Vu Par Voltaire , Herder , Gibbon , Hegel وفي مقدمة الكتابين اللذين صدرا أوضح الدكتور بدوي سبب تصديه لهذا العمل ليصحح به الفكر المغلوط عند كتاب الغرب والمستشرقين ، وليبين لهم الحقائق التاريخية ، التي أعمى تعصبهم ضد الإسلام معرفتها .

يقول د . بدوي في مقدمة كتابه (دفاعاً عن القرآن) ما نصه (القرآن ، وكونه الأساس الجوهري للإسلام ، كان هدفاً رئيسياً لهجوم كل من كتب ضده ، في الشرق مثلما في الغرب ، وذلك منذ قبيل النصف الثاني للقرن الأول الهجري / السابع الميلادي ، حتى الآن، ولقد بدأ يوحنا الدمشقي (حوالي ٦٥٠-٧٥٠م) هذا الهجوم بتوجيه

عدة انتقادات على النسق العام للقرآن ، ثم تبعه في ذلك إثيوميوس زيجابنيوس و ثم نيكيتاس البيزنطي في مقدمة كتابه " نقض الأكاذيب الواردة في كتاب العرب المحمديين (المسلمين) " [١٠]

تعليق على د. بدوي بعد عرض نقده للاستشراق :

ومن خلال التعريف السريع لكتب د . عبد الرحمن بدوي الثلاثة في دفاعه عن الإسلام ، وما تتركه من أثر ، نستطيع القول ، إن ذلك الأثر الذي تنتجه ردود بدوي ودفاعاته ، إنما يتعمق ويؤتي ثماره بما عول عليه بدوي من نقد داخلي للمهاجمين والمتحاملين ، يعاونه على ذلك معرفته الدقيقة بالمنهجيات الحديثة والمعاصرة ، ومعرفته الفائقة بالعديد من اللغات سواء أكانت قديمة أو حديثة بما مكنه من الوقوف على كل أدبيات الهجوم والتحامل .

ورأينا كيف تناول دفاع بدوي لا كتابات المستشرقين فحسب ، بل تناول أيضاً كتابات كل من هاجم القرآن سواء في الشرق أو الغرب بدءاً من النصف الثاني للقرن الأول الهجري (السابع الميلادي).

وبهذه الكتب يكون بدوي قد دشن مرحلة هامة في الدفاع عن الإسلام سواء في صورته النصية (القرآن الكريم) ، أو في شخص رسوله صلى الله عليه وسلم .

وتلك المرحلة تحتاج لتفسير متأن من جانب الباحثين .

كما دشن أيضاً مرحلة جديدة في علاقته العلمية بالاستشراق والمستشرقين ، فبعد أن كان يأخذ عنهم ويعول عليهم في كثير من الأحيان، فإنه لم يسلم الأمر من نقدٍ سريع يوجهه لأحدهم فيما يخص

جزئية علمية ، إلا أنه هنا بات يسعى لفضح خـــداعهم وادعـــاءاتهم ، وشابت حديثه نبرة هجومية متحمسة ستسود في كتاباته اللاحقة .

لقد اتهم بدوي المستشرقين بالجرأة المجهولة وبالحقد على الإسلام ، كما اتهمهم بضعف معرفتهم البالغ بالعربية ، وبضحالة إلمامهم بالمصادر المهمة المعنية بموضوعاتهم ، وبعدم الموضوعية والنزاهة .

ونجح بدوي في دحض اتهام القرآن بالانتحال والتقليـــد للنـــصوص المقدسة السابقة عليه باستخدام مجموعة متآلفة من المناهج هي منـــهج التحليل الفيلولوجي ، والمنهج الوثائقي التاريخي والموضوعي في هـــذا الدفاع عن القرآن .

والمثال الثاني لنقد الاستشراق :

ويتجلى عن المفكر الفلسطيني – الأمريكي الدكتور إدوارد ســعيد وهو يأتي في إطار نقد الاستشراق الأيديولوجي والسياسي .

وقد تخصص إدوارد سعيد في الأدب الإنجليزي في جامعة برنـــستون وجامعة هارفارد العريقتين وعمل بصفة أساسية في جامعة كولومبيـــا ، تقول د . فريال جبوري غزول ، وكانت إحدى طالباتـــه في جامعـــة كولومبيا "لقد قدم لنا إدوارد سعيد – فوكو ودريدا وبارت في مطلع السبعينات حينما كانت هذه الأسماء مجهولة تماماً في السياق الأمريكي ، ولم يكن سعيد يستورد الفكر الأوربي للتباهي والاستعراض ، وإنما كان يقدمه نقدياً ويعرف الآخرين بعمقه الفلسفي والراديكالي من جهـــة ، ومن جهة أخرى يكشف عن المسكوت عنه والمغيب في هذا النقد" ١٦٠

لقد عكف سعيد على تقديم المدارس النقدية والنظريات الأدبية من الداخل ، فكان يتمثلها ، لكنه كان يقوم بتعرية مقوماقما وآثارها بحيث يستوعب ما لها وما عليها ، وهذه خاصية ملازمة لفكر سعيد فعندما يطرح أي مقولة ، فسرعان ما يستدرك كي يأخذ في الحسبان ما تسقطه المقولة من اعتبارات ومن استثناءات .

و لم يكتف إدوارد سعيد بالاهتمام بالفكر الأوربي ابتداءً من الإغريق والرومان وانتهاءً بأوربا المعاصرة وأمريكا الشمالية ، فقد كانت موسوعيته ذات طابع عالمي . وظف سعيد في كتاباته النقدية والنظرية والتطبيقية مفاهيم ورؤى مستقاة من التجربة العربية الإسلامية ، ومن مفكرين وأدباء من القارات الثلاث إفريقيا وأسيا وأمريكا الجنوبية . إن الثقافة لديه ذو خيوط متنوعة وإن التقوقع الثقافي ابتسار مخل .

عالج سعيد التحيز في المنظور إلى الآخر في كتابه الشهير " الاستشراق " وشرح كيفية خلق مجال معرفي مزيف يدعى " الشرق " بدون تمييز جغرافي وتاريخي بين الثقافات المختلفة في هذا الشرق المزعوم والمصور باعتباره الآخر المناقض للغرب .

وصاحب نشر كتاب " الاستشراق " عام ١٩٧٨ " في لندن "- جدال عنيف في الأوساط الأكاديمية والصحفية ، فهاجمه المستشرقون لأنه يكشف الأسس اللاعلمية والبعد الكولونيالى في " المعرفة " الاستشراقية ، وأصبح مصطلح " الاستشراق " بعد الانتشار الواسع للكتاب وترجمته إلى كل اللغات الحية ، يعطي انطباعاً سلبياً ، فسارعت الجامعات بحذف " الاستشراق " من أقسامها وغيرت من مناهجها .

لقد أحدث سعيد ثورة أكاديمية عبر كتابه وما أفرزه من عـــروض وتعليقات وتحليلات فضحت الأوهام الاستشراقية .

وعوضاً عن المعرفة " المتحيزة " الـــسائدة والنابعـــة مـــن الأفـــق الاستعماري المضمر أو المكشوف ،قدم سعيد عبر كتاباته منظورا بديلاً عن المسألة الفلسطينية وكشف عن دور الإعلام في تـــشويه الإســـلام والعرب .

لقد أثبت سعيد عبر دراسته للمقهورين أن البحث الدقيق بمنظـــور يبتعد عن الاستعلاء العنصري والتحيز المسبق ويستمد رؤيته من فهـــم السياق الثقافي لدول العالم الثالث ، ســـيؤدي حتمـــاً إلى إدراك دور الاستعمار والاستغلال في استبعاد الشعوب وحجب حضارهم .

إن هذه النقلة المعرفية التي قام بها إدوارد سعيد على صعيد مفهـــوم " الشرق " المفتعل والكشف عن التحيز مع صعيد العلم والإعلام ، دفع كثير من المدافعين عن المستضعفين ، إلى استلهام كتاب " الاستـــشراق لتقويض الفكر السائد حول الشرائح المهيمن عليها ، لقد فتح ســـعيد بأعماله باب التمرد على ملامح التشويه الثقـــافي لـــشعوب وفئـــات وشرائح مستبعدة ومهشمة وأنزل العلم والبحث إلى أرض الواقع وجعل منه بوصلة يهتدي بها الإنسان في نضاله ، دون التفـــريط في مبـــادىء العلم نفسه أو أدلجته .

وفي كتاب " الثقافة والامبريالية " (١٩٩٣) ، قدم ســـعيد رؤى المفكرين والنقاد والباحثين في العالم الذي سبق استعماره ، راسماً ملامح ثقافة مضادة للهيمنة واستراتجيات التعامل مع الإرث الاستعماري عـــبر ثقافة المقاومة والمعارضة .وهكذا بـــين إدوارد ســـعيد ، أن الـــصور الشمولية التي قام الاستشراق الأكاديمي الثقافي ببنائها عـــن الـــشرق ،

تنطوي أساساً على مواقف عنصرية تماماً وعلى تفسيرات اختزالية بواقعه ، وعلى أحكام تقيمية لا إنسانية بحق شعوبه ومجتمعاته ، وعلى أثار المصالح المادية النابعة من منافع إخضاعه واستغلاله (بعد دراسته وأثنائها).

إنها صورة لا يمكن أن تكون ناجحة عن تطبيق أي منهج علمي محايد في معرفة الشرق ، أو عن أية دراسة تتحلى حقاً بالموضوعية العلمية والاستقلال الفكري والرغبة المتجردة في البحث عن الحقيقة بالنسبة للموضوع الخاضع للدرس والتمحيص.

يؤكد إدوارد سعيد ، إن أبشع ما في هذه الصورة ، هو القناعة المحورية التي تنطوي عليها بوجود فارق أساسي وجذري بين الجوهر المزعوم لكل من الطبيعة الشرقية من ناحية والطبيعة الغربية من ناحية ثانية لصالح التفوق الكامل للطبيعة الغربية المزعومة .

أي أن الصورة التي بناها الاستشراق الأكاديمي الثقافي الغربي عن الشرق ، تقوم على التبني الكامل لأسطورة الطبائع الثابتة والمتميزة حكماً عن بعضها بدرجات تفوقها وكمالها ورقيها .

وبإمكاننا أن نسمي هذه القناعة بميتا فيزيقيا الاستشراق ، لأنها تفسر الفوارق بين ثقافة وأخرى ، بين شعب وأخر ، بردها إلى طبائع ثابتة وليس إلى صيرورات تاريخية متبدلة .

فعلى سبيل المثال ، ترى ميتا فيزيقا الاستشراق ، ضمناً وأحياناً صراحة ، أن الخصائص التي تميز المجتمعات الغربية ولغاها وثقافتها ..ألخ هي على ما هي عليه في التحليل الأخير ، لأنها تنساب عن طبيعة " غربية " معينة متفوقة على باقي الطبائع وبخاصة على الطبيعة الشرقية،

لذلك يؤكد إدوارد سعيد بأن " جوهر الاستشراق وهو التمييز الذي لا يمحى بين التفوق الغربي والدونية الشرقية ".١٧٠

ويقول الدكتور محمد عناني أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة القاهرة :

" عندما تصدى إدوارد سعيد لكتاب " أين الخطأ " الذي أصدره المستشرق المؤرخ " برنارد لويس " في مطلع عام ٢٠٠٢م واستطاع به أن يركب موجة العداء للشرق – وذلك المفهوم الغامض الذي أثبت سعيد كيف " خلقه " الغرب خلقاً لخدمة مصالحه – تعجب البعض لأن إدوارد سعيد تبنى موقف المسلمين ، والكثيرون من المسلمين الذين يعملون في جامعات أمريكا وبعض جامعات أوربا يهللون له ويحتفون به ! ولكن الحجة التي ساقها إدوارد سعيد كانت من القوة بحيث أخرست أصواتاً كثيرة ، وبحيث دفعت الكثيرين إلى إعادة قراءة ذلك الكتاب بمزيج من التساؤلات عن صحة منهج ذلك المؤلف المغرض والشكوك في حيادة المزعوم ، ولذلك فعندما أصدر المؤلف نفسه كتابه الثاني الذي طرح فيه ما كان يضمره من صورة زائفة " للشرق " – بعنوان " أزمة الإسلام " – في مطلع ٢٠٠٣م ، لم يكلف أحد نفسه مشقة الرد عليه ، فسقط الكتاب سقطة لم يقم بعدها المؤلف بكتابة شيء ، ولو حتى ليبرئ نفسه مما رماه به إدوارد سعيد.

كان تعجب القلة من دفاع إدوارد سعيد نابعاً من تصور ساذج مغلوط في الغرب عن الشرق الذي نجحت أجهزة الدعاية في تصويره بالصورة التي ترضي غروره وهي الصورة التي يسعد بها من اعتاد التغذي على طعام أجهزة إعلام ويصفها كل دارس لعلوم الدراسة الجماهيرية – بالمعنى العلمي – بأنها صورة مبسطة مخلة لا تتضمن سوى اللونين الأبيض والأسود ، وقد غدا يشجع على استمرارها ذلك

الفكر الساذج الذي تخاطبه الإدارة الأمريكية في تفريقهـــا المـــضحك المبكي بين " من معنا أو مع الإرهاب "!

لقد كان هذا الفكر يمثل العدو الذي كرس إدوارد ســعيد حياتـــه للتصدي له ، ولقد لقي من الاستجابة الصحيحة بين فئات المثقفين في شرق العالم وغربه ما هو حقيق بهذا التصدي ، الذي قام دائماً علـــى المنهج العلمي السليم . و لم يكن يحارب الرجل فيه إلا بسلاح العلـــم والعلم الحديث ، حتى أن نظريتـــه عـــن " الاستـــشراق" وارتباطـــه بالإمبريالية أصبحت جزءً لا يتجزأ من النظرية النقدية الحديثة ، و لم يعد بمقدور أحد أن يتجاهل المدخل الذي وضع إدوارد سعيد أسسه وفصل فيه القول في أهم كتبه ، بل لقد صارت المصطلحات التي أتى بها ممـــن أسس الفكر النقدي الحديث على امتداد العالم كله ١٨*

ونستعرض في الفقرة التالية نموذجاً من كتابات ما بعد الكولونيالية " ما بعد الاستعمار" لإدوارد سعيد والنموذج مجتزأ من كتاب ينتقد فيـــه سياسة الولايات المتحدة للهيمنة ، ويتعرض فيه بالنقض لتبريرات بعض المثقفين الموسوغين لهذه السياسة يقول :

" تتواجد الولايات المتحدة في لحظة من أشد اللحظات دموية في تاريخها ، تتواجد كقوة عظمى أخيرة. ربما لأنـــني أنتمـــي إلى العـــالم العربي، فدائماً ما راودتني خلال الأشهر القليلة الماضية وأقلقتني بشكل خاص أثناء الأيام القليلة الماضية ،راودتني فكرة أننا " نحن الأمـــريكيين متورطون الآن في حرب لها أهداف العنف والتدمير الشامل ، ويرافقها خطاب مثيل . حرب ما كان يمكن أن تشن سوا ضد بلد / عـــربي / إسلامي من العالم الثالث .

لا يمكن لمثل تلك الحرب أن تكون مفخرة لأي أحد ، أو أن ينجم عنها أية نتائج عظيمة ، مهما حقق أحد طرفيها انتصارا ظاهرياً ، وأياً كانت النتائج بالنسبة للطرف الأخر ، لن تحل تلك الحرب مشاكل الشرق الأوسط ، أو مشاكل أمريكا .

لم يكن لحرب كهذه أن تحدث سوا في جزء من العالم مصاب بالجور في توزيع الثورة وفي الحكم ، ويحمل بين طياته تاريخ وعود مضللة مؤجلة إلى ما لا نهاية من جانب الغرب ، عالم يعتمل الآن بصراع عنيف من الكراهية ، ومعاداة أمريكا ، وبجيشان عارم لا يمكن إلى حد كبير استبصاره .

لا أبرر ، بل لن أبرر أبداً ، عدوان العراق على الكويت . لقد أدنته منذ البداية مثلما أدنت ، ومنذ وقت طويل مساوئ حكومة صدام حسين ، وحكومات أخرى في المنطقة ، عربية كانت أم إسرائيلية .

لا توجد في الشرق الأوسط ديمقراطية بأي معنى للفظ . هناك فقط جماعات قوة متميزة ، أو جماعات إثنية متميزة ، وجماهير شعوب منسحقة تحت دكتاتوريات أو حكومات لا تتزعزع ولا تستجيب ولا تتمتع بأية شعبية . لكني أتحدى بشدة فمرة أن الولايات المتحدة بريئة، وذات أهداف فاضلة في هذا الصراع المريع ، كما أؤكد أنها ليست مجرد حرب بين جورج بوش وصدام حسين ، وأن الولايات المتحدة لا تتصرف في صالح الأمم المتحدة فقط وبشكل أساسي . لقد تم بالفعل تخطي قرارات الأمم المتحدة ، وأصبحت حملة القصف ضد السكان العراقيين مهلكة . إلا أن هذه المعركة في أعماقها معركة أضفى عليها الطابع الشخصي ، بين دكتاتور من العالم الثالث من النوع الذي

تعاملت معه الولايات المتحدة طويلاً ، وشجعت حكمه ، وتمتعت بخدماته ، ومن ناحية أخرى بين رئيس لبلد تسلم معطف الإمبراطورية من بريطانيا وفرنسا ، ومصمم على البقاء في الشرق الأوسط من أجل أسباب نفطية ومزايا جيواستراتيجية وسياسية .. ليس للولايات المتحدة سجل لمعارضة متسقة وثابتة للعدوان ، تتواتر إلى الذهن سريعاً أمثلة ، ناميبيا ، جنوب إفريقيا ، قبرص ، بنما ، نيكاراجوا والمناطق التي تحكمها إسرائيل ، وأيضاً يتواتر إلى أذهاننا حقيقة أن العراق والكويت لا تتواجدان في إحدى مناطق العقل غير التاريخية أو على خريطة في مكتب ديك تشيني فقط ، ساندت الولايات المتحدة لمدة جيلين الطغيان والظلم بشكل شبه كلي ، أتحدى أي أحد أن يخبرني عن أي صراع من أجل الديمقراطية ، أو حقوق المرأة ، أو العلمنة ، أو حقوق الأقليات دعمته الولايات المتحدة ، ساندنا بدلاً من ذلك العملاء المذعنين ، المكروهين ، وأدرنا ظهرنا لجهود الشعوب الصغيرة في محاولاتها لتحرير أنفسها من الاحتلال العسكري ، فيما كنا ندعم أعداءها. لقد حفزنا الأحكام العسكرية غير المحدودة وشاركنا في مبيعات شاسعة للأسلحة في جميع أنحاء المنطقة : في غالبية الأحيان مبيعات للحكومات التي اندفعت إلى اتخاذ إجراءات يائسة نتيجة لهاجس الولايات المتحدة لصدام حسين والمبالغة فيه وسوريا قدرته .

تخيل عالماً عربياً بعد الحرب يهيمن عليه حكام يعملون في ظل سلام أمريكي غير موثوق فيه أخلاقياً أو فكرياً !

خلال الأشهر القليلة الماضية حدث شيئان بسرعة واكتمال ، أحدهما هو أنه أثناء الغارة الإعلامية المستمرة منذ صيف ١٩٩٠ ، استبطن الإعلام ومنسوبوه باستثناء القلة ، معايير تمنع التحليل النزيه ،

وتستولد الرقابة الذاتية بالإضافة إلى عرض الأخبار بأسلوب بالغ الضحالة ، الأمر الآخر هو تطوير خطاب لا يفيد سوى في التماهي مع القوة ، رغم أخطار هذه القوة في عالم انكمش انكماشاً شديداً وأضحى متداخلاً بشكل مؤثر .

ليس من حق الولايات المتحدة أن تدعم مطلبها بقوة السلاح ، باستهلاك ٣٠% من طاقة العام في ما لا تشكل سوى ٦% من سكانه ، ومن هذا المنطلق أيضاً لا تملك أحادياً ، حق إعلان نظام عالمي جديد ، بمجرد امتلاكها السطوة العسكرية وأن تقوم بتدمير البلاد القليلة التي تتذمر أو لا تذعن .

لم يكن ثمة شاهد أن التوسع العراقي يمكن أن يتخطى الاستيلاء على الكويت .

حقاً ، لقد توفرت الآن أدلة كثيرة أنه كان قد نجح ترتيب بين العراق والسعودية والأردن ومصر في أوائل أغسطس ، كان هذا الترتيب يقضي بانسحاب العراق من الكويت وقبول التحكيم في أمر نزاعه مع الكويت .

رفضت الولايات المتحدة هذه التسوية فوراً بمثل ما ترفض كل تسوية أخرى في الشرق الأوسط . كانت هناك أيضاً شواهد قوية على أنه في حالة استفزاز الولايات المتحدة للعراق بأن تومئ بإبادته ، فقد يختار العراق التدمير ككلي بدلاً من التراجع ، أصبح العراقيون المعارضون لصدام في الخارج ضد الوليات المتحدة .

يتفق عرب كثيرون مثلي ، على وجوب إنهاء غزو العراق للكويت، إلا أن القلة هم من يوافقون على إستراتيجية إرسال القوات الأجنبية

مباشرةً فقط ، لأن جورج بوش ومارجريت تاتشر قد قـــررا أن مـــن واجبات الرجل الأبيض تعليم سكان الشرق الأوسط للمحليين السلوك القويم .

ثمة نماذج من تلك المواقف المزدرية للعالم العربي منذ الأيـــام الـــتي أرسلت فيها بريطانيا قوتها العسكرية لمصر لقمع ثـــورة عـــرابي عـــام ١٨٨٢ ، وحتى هجوم " إيدن " على مصر بـــالتواطؤ مـــع إســـرائيل وفرنسا عام ١٩٥٦ .

السؤال الذي لم يثره أي إعلامي هو : ما هو حق الولايات المتحدة الذي يخولها أن ترسل تلك القوة العسكرية المهولة حول العالم للهجوم على العراق بهذا الأسلوب القاسي ، التبشيري ، الذي لا رحمة فيه ؟

ليس لهذا علاقة على الإطلاق لمعارضة العدوان الذي يشارك فيـــه العرب كثيرون . ما فعله الإجراء الأمريكي على أرض الواقـــع ، هـــو تحول العراق من قضية إقليمية إلى قضية إمبريالية ، خاصة أن الولايات المتحدة لم تبد اهتماما بأعمال عدوان أخرى ، أو بأعمـــال إســـرائيل العدوانية التي تدعمها وتمولها .

تعامل بوش مع صدام وكأنه مـــوبي دك " MOBY DICK " الذي يجب عقابه وتدميره ، ولقد صممت الخطة الحربية لتحقق ذلك، وكأنما قصف الأهالي وإرعابهم لا بد وأن يؤدي إلى انهيار إرادتهم .

كتبت في أماكن أخرى من هذا الكتاب عن هذا الوضع البشع في العالم العربي : في البلاد حليفة الولايات المتحدة ، وفي تلك التي ليست من بين حليفاتها . يوجد الكثير مما يدعو للقلق، ويرجع جميعه ليس إلى

طبيعة العرب والإسلام ، إلى التشويهات السياسية والاجتماعية المحددة التي يمكن التخلص منها بواسطة سياسات إصلاحية شاقة .

فمنذ عقود ، ظلت هناك حرب في أمريكا ضد العرب والإسلام ، صورت أكثر الكاريكاتوريات بشاعة وعنصرية العرب والمسلمين على أنهم إما إرهابيون أو مشايخ نفط ، وأن المنطقة لا تتعدى كونها مزبلة قاحلة لا تصلح سوى للربح أو الحرب .

لم تبرز أبداً فكرة أنه قد يكون تاريخ ، ثقافة ، أو مجتمع بحيث يمكن الاعتقاد أن بإمكانها التحاور أو أن تكون شريكاً ، لقد أغرق السوق بفيضان من الكتب التافهة التي ضمنت رواد حفنة من التنميقات نزعت عن العرب والمسلمين الآدمية ، وكل فيلم حديث عن الفدائيين الأمريكيين يرى " رامبو " العملاق ، أو إحدى القوى الخارقة في مواجهة إرهابيين ، يائسين ، مسلمين / عرب . والآن وكأنما قد خرجت إلى حيز الوجود حاجة شبه ميتافيزيقية لهزيمة العراق ، ليس بسبب ما ارتكبه ، بل لأن دولة صغيرة غير بيضاء قد أثارت حفيظة دولة عظمى مشبعة بحماس لا يمكن إرضاؤه سوى بانصياع المشايخ والطغاة وسائقي الإبل ، أما العرب الذين يلقون القبول حقيقة فهم هؤلاء الذين يبدون وقد تخلصوا تماماً من دواهم القومية ويتم الترحيب بهم نجوماً فلكلورية لعروض الأحاديث talk shows .

قد يكون العرب فقط إحدى النماذج المخفقة للآخرين الذين استثاروا الرجل الأبيض الذي كان نوعٌ من الأنا العليا البيوريتانية التي لا تعرف مهمته في البرية حدوداً ، والذي يذهب لأبعد مدى لتحقيق أهدافه .

إحدى المكونات التي تغيبت بشكل لافت عن أي نقـــاش حـــول الخليج هي تعبير " الإمبريالية " . إلا أنه من الصعوبة بمكانة ألا نتبين في النبرات الأخلاقية الوعظية للقادة الأمريكيين ، وإعلامهـــم المطيـــع ، عظمة التفويض الذاتي للإمبرياليات السابقة ،

وفيما أخذ جرم العراق يتنامى أمام أعيننا ، أضحى صدام هتلـــر ، وسفاح بغداد ، والرجل المجنون الذي لا بد من قمعه .

سادة مقولات مثل : " كل الطرق تؤدي إلى البـــازارات " و" لا يفهم العرب سوى القوة" و "الوحشية والعنف جزء من الثقافة العربية " و " الإسلام دين لا يعرف التسامح " يقوم علـــى العنـــصرية ، ديـــن متعصب ، عصر أوسطي قاس ، وبغير الإمكان الحديث عن أي مجموعة ثقافية أخرى بهذا الأسلوب ، إلا أنه قد تم تحديد بل وتجميـــد ســـياق وإطار وخلفية أية مناقشة لترويج تلك الأفكار .

يبدوا الأمر الآن وأن ثمة نوع من المتعة من توقع أن العرب كمـــا يمثلهم صدام — سيلقون أخيراً جزاءهم ،إذ لا بد من تسوية الحسابات مع الفلسطينيين والقومية العربية والحضارة الإسلامية ، لا بد أيضاً مـــن ذكر أن لدى أعداء الغرب الأقدمين هؤلاء ، قدراً أكبر مـــن الوقاحـــة لدرجة أنهم يعادون إسرائيل .

ظل أسوأ الشركاء في هذه الحملات هم خبراء " العقل العربي " من الأكاديميين المعتادين الذين يمكن دائماً تطويقهم بالاعتماد عليهم من أجل استعراضات فاضحة للخبرة المزيفة ، وتم إعـــداد المـــزاج العـــام لإخراج العراق عن السياق وعزله كي يتم المبالغة في قوته بشكل خيالي ويصنف سكانه في كلمتين يساء نطقهما بشكل روتيني : أي " صدام حسين " ، كما لو أن ما نفعله " نحن " جميعنا هو محاربة شبح أوحـــد

رهيب للشر ، يجعل هذا بوسعنا أن نقصف العراق بدون أدنى وخـز للضمير ، وأن نفعل ذلك حقاً وقد تملكنا حس مرعب بنشوة التقوى

شجع على هذا ، بل دفعإليه الإعلام ، كما لو أنه لا يمكن رؤيـة العراق على الوجه الأكمل إلا من لال مشاهد إحدى طائرات F.15 أو أحد الصواريخ الذكية .

أصبحت الإدارة الحالية التي تشن الحرب لا تـضم أي متخـصص واحد يملك أية معرفة أو خبرة حقيقية للشرق الأوسـط العـربي ، أو بلغاته وشعوبه . هكذا كانت قضية العراق ضد الكويت ، وهي قضية شجعتها وصعدتها بدرجة ما الولايات المتحدة ، كما تشهد على ذلك تسجيلات أحاديث إبريل جليسبي مع صدام في أواخر يوليو من عـام ٢٠٠١ ، هكذا لم تلق من ينصت إليها ، ومن ثم لم يكن ثمة مخـرج إلا الحرب .

إن افتراض أنه يجري تحميل العراق ليس في الحقيقة بسبب عدوانـه على الكويت فقد كان هذا الأمر يمكن الرجوع عنه باستخدام الأنـاة والصبر ، وبإجراءات اقتصادية وسياسية وإيجاد حل لـه بحـدود دول المنطقة ، بل إنه يجري تدمير العراق لأن الولايات المتحدة تريد حضوراً فيزيائياً في الخليج ، ولأنها ترغب في وضع أجندة العالم ، ولأنهـا رأت أن العراق تهدد إسرائيل .

أعرف أن الولاء والوطنية متضمنان في كل هذا ، إلا أنهما لا بد أن يؤسسا على حس نقدي بماهية الوقائع ، وماهية مصالحنا ، وما نـدين به لجيراننا وبقية البشرية من سكان هذا الكوكب المتقلص المستنزف .

لا يمكن السماح للتضامن غير الناقد مع سياسة اللحظة خاصة حينما تكون مكلفة بشكل يفوق القدرة على التخيل ، لا يمكن أن يسمح له أن يسود .

لم يوجه تهديد لوجود أمريكا في الخليج ، و لم يحدث أن هدد وجودها أبداً. لماذا لا نسمع أي نقد للبيانات المثيرة للسخرية من أمثال" علينا قمعه الآن وإلا سيكون هذا شديد الصعوبة فيما بعد " ؟، لماذا لم نسمع أي أحد يقول أن قرارات الأمم المتحدة قد تم التصويت عليها باستخدام القوة والضغط في مجلس الأمن ؟، وأن هذه القرارات لا تذكر أي شيء عن تدمير بلد من أجل تحرير الكويت وإعادة أسرتها الحاكمة إلى العرش ؟ لقد أودعت تلك الأسرة الحاكمة وغيرها من حكام دول الخليج اثنين ونصف تريليون دولار خارج العالم العربي وهي أيضاً لا تحترم حقوق الإنسان أو مصالح شعوبها .

عاصفة الصحراء هي حرب ضد الشعب العراقي ، جهد بقتله وسحقه وجزء من جهد سحق صدام والقضاء عليه إلا أن مشاهد هذا القتل والسحق تحجب عن مشاهدى التليفزيون كأسلوب للمحافظة على صورة الحرب كممارسة غير أليمة للعبة NIN–TENDO، وعلى صورة الرئيس الأمريكي كمحارب فاضل نظيف ، يروج الإعلام لما في ذلك محررو الأعمدة في كبريات الصحف هذه الصورة ، كما لو أن ما تفعله الولايات المتحدة ليس في واقع الأمر هو قصف المدن والقرى العراقية وتسويتها بالأرض في انتهاك لاتفاقيات جنيف ولاهاي وكذلك تدمير موارد المدنيين من الطاقة والمياه وإلحاق كم من الدمار لا يمكن أن نتحقق من مداه .

قد يرى الأمريكيون الذين لا اهتمام لهم بالتاريخ – الأمر بصورة مختلفة حين يعلمون أن آخر مرة دمرت فيها بغداد كانت عام ١٢٥٨على أيدي المغول ، وهذا يمثل سابقة لما نفعله اليوم .

ما هي الأمور الأخرى المتضمنة في الصور التي نتلقاها والتي تهدف إلى التلاعب بنا ؟

بإمكاني القول إن الاستطالة في عرض مشاهد المدن الإسرائيلية التي أصابتها أعداد قليلة من صواريخ سكود ، هو جزء من نفس التشويش، لا يعني هذا أنه لا يجوز عرض هذه المشاهد أو أنني باستطاعتي التغاضي عن هجمات سكود على المدنيين ، بل إنني أؤكد أن من الواجب عرضها وأنني ضد هذه الهجمات، بيد أنه ، لماذا يتاح فقط عرض ما يصيب الغرب وإسرائيل من أذى مع تجاهل الدمار الحقيقي الأكبر سوى الإبقاء على خرافة أن العرب ليسوا متساويين من جانبنا " نحن " وأن حياهم وأحزاهم لا تستحق الاستماع إليها .

كثيراً ما جرى ترديد أن العراق قد استخدم الغازات السامة ضد مواطنيه ، في أفضل الأحوال ووفقاً للمصادر الأمريكية الرسمية ، بدأ هذا أحياناً غير يقيني لا يرتكز على حقيقة أو مبدأ بل على سياسة اللحظة .

هناك على الأقل تقرير واحد من كلية الحرب جرى وضعه حينما كان العراق حليفاً للولايات المتحدة زعم فيه أن استعمال الغازات ضد الأفراد في " حلبجة " ، نفذته إيران . لا يذكر سوى القليلين مثل تلك التقارير ، رغم أن الإشارات إليها تظهر أحياناً في الصحافة البديلة .

أصبح الآن استعمال الغاز ضد مواطنيه حقيقـة عـن صـدام ، تم تضخيمه لدرجة أنه أصبح ضمن البراهين على أن الولايـات المتحـدة عليها تدميره ، وكأنما بتدميره لا يدمر العـراق أيـضاً! ويقتـل ألاف العراقيين ، ويضحى بآلاف من الأمريكيين ، وتخلق أعداد كبيرة مـن المشاكل الجديدة !

افتراضية الأسلوب الذي تم به إعداد للحرب وخوضها ، افتراضـية كلونيالية بأكملها ، أي الافتراض البديهي أنه ليس لدولة مـن العـالم الثالث الحق في مقاومة أمريكا التي هي بيضاء وأكثر سمواً .

أؤكد أن هذه الأفكار لا أخلاقية ومؤذية إلى أبعد مدى وتنطـوي على مفارقة تاريخية زمانية .

فهي لا تجعل الحرب ممكنة فقط بل إنها أيـضاً تمنـع الدبلوماسـية والجهود السياسية من أداء الدور المنوط بها . وحينما يكـشف عـن السجل التاريخي بشكل كلي ، ستتبين ما نعلمه الآن جزئيـاً : أي أن الولايات المتحدة قاومت باضطراد وثبات كل محاولة للتوسط والتسوية والتحكيم وقوضتها . والآن لا يمكن أن يراود أحد أوهـي درجـات الأمل في أن تستجيب الولايات المتحدة لاقتـراح سـوفيتي- عراقـي بالانسحاب .

من ثم يبدو أن الهدف من هذه الهرب هو الحيلولة دون تمتع البلدان الأقل شأناً والشعوب " الرعايا " بالميزات التي نتمتع بها " نحن " .

لو أن الولايات المتحدة اكتسبت ، منذ البداية ، سلطة أخلاقيـة ، بمساندتها التحركات العربية وتحركـات الأمـم المتحـدة ، وتتبـع الاقتراحات العديدة لحل المأزق ، كذلك لو أنه وسعت مـن نطـاق

سيادة قرارات الأمم المتحدة ، وتتبع الاقتراحات العديدة لحل المأزق ، كذلك لو أنها وسعت من نطاق سيادة قرارات الأمم المتحدة لتشمل المنطقة بكاملها ، وليس فقط بلداً واحداً تمت شيطنته وتحقير شأنه ، لو أنها فعلت ذلك ما قامت للحرب قائمة ، ولأصبح باستطاعتنا الحديث عن الحوار والتوافق . كم هو عبثي وكريه قول بوش إن حل القضية الفلسطينية سيكون بمثابة " مكافأة للعدوان " وكأنما عقد مؤتمر للسلام بشأن قضية لا تسبق فقط صدام ، بل بوش نفسه ، يمكن الحديث عنها بهذا الأسلوب الفج ذي الصبغة التهذيبية المتعالية ضيقة الأفق .

لم تبرز تقريباً أية أفكار جدية عن عواقب الحرب: أي الدمار البشري والبيئي والاقتصادي الهائل الذي قدرت تكلفته بالنسبة للعرب بقدر يتخطى كثيراً بالنسبة للعرب بقدر يتخطى كثيراً ٦٢٠ بليون دولار ، وأيضاً تعميق العاطفة الدينية ، وهزيمة العلمانية والحوار والاعتدال، وتدمير العراق وإمكانية تمزيق أوصاله ونهبه ، وبالنسبة للمواطنين : تصاعد التطرف ودعوات الانتقام ، ومزيد من القتل والتدمير ، وتقلقل حكومات كثيرة في المنطقة خاصة الحكومات الحليفة للولايات المتحدة التي تعوزها الشعبية في مصر وسوريا ودول الخليج ، وإطالة أمد الحضور الأمريكي إلا ما لا نهاية ، بحيث يصبح (الاحتلال) إرثاً .

يزيد هذا الاحتلال والقتل والعمالة من التعنت الإسرائيلي الذي سيستخدم لوبياته في الولايات المتحدة لرفض مزيد من التنازلات، وتدمير البيئة والاقتصاد ، والقائمة طويلة .

في عدد الشتاء الماضي من دورية فورين أفيرز ، نشرت مقالة بعنوان " صيف السخط العربي " جاء فيها :

" لم يكد العالم العربي / الإسلامي يودع غضب وانفعال حملة آية الله الخميني " الصليبية " (ضد أمريكا ") إلا وظهر منافس له في بغداد، تكوين المادة التي تشكل القادم الجديد تختلف عن تلك التي شكلت الملخص المعمم من مدينة قم : ليس صدام حسين كاتب أبحاث عن الحكومة الإسلامية ، أو نتاج تعليم رفيع في معاهد اللاهوت . لم يوجه المعارك التي أشهرها إلا عقول وقلوب المؤمنين ، أتى من أرض هشة ، بلد حدودي بين فارس وبلاد العرب ، لا علاقة له بالثقافة والكتب والأفكار العظيمة سوى النزر القليل . المدعى الجديد طاغية لا يعرف الرحمة ، حارس سجن بارع ، قام بتدخين منطقته وجعل منها معتقلاً كبيراً ".

يعرف أي تلميذ أن بغداد لم تكن فقط مركز الحضارة العباسية ، بل إنها كانت أيضاً مركزاً للازدهار الهائل لثقافة العربية فيما بين القرنين التاسع والثاني عشر والتي أنتجت أعمالاً أدبية ما زالت تقرأ حتى الآن . كما تقرأ أعمال شكسبير ودانتي وديكنز .

أما كمدينة ، فبغداد أيضاً إحدى معالم الفن الإسلامي العظيم . كما أن بغداد ، ومعها القاهرة ودمشق ، هي المدينة التي حدث بها إحياء الفن والأدب في القرنين التاسع عشر والعشرين ، وبها ، بلا جدال، أعظم الفنانين والنحاتين. فلأن يقال أنه ليس للعراق علاقة بالكتب والأفكار ، فهذا لا يخرج من كونه فقداناً للذاكرة بمكانة سومر وبابل ونينوى ، وأيضاً مكانة حمورابى والأشوريين ، وكل الآثار العظيمة الخالدة لحضارة ما بين النهري والأشوريين ، وكل الآثار

العظيمة الخالدة لحضارة ما بين النهرين ، بل والعالم ، التي كان العراق مهداً لها ، فما يقال عن العراق من إنه أرض هشة ، بما تنطوي عليه من إيحاء باليباب والخواء ، لا يخرج عن نطاق كونه إظهاراً للجهل الذي ربما يخجل منه تلميذ بالمرحلة الابتدائية . ماذا حدث لدجله والفرات ؟ ماذا عن حقيقة أن العراق ربما كان يفوق بكثير كل بلاد الشرق الأوسط خصباً ؟

يتغنى كاتب المقال بمديح دول الخليج المعاصرة ، التي هي أكثر هشاشة وليسلها سوى القليل من العلاقة والكتب والأفكار والثقافة مقارنة بالعراق في أي وقت من الأوقات . لا أهدف هنا إلى الإقلال إن شأن دولة مثل العربية السعودية التي تملك الكثير إن مما تستطيع الإسهام به . إلا أنني أريد أن أقول ، إن مثل هذه الكتابات وهي تظهر على صفحات إحدى أكثر الشئون الخارجية تأثيرً ، في وقت فيه الولايات المتحدة مستعدة لشن الحرب ، ليس من شأنها تثقيف القرن أو توضيح الأمور بل إنها ليس لها قيمة بيد أن الأكثر أهمية هو أنها تمثل أحد أعراض إرادة المثقف لإرضاء القوة ، لأنه يخبرها بما تريد سماعه ، يسترضيها ، بأن يقول لها ، إن باستطاعته المضي قدماً باتجاه القتل والقصف والتدمير بما أن البلد المستهدف هو ، حقاً ، هش لا علاقة له بالكتب والأفكار والثقافات ، وكما يوحي المقال (دون أن ينص عليه) ، لا علاقة له بالبشر الحقيقيين . هناك فقط طاغية عراقي ، وهو يمثل مرض فتاك بالغ الخطورة يجب استئصاله.

مع مثل هذه المعلومات أي فرصة تتبقى للغفران العفو للإنسانية والنقاش الرحيم ؟

للأسف ، القليل جداً . ثمة دلالات على أنه في جميع أنحاء الـــبلاد وتحت غطاء النشوة المصطنعة التي لفقها الإعلام فالناس غير راضـــين ، والضمائر قلقة والأرواح حزينة كما قال بندة (penda) وليس تجاه تشجيع الانفعالات العاطفية الجامعية ، حينما يسمع المرء فلاسفة مـــن أمثال مايكل وولز ، أو كتاب أعمدة من أمثال أنطوني لويس ، ينادون بأنها " حرب عادلة " رغم إنها تعوزها الحكمة .. يتحقق المـــرء مـــرة أخرى أن الكلمات تمثل أولى الإصابات في أي نزاع " ١٩٠.

٦- مستشرقون ودارسون منصفون :

وإذا كنا قد ذكرنا أن الاستشراق له سقطات وسلبيات كثيرة نتيجة لعوامل من :

- نقص المعلومات وسوء الفهم .
- الافتقار للدراسة القريبة والدقيقة .
- ترديد المقولات والمغالطات وريثة حقب الصدام .
- أو تبرير لسياسات استعمارية .
- أو حتى التعصب والتحامل .

بالرغم من هذا فإننا لم نعدم عبر تاريخ حركة الاستشراق — دارسين ومؤرخين غربيين — أنصفوا الإسلام وأظهروا احتراماً للمجتمع المسلم، كما أبدوا تقديراً وامتناناً كبيرين للحضارة العربية الإسلامية وأبـــرزو عطائها الغزير والمؤثر لحضارات العالم قديمها وحديثها.

نذكر من هؤلاء المنصفين :

– المستشرق الهولندي " أدريان ريلان " صاحب كتاب " الديانة المحمدية " الذي جاء ذكره في كتاب" دفاع عن حياة النبي محمد " للدكتور عبد الرحمن بدوي وهذا الكتاب صدر . عام ١٧٠٥م في جزأين ، عرض في أولهما العقيدة الإسلامية معتمداً على مصادر بالعربية واللاتينية ، وفي الجزء الثاني قام بتصحيح الآراء الغربية التي كانت سائدة حينذاك عن تعاليم الإسلام ، وقد أثار الكتاب اهتماماً عظيماً لدرجة أدت إلى إثارة الشبهات حول المؤلف باتهامه بأنه يريد القيام بعمل دعائي للإسلام ، في حين أنه لم يكن يقصد إلا إلى فهم الدين الإسلامي فهماً صحيحاً .

– يقول ريلاند : " إن المرء يصح له حقاً أن يبحث عن الحقيقة حيثما كانت " ولهذا يريد أن يعرض الإسلام لا كما يظهر من خلال ضباب الجهل وخبث الناس ، وإنما كما يدرس حقيقة في مساجد المسلمين ومدارسهم . فلم يحدث أن تعرض دين من الأديان في هذا العالم في أي عصر من الصور إلى مثل ما تعرض له الإسلام من جانب خصومه من الاحتقار والتشويه والوصف بكل أوصاف السوء ، ويضيف ريلا ند " ينبغي على المرء بدلاً من ذلك أن يتعلم اللغة العربية، كما ينبغي على المرء أن يقتني الكتب العربية وأن يرى بعينيه هو وليس بعيون الآخرين " ٢٠.

– ونذكر من المستشرقين المنصفين " جوستاف لوبون " صاحب حضارة " العرب الذي أخرجه سنة ١٨٨٤م .

يقول الأستاذ عادل زعيتر مترجم الكتاب :

" كان من نتائج اصطراع الشرق والغرب منذ قرون مضت وإلقاء العرب الرعب في قلوب الأوربيين ، أن صار الأوربيون يشعرون بمذلة

الخضوع للحضارة العربية التي لم يتحرروا من سلطتها إلا منذ قريب ، فأخذوا ينكرون فضل العرب على أوربا وتمدينهم لها ، وأصبح هذا الإنكار من تقاليد مؤرخي أوربا وكتابها الذين لم يقروا لغير اليونان والرومان بتمدينها ، وقد ساعدهم على هذا ما عليه العرب والمسلمون من التأخر في الزمن الأخير ، فلم يشاءوا أن يروا للعرب رقياً تاريخياً أعظم مما هم عليه الآن غير ناظرين إلى أن نجم حضارة العرب أفل منذ أجيال ، وأنه لا يصح اتخاذ الحال دليلاً على الماضي وقد راع هذا الجحود العلامة الفرنسي جوستاف لوبون وهو الذي هدته رحلاته في العالم الإسلامي ومباحثه الاجتماعية إلى أن العرب هم الذين مدنوا أوربا ، فرأى أن يبعث عصر العرب الذهبي من مرقده وأن يبديه للعالم في صورته الحقيقية ما استطاع "٢١*

ويورد المترجم ما يبدو من إنصاف العلامة " لوبون " في بيان أسباب انتشار الإسلام بقوله بأن وضوح الإسلام من أسباب انتشاره ، وأن وضوحه هذا مشتق من قوله بالتوحيد الخالص الذي فيه سر قوته ومن أسباب انتشار الإسلام أيضاً ، كما بين " لوبون" ما أمر به من العدل والإحسان وما انطوى عليه من التهذيب والتسامح والملائمة لمناحى العلم واكتشافاته . ويرد على تلك الفرية التي زعمت انتشار الإسلام بقوله : " إن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن ما ترك العرب – المغلوبين أحراراً في أديانهم ، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية واتخذوا العربية لغة لهم فذاك لما رأوه من عدل العرب الغالبين مما لم يروا من سادتهم السابقين ، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل " ٢٢*

وقد أفاض العلامة لوبون في إيضاح تمدين العرب لأوربا ، وانتهى إلى ما يأتي :

" إنه كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم في العالم ، وإن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم ، والعرب هم الذين هذبوا بتأثيرهم ، الخلقي البرابرة الذين قضوا على دولة الرومان ، والعرب هم الذين فتحوا لأوربا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية ، فكانوا ممدنين لنا وأئمة لنا ستة قرون .. وظلت ترجمات كتب العرب ، ولا سيما الكتب العلمية مصدراً وحيداً ، تقريباً للتدريس في جامعات أوربا خمسة قرون أو ستة قرون .. وإذا كانت هناك أمة تقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة .. فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبديا " ٢٣٠

ونذكر من المؤرخين الأوربيين المنصفين المؤرخ الشهير " ويل ديورانت " صاحب السفر الضخم " قصة الحضارة " ١٩٣٥م الذي قام بترجمته الأستاذ محمد بدران ود . زكي نجيب محمود وفي هذا الكتاب الذي بلغ عشرين جزءاً ، خصص " ديورانت " للحديث عن دولة العرب وحضارة المسلمين جزءاً كاملاً تناول فيه نشأة المجتمع الإسلامي ومقوماته وتطوره وقيام الحضارة العربية الإسلامية وانتشارها وأثرها الواسع على كل من الشرق والغرب وتحدث عن أهم إنجازات علماء المسلمين وأدبائهم وفلاسفتهم وفنانيهم في ميادين العلوم والأدب والشعر والنثر والفلسفة والفنون والتشييد والعمارة ، ومما ذكر عن اهتمام المسلمين الشديد بالكتب والحرص على إخراجها إخراجاً فنياً مبدعاً ، قوله : " والكثرة الغالبة من الكتب الإسلامية التي وصلت

إلينا من العصور الوسطى مكتوبة بخط النسخ ، ومعظم هذه من المصاحف ، لإن كتابة القرآن كانت في حد ذاتها من الأعمال الصالحة، وكان تزيينها بالصور يعد انتهاكاً لحرمتها ، ولكن كتابتها بالخط الجميل كانت تعد من أشرف الفنون وبينما كان رسامو الصور الصغيرة على العاج أو غيره يستأجرون بأجر قليل ، كان الخطاطون يبحث عنهم في جميع أنحاء البلاد ويغدق عليهم الملوك والأمراء الهدايا والأموال ، وكان منهم هم أنفسهم ملوك وساسة . وتعد الرقعة المكتوبة بيد أحد هؤلاء الفنانين كنزاً لا يقدر بمال ، ومنذ القرن العاشر كان في البلاد طائفة من المولعين بجمع الكتب يعيشون ويتحركون ويقضون حياتهم كلها بين ما جمعوه من المخطوطات الجميلة المكتوبة على الرق بالمداد الأسود والأزرق والبنفسجي والأحمر ، وبالذهب الإبريز ، ولم يصل إلينا إلا عدد قليل من كتب ذلك العصر وأقدمها كلها نسخة من القرآن موجودة في دار الكتب المصرية بالقاهرة ، يرجع تاريخها إلى عام ٧٨٤م . وإذا ذكرنا بعد ذلك أن هذه الكتب كانت تجلد بأعظم أنواع الجلد ليناً ومتانة ، وأنه قد بذل في تجليدها من حسن الذوق والمهارة ما لا زيادة بعده مستزيد ، وأن الجلد المغلفة به، كان في كثير من الأحيان يزدان بأجمل الرسوم وأدقها ،إذا ذكرنا هذا ، يحق لنا أن نقول دون أن نتهم بالضلالة، إن الكتب الإسلامية من بداية القرن التاسع إلى القرن الثاني عشر هي أجمل ما رأته العين من الكتب في العالم كله ، وهل منا من يطمع في أن تنشر كتبه اليوم بهذا الرونق وتلك الفخامة "٢٤٠

وفي إطار المستشرقين الذين درسوا الشرق عن عمق وفهم وقادهم فهمهم العميق ودرسهم الطويل فيه ،إلى الإعجاب والتأثر ، ومن ثم

الإشادة والعشق ، نذكر المستشرقة الألمانية (آنـا مـاري شـيمل) ١٩٢٢-٢٠٠٣م ، وقد كانت هذه المستشرقة دائماً موضوعية محبـة للإسلام والمسلمين ، وكانت نموذجاً للمستشرق الذي لا يحمل عليهم، ولا يحرف النصوص لينال منهم أو يسيء إليهم ، بل دافعت عنـهم أمام من يتناولهم بغير ما تحب أو يحبون ، ولقد بدأت أنا ماري دراسة اللغة العربية في سن مبكرة ، وتعرفت المصادر العربية وأصول الحضارة الإسلامية وكانت تعد عميدة للمستشرقات الألمانيات وهي من الخبراء الأوائل في الدراسات الصوفية الإسلامية ، كما كانـت ذات خـبرة واسعة في الفن الإسلامي وفن الخط العربي وتتبين خبرتها وقدرتها علـى فهم الشعر الإسلامي فيما قامت به من ترجمات للشعر الفارسي والشعر العربي وشعر اللغات الإسلامية الأخرى التي تربو كتبها فيها على مائـة كتاب ولقد كانت تحظى بتقدير العالم الإسلامي أكثر من غيرها مـن المستشرقين ،إذ كانت وحدها تمثل جسراً بـين الثقافـة الإسـلامية والحضارة الغربية ، ومما يذكر لها ويرفع مـن قـدرها عنـد العـالم الإسلامي هجومها على سلمان رشدي عند صدور كتابـه " آيـات شيطانية " ووصفته بالإلحاد ، وأيدت ما قرره الخوميني من إهدار دمه، وكتبت أنه لم يكن من المفروض أن ينشر كتابه ، لأنه يؤذي مـشاعر المسلمين ، ولا يصح أساساً أن ينتقد شريعة أو عقيدة سواء نقداً مباشراً وفي أي صورة بلاغية أو فنية .

وتساءلت فهل يمكن أن يفعل ذلك ببعض آيات الإنجيـل ؟ وهـل كان العالم الغربي يسمح له بذلك؟

ولقد توزعت اهتمامات أنا ماري شـيمل في مجـال الدراسـات الإسلامية عن ثلاث مجموعات من الموضوعات :

التصوف ، التعريف بالإسلام ، الدراسات الإسلامية المتخصصة ، ولعل من المفيد لنتبين موقفها من العرب ومن المسلمين – أن نذكر ما كتبته في مقدمة أحد الكتب الذي نشرته لأحد أعمال (ريكـرت) ، فلاهتمامها بالشاعر المستشرق فريد رش ريكرت (١٧٨٨-١٨٦٦)، أصدرت عن دار كارل شيتمان بمدينة بريمن عام ١٩٦٣، كتابـاً لـه بعنوان " أشعار شرقية " بمناسبة مروره ١٧ عاماً على مـيلاد الـشاعر المبدع واللغوي الضليع فريدرش ريكرت الذي مازال معروفـاً لـدى المتكلمين بالألمانية بأشعاره الغنائية ، وإن كان معظمهم لا يعرف أنـه قام بترجمة الكثير من روائع الآداب الشرقية إلى اللغة الألمانية ، وكـان أميناً في ترجمته محافظاً على نقل النص – معنى ومـبنى – إلى القـارئ الألماني ، وكان أميناً في ترجمته محافظاً على نقل النص – معنى ومبنى – إلى القارئ الألماني ، الأمر الذي جعله ينشغل كثيراً بفن القول الشرقي ويعجب به ، فيحاول أن يبتدع قوالب وأوزان جديدة للشعر الألماني، وما يقوم بترجمته من أشعار . وقد قدمت دكتورة أنا شـيمل لهـذه المجموعة بمقدمة طويلة تقع في . ٤ صفحة تحدثت فيها عن الأحداث التاريخية التي اتصل فيها الشرق الأدبي بالغرب ، وكيف أن الحـروب الصليبية التي اندلعت عام ١٠٩٥ ساهمت في إعطاء الأوربـيين فكـرة صحيحة عن الإسلام الذى سمعوا عنه في بلادهـم ورأوا عـن قـرب المسلمين وخلق المحارب المسلم الذى أصبح صلاح الدين الأيوبي مثـالاً نموذجاً له عندهم ، ومن ثم أصبح الأدباء يكثرون من الكتابـة عـن الشرق متأثرين به "٢٥"

والحديث عن أنا ماري شيمل ، يذكرنا بدراسة ألمانية أخرى أشادت بالمسلمين وحضارتهم وهي المستشرق الألمانية المعاصرة " زيجرد هونكه " في كتابها الشهير " شمس الله تسطع على الغرب " ، أيضاً في كتابها ، " الله مختلف تماماً عما يصفون ".

ونذكر أيضاً أستاذة الأديان المقارنة " كارين آرمسترونج " صاحبة الكتاب الضخم " الحرب المقدسة : تأثير الحروب الصليبية في عالم اليوم " والذي أوردنا مقتطفاً من فصله الأول عند تناولنا لمنابع الكراهية وجذور الصورة الشوهاء في الغرب ولها أيضاً " معارك من أجل الإله " ، " القدس مدينة واحدة وعقائد ثلاث " ، و" سيرة الرسول ".

كتبت كارين آرمسترونج في الذكرى الأولى لأحداث سبتمبر تحت عنوان " رؤيا سبتمبر من؟ لماذا ؟ ماذا بعد ؟ ":

ثمة مشاعر مريرة ضد أمريكا تنتشر في أنحاء العالم الإسلامي حتى بين رجال الأعمال والمهنيين والبرجماتيين ذوى التعليم الراقي الإسلامي والذين قد يدينون تلك البشاعات ويشعرون بالتعاطف مع الضحايا رغم استيائهم من أساليب الغرب في بلادهم .

يؤدي هذا المناخ بدرجة كبيرة إلى التطرف ، خاصة وقد رأى الإرهابيون المحتملون الكوارث التي بالإمكان إنجازها باستعمال أبسط الأسلحة فحتى لو نجح الرئيس بوش في القضاء على الخطر الذي يمثله بن لادن وشبكته فسينهض مئات من الإرهابيين ليحلوا محلهم ، إلا إذا عالج الغرب السبب الجذري لتلك الكراهية .

يجب أن تكون هذه المهنة جزءاً أساسياً من الحرب ضد الإرهاب ، وهذه عملية أليمة كما نعرف نحن البريطانيين ، فكلما فجــر رجــال جيش التحرير الأيرلندي قنبلة في لندن أو مانشــستر زاد إدراكنـا أن سلوك انجلترا في ايرلندا مسئول لدرجة كبيرة عن هذا .

وقد ظل هذا الاعتراف الشائع عنصراً أساسياً في عملية الســلام في أيرلندا الشمالية " ٢٦*

إذن العنصر الأساسي في معالجة التطرف والإرهاب إنما هو التصدي لأسبابه الجذرية كما تذهب كارين أرمسترونج . وفي نفــس المقــال توصل أرمسترونج لشعور المسلمين بالنفور تجاه الغرب عامة والولايات المتحدة خاصة برؤية تاريخية إنسانية وتشير إلى تراكمات مــن بــذور العداء زرعها الغرب في بلدان الشرق حتى وصل الأمر إلى انفجار ١١ سبتمبر .

– فهي تتناول حاجة اقتصاديات الغرب إلى أسواق جديدة مستديمة بعد نهضته في القرن التاسع عشر ومن ثم بداية الحقبة الاستعمارية .

– ثم بعد خروج الاستعمار يلجأ الغرب لتدعيم الأنظمة الاستبدادية مثلما حدث مع شاه إيران وإعادته إلى عرشه بواسطة انقلاب دبرتــه المخابرات الأمريكية والبريطانية عام ١٩٥٣وتتساءل بدهــشة كيــف يمكن لرجال الدين المسلمين أن يفهموا أن رئيساً عميق التدين وشديد الولع بحقوق الإنسان كالرئيس الأمريكي كارتر – أن يدعم الشاه بعد مذبحة ميدان " توده " عام ١٩٧٨ حينما قتلت قواتــه حــوالي ٩٠٠ إيراني ! كذلك تعجب لأمر صدام حسين الذي صار حماية أمريكيــة منذ عام ١٩٧٥م وكيف سمحت له الولايات المتحدة حرفياً أن يفلــت من أعمال قتل ارتكبها وحتى بعد هجوم علــى الأكــراد بالأســلحة

الكيماوية ! وتنبه أنه لم يستثر عداوة أمريكا وحلفائها إلا بعد غـــزوه للكويت وتعلق بقولها : إن الكثير من المسلمين يستاءون من اســـتمرار أمريكا في مساندة الحكام الذين تكرههم شعوبهم .

– وتضيف الدارسة في مقالها إلى ما سبق : ذكره أســـباباً أخـــرى منها: خلق إسرائيل، الحليف الدائم للولايـــات المتحـــدة في الـــشرق الأوسط وتقول : إنه في ظل هذا الإحباط اتجه كثيرون إلى الإســـلام ، فقد بدا لهم أن الأيديولوجيات القومية والعلمانية التي أتتهم من الغرب قد أفشلتهم ومن ثم ظهرت الحركات الأصولية .

– وتقول إن الأصولية ظاهرة معقدة ولا تقتصر بأي حـــال علـــى العالم الإسلامي فخلال القرن العشرين طورت جميع الأديان الرئيـــسية مثل هذه العقائد القتالية وترجع أول حركة أصولية في القرن العـــشرين إلى منعطف ذلك القرن في الولايات المتحدة فيما يـــسمى بالتيـــارات المضادة للحداثة وتتناول الكاتبة نشأة تنظيم القاعدة ودور أسامه بـــن لادن وتنتهي إلى أحداث ١١ سبتمبر وتقول : " هذه الإحداث مهمـــا بلغ شرها كانت رؤيوية كاشفة . وتعني هذه الكلمات حرفياً كـــشف المستور ، فقد عرفنا حقيقة لم نرها بوضوح من قبل ، جزء من هـــذه الحقيقة هو حنق المسلمين . إن العالم الأول ظل يحاول إبعاد

" الآخر" ، إلا أن كشف سبتمبر أوضح أنه لا يمكن فعـــل هـــذا ، فهذا العالم سيأتي إلينا بأساليب صادمة ساحقة إذ نحن تجاهلنا محنته "٢٧"

وفي نفس هذا ، الإطار من الـــدرس المتـــزن والنظـــرة المنـــصفة والاتجاهات الغربية الجادة لفهم الإسلام . في الغرب ، نذكر مثالاً أخيراً هو صدور كتاب "عوالم الإسلام " في ألمانيا، وقد أشرف على إصداره الأستاذ " جرنوت روتر " وهو أحد خبراء الشئون الإســـلامية وقـــد

استكتب تسعة وعشرين من علماء الإسلاميات في ألمانيا وخارجها في محاولة جادة لمواجهة التصورات غير العلمية التي يبثها خبراء مزعومون عن القضايا الإسلامية عبر وسائل الإعلام .

وتتناول البحوث المنشورة في هذا الكتاب عدداً كبيراً من الموضوعات المطروحة على الساحة الإعلامية حول الشئون الإسلامية مثل قضايا الجهاد والأصولية ، الديمقراطية ، المرأة ، الخوف من الإسلام، الإسلام السياسي ، القومية العربية ، الوحدة الإسلامية الأقليات الإسلامية في أوربا ، ويهدف الكتاب إلى تنبيه الغرب بأن عليه أن يتوقف على أن يجعل العالم الإسلامي شيطاناً مخيفاً ، وبدلاً من ذلك ينبغي أن يكون هناك موقف متفهم ومتسامح إزاء العالم الإسلامي الذي يعد أقرب الدوائر الحضارية إلى أوربا .

ويلفت الكتاب الأنظار إلى أن العالم الإسلامي يشتمل على الكثير من الظواهر التعددية الحضارية والتاريخية والسياسية ، ويوجه نقداً حاداً بكتاب الدعايات في وسائل الإعلام الغربية الذين ينشرون تصورات خاطئة عن الإسلام بعيدة كل البعد عن الأمانة العلمية والضمير الأخلاقي . ولكن الكتاب يشير في المقابل أيضاً إلى مقارنة ذلك بالأحكام المسبقة والتعميمات الخاطئة عن العالم المسيحي من جانب العالم الإسلامي والتي تتجاهل بدورها الكثرة الكاثرة من الظواهر التعددية في العالم الغربي ويرى الكتاب ضرورة المحافظة على القدرة على حوار مبني على أساس متين مع العالم الإسلامي ويقتبس في هذا الصدد ما قاله في نهاية القرن الثامن عشر فيلسوف الحضارة الألماني المعروف يوهان جوتوفريد هيردر :

"إن على المرء أن يفهم كل حضارة من داخلها ولا يجوز له أن يعتبر مجتمعه الذي ينظر إليه نظرة مثالية على أنه هدف التطور وغايته".

ويشير الكتاب في هذا الصدد إلى أن التصوير المشوه للحضارات الأخرى يجعل من المستحيل الحصول على صورة حقيقية ، ويؤدي بالتالي إلى استحالة الوصول إلى حل حقيقي للمشكلات القائمة ، بل يضيف إليها مشكلات جديدة . وهكذا فإنه إذا كان خوف الغرب من الأصولية الإسلامية لا أساس له ، فإنه ليس هناك أيضاً مبرر لما ينتشر في العالم الإسلامي من أحكام تعميمية عن عداوة الغرب للإسلام . فهناك في الغرب جهود جادة كثيرة تسعى للحصول على فهم حقيقي للعالم الإسلامي .

ويصف الكتاب الحضارة التي نشأت في ظل الإسلام بأنها "تعد واحدة من الأعمال الإبداعية الجبارة في تاريخ الإنسانية " . وقد استفادت أوربا في العصر الوسيط الكثير من هذه الحضارات إلا أنها للأسف – كما يقول الكتاب ، لم تعترف للحضارة الإسلامية بهذا الجميل .

والكتاب إذ يؤكد على ضرورة استمرار الحوار بين الغرب والعالم الإسلامي ، فإنه يرى من جانب أخر أن التصورات المشوهة التي تكونها كل حضارة من الحضارتين عن الأخرى ، تهدد قضية الحوار تهديداً بالغاً .

فأوربا التي اقتبست الكثير من الحضارة الإسلامية قد ردت على هذا الجميل بالنكران . وينتقد الكتاب هذا الموقف المتناقض ، إذ كيف يأخذ المرء من ناحية الإنجازات العلمية لحضارة من الحضارات ، ومن ناحية أخرى يصف هذه الحضارة بأنها حضارة الشيطان !؟ .

إن هذا السؤال يتحتم علينا اليوم –نحن الغــربيين – أن نوجهــه لأنفسنا أيضاً ولكن النقد لا يوجه لطبيعة الحال إلى جانــب واحــد . فهناك اهامات متبادلة ، ولهذا نجد هجوماً عن الشرارة الغربية يأتي من جانب تيارات معينة للعالم الإسلامي .

ويتحدث الكتاب عن نشأة صورة العدو الممثل في الإسلام في أوربا في العصور الوسطى . فقد حدث حين ذاك أن قام الأوربيون بتصنيف العرب والمسلمين بطريقة عنصرية لا تمت إلى المسيحية بصلة ، على أهم بشر من الدرجة الثانية لنهم ينحدرون من أم كانت جارية لإبــراهيم عليه السلام ، وهي هاجر ، في حين أن الأوربيين ينحــدرون مــن أم كانت سيدة من الحرائر وهي سارة زوجة إبراهيم .

ويشير الكتاب فضلاً عن ذلك إلى أن الحروب التي قادها أوربــا في العصور الوسطى ضد بلاد المشرق العربي ونجحت في مزاحمة المسلمين في سيادهم على حوض البحر المتوسط ، كانت حروبــاً ذات دوافــع كنسية أكثر منها الدوافع المسيحية ، ولكن الأصوات المحاربــة الــتي كانت ترفع شعار " التعميد أو القتل " لم تكن هي وحدها صاحبة اليد الطولى في المجتمع الأوربي ، فقد كانت هناك أيــضاً بجانــب ذلــك شخصيات معتدلة تدعو إلى التعقل ، ومن بين هذه الشخصيات ، على سبيل المثال – الشاعر فولفرام فون اشنباخ ١١٧٠-١٢٢٠م، الــذي كان ينادي بأن جميع البشر مخلقون لله ومن قبل ذلك كان حذر مــن ذبح المسلمين كالحيوانات ، وفي الوقت الذي كانت تسود فيه النظــرة العدائية للإسلام في أوربا في العصور الوسطى ، كانت أوربا على الرغم من ذلك تتعامل العالم الإسلامي سياسياً واقتصادياً ، كما كــان مــن للمقر البابوي أيضاً صلات مع المسلمين ، ومما هو جدير بالملاحظة أن

الصورة السلبية للإسلام في العصر الوسيط في أوربا ، قد رسمها أناس لا يعرفون شيئاً عن عالم الإسلام لا عن طريق خبراقم الخاصة ، ولا عن طريق دراسة علمية موضوعية .

وفي مقابل هذه الصورة يتحدث الكتاب عن نشأة صورة العدو الممثل للغرب في العالم الإسلامي ، وهي صورة تعد نسبياً ذات تاريخ قريب .

وفي حين أنه قد نظر إلى الحروب الصليبية وتقتيل المسلمين بواسطة محاكم التفتيش في أسبانيا على أن ذلك كله كان يمثل عملاً من أعمال جماعات بربرية جاهلة ، فإن الشعوب في العالم العربي بالخوف من قمديد الغرب للهوية الحضارية العربية لقرن التاسع عشر لم يكن شعوراً لا عقلياً أو مجرد إحساس بالاضطهاد ، بل كان نتيجة لخبرات تاريخية ثابتة خاضعة لشرق العربي مع الغرب في القرنيين الأخيرين .

ومنذ حملة نابليون على مصر لم يتوقف " العدوان العسكري والتزعة التوسعية على المستوى الحضاري والاقتصادي " وقد فسر الجانب الإسلامي التدخل الأوروبي القوي في شمال أفريقيا ، وفي المشرق العربي بأنه هجوم متعمد ضد الإسلام .

ولكن كما أن الصورة الغربية للعدو الممثل في الإسلام تقوم على أساس تعميمات خاطئة ، فكذلك نجد الصورة المشوهة التي يرسمها المؤلفون المسلمون عن الغرب تقوم في الغالب على تعميمات خاطئة أيضاً . فالمسؤولية عن الأخطاء وسوء الفهم مسئولية مشتركة يتحملها الجانبان.

وفي فصلين من فصول الكتاب يدور البحث حول **إنجازات الحضارة الإسلامية** في مجال العلم الطبيعي وكذلك **حول صورة الإسلام لدى الألمان** .

وبعد :

فيتضح لنا من هذا العرض الموجز لأهم ما جاء في كتاب (عوالم الإسلام) أن مؤلفي الكتاب قد بذلوا محاولة علمية جادة يقصد من ورائها إعادة النظر في الكثير من الأحكام المسبقة والمفاهيم المغلوطة المنتشرة في الغرب عن الإسلام والعام الإسلامي .

ونحن إذ نحيي هذه المحاولة من جانب هؤلاء العلماء فإننا نأمل أن يأتي اليوم الذي تحظى فيه مثل هذه المحاولات الجادة بما تستحقه من اهتمام وتقدير في العالم الغربي حتى ينتصر الفهم السديد للإسلام في الغرب على النظرة السقيمة ، وتتغلب الموضوعية في البحث على الغوغائية الإعلامية التي لا هم لها من وراء التشويه المتعمد للإسلام إلا ترسيخ الكراهية والعداء بين الإسلام والغرب . ٢٨*

وإذا كان كتاب " عوالم الإسلام " وهو كتاب حديث نسبياً إذ طرح مع أول الألفية الثالثة ودعا إلى وجوب تهيئة وإيجاد موقف متفهم ومتسامح إزاء العالم الإسلامي ، فإن مستشرقاً شهيراً مثل " مونتجمري وات " ومنذ ستينيات القرن الماضي قد دعا هو أيضاً إلى تبني مثل هذا الموقف حين قال :

" لقد أصبح العالم كله موحدا ثقافياً على المستوى المادي بفعل التقدم العلمي والتكنولوجي ، إلا أن العالم – على أية حال – مازال

متعدداً على أساس النطاقات الثقافية الدينية الكبرى. The great religion – cultrures التي قامت في الماضي والمناطق الثقافية الملحقة أو المتصلة بها طالما أنها لن تتأثر التأثر الكافي بالتوحد الذي جلبته الحضارة المادية .

وعلى العكس لقد شهد العالم ما يعرف بالصحوة بين الأديان العالمية ، رغم أنه يمكن أن يقال من وجهة نظر نمو وازدهار العقلية العلمية ، أن الأديان بدأت تكف عن توجيه الثقافات المرتبطة بها ، فالعالم كله يواجه المشكلات نفسها ، ولكن المناطق الثقافية المرتبطة بالمسيحية والإسلام مشتركة معاً في تراث مادي حديث يربطهما معاً ، وليس هذا فحسب ، بل إن المسيحية والإسلام هما ورثة الثقافات المتمازجة للإمبراطورية الرومانية ، فرغم أن اليهودية تشكل عنصراً في الثقافة المسيحية ، إلا أن هذا العنصر أقرب ما يكون إلى الثقافة الشرقية oriental في الإمبراطورية الرومانية ، بينما استعارت الثقافة الإسلامية كثيراً من المنطق اليوناني ، والميتافيزيقا والعلوم اليونانية ، وبتوالي القرون أصبحت ثقافات الدولة المسيحية christiandom، ودار الإسلام ، قد تجانست إلى حد ما ، بحكم وجود أصل مشترك لهما ، ومع هذا فقد اتسعت الشقة بينهما ، وقد نشأ عن هذه الصلة أو هذه القرابة بين المسيحية والإسلام – قضايا معينة ، فمن ناحية نجدها عاملاً معيناً على الفهم المتبادل ، ولكن من ناحية أخرى ، نجد أن الصلات بين الدينيين خلال مرحلة التكوين الباكرة ، قد هيأت لكل دين مجموعة دفاعات عقلية قوية ضد الدين الآخر ، وقد أدت هذه

العلاقة المركبة التي تحوي في طياتها الألفة والعداء ، والتآلف والصراع إلى أن يصبح الحوار بين المسيحية والإسلام مسألة لها ضرورة خاصة وإلحاح لا فكاك منه ." ٢٩٠

وقبل أن أنهي حديثي عن بعض الكتابات المنصفة عن الإسلام والمسلمين أود أن أشير إلى كاتبين غربيين أشادا بنبي الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم واعتبراه على رأس العظماء والخالدين وهما العالم الأمريكي " مايكل هارت " ، و العالم " توماس كالاريل ". بالإضافة إلى أن كتابيهما يمثلان أمثلة للحوار الحضاري وتبادل الفهم الإيجابي بين العالمين الغربي والإسلامي .

أما كتاب : " توماس كالاريل " وهو بعنوان " الأبطال وعبادة البطل " ، فقد خرج بدايتاً في صورة محاضرات ألقاها في بداية العقد الرابع من القرن التاسع عشر وبالتحديد عام ١٨٤٠.

وأما كتاب " مايكل هارت " فهو بعنوان " العظماء مائة وأولهم محمد " وهذا الكتاب ألفه صاحبه في منتصف ثمانينيات القرن الماضي ، وقد أتت مداخلات الداعية الإسلامي الكبير الشيخ أحمد ديدات ، وتعليقاته على الكتابين وإضافاته لهما لتعطي أمثلة إيجابية لما يمكن أن يكون عليه الحوار الحضاري المثمر ، والفهم الإيجابي المتبادل ولقد أصدر الأستاذ علي الجوهري ترجمة هذه النصوص والتعليقات في طبعة أولى عن دار " مكتبة القرآن للطبع والنشر " ، عام ٢٠٠٢ ثم صدرت مرة أخرى في طبعة شعبية عام ٢٠٠٥ عن مشروع مكتبة الأسرة .

يقول الأستاذ علي الجوهري في مقدمة هذه الطبعة الثانية :

يضم هذا الكتاب بين دفتيه ترجمة الفصل الأول من كتاب مايكل هارت المعنون بعنوان " العظماء مائة أولهم محمد صلى الله عليه وسلم " ، وكذلك ترجمة كتاب العلامة الشيخ أحمد ديدات المعنون بعنوان محمد صلى الله عليه وسلم أعظم العظماء في العالم ، ويضيف المترجم:

وإذا كان خصوم الإسلام قد كالوا الاتهامات الزائفة الكاذبة إلى الإسلام وإلى نبي الإسلام عليه السلام — إلى حد أن كتب محررو دائرة المعارف الفرنسية " لاروس " ، عن محمد صلى الله عليه وسلم قولهم : " بقى محمد مع ذلك ساحراً ممعناً في فساد الخلق ، لص نياق ، كردينالا لم ينجح في الوصول إلى كرسي البابابوية فاخترع ديناً جديداً لينتقم من زملائه ". ، وإذا كان خصوم الإسلام قد حاولوا صد أتباعهم عن التحول إلى اعتناق دين الإسلام لأنه دين الحق بكل بساطة وكل وضوح — بمثل هذه الأكاذيب والأباطيل — فلقد قيض الله للإسلام ولنبي الإسلام عليه السلام — من الكتاب وقادة الفكر شرقاً وغرباً ، من يدافع عن الإسلام وعن نبي الإسلام عليه السلام ، ويدفع عنه هذه التهم والأباطيل الزائفة .

والفصل الأول من كتاب مايكل هارت يجعل نبي الإسلام — عليه السلام — أعظم العظماء دون منازع . ولا يقف الشيخ أحمد ديدات عند وقائع السيرة النبوية الشريفة لكي يسردها مجرد سرد، بل إنه يتأمل بعض الوقائع المعينة ليستخلص منها مجالي عظمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأسلوبه السلس البليغ باللغة الإنجليزية التي يتكلمها ثلثا سكان العالم ، مع المقارنة بين عظمة نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم والأنبياء الآخرين عليهم السلام .٣٠

٧- خطوات على طريق تصحيح المفاهيم وتعديل الخطابات :

إن أمثال ما عرضنا نماذج منه ، من أقوال أو آراء أو تعليقات لمجموعة من الدارسين الغربيين عن الإسلام من منطلق منصف وموضوعي، لهي خطوة من خطوات كثيرة مأمولة في التقريب وبناء جسور للتواصل ، ومحاولات لتمهيد أرضيات مشتركة ، وإبراز قواسم متبادلة لدى العالمين ، الغربي والإسلامي ، وذلك بغية إقامة صرح مستقبلي للمداخلة و التفاهم والحوار ، وهو أمر هام لمواصلة الحوار الحضاري ، والعطاء الإنساني لتجنيب البشرية مزيداً من الآلآم والصراعات ، ووضع حد للتنابذ والتناحر والحروب .

وإذا كان الاستشراق ، الممثل الأكاديمي والثقافي للفكر الغربي ، قد بدأ منذ أكثر من قرن من الزمان – يتخفف من نزعة التعصب والتحامل ، وآثار الفكر اللاهوتي والمجادلات العقيمة في العصر الوسيط، وطرأ عليه أيضاً ما يشبه الهزة الكبيرة لمنطلقاته ومناهجه بعد الانقلاب الكبير الذي أحدثه إدوارد سعيد في الثلث الأخير من القرن العشرين – فإنا نعتبر ذلك أيضاً خطوة داعمة في هذا المجال ، ويبقى أمام العالمين كليهما خطوات كثيرة أخرى ، وجهود مخلصة تبذل من أجل ترسيخ مفاهيم التعايش والتفاهم ، وتعميق سبل التواصل واللقاء ، بل التعاون الإيجابي المثمر .

وإذا كان هناك ثمة جهود تبذل في الغرب من قبل بعض الدارسين والمتخصصين ، وأخرى من بعض المفكرين والمثقفين ، فإننا في عالمنا الإسلامي بذلنا ولا زلنا نبذل الكثير من الجهود على هذا الدرب ،

سواء جهود موجهة للعالم الغربي ، أو أخرى تعني بنفس القضية في عالمنا الإسلامي نفسه ، وهذا الجهد المزدوج يتم بصفة خاصة في مصر، وبصفة أخص عبر المؤسسة الدينية متمثلة في الأزهر الشريف ووزارة الأوقاف المصرية ، ودار الإفتاء المصرية ، وغيرها من المؤسسات والهيئات العلمية والثقافية ، ومؤسسات المجتمع المدني ، ولا نغفل أيضاً جهوداً شتى في أرجاء عالمنا العربي والإسلامي على نفس المستويات .

وإذا أردنا أن نسوق أمثلة لتلك الفعاليات والجهود ، فإننا نبدأ من مؤسساتنا الدينية التي ما برح علماء أجلاء فيها ومتخصصون على مستويات علمية راقية — في مواصلة وإتمام جهود أجيال سابقة منذ مطلع القرن التاسع عشر في مجال الدفاع عن الإسلام ، ورد التهم والأباطيل، وتصحيح الكثير من المغالطات والافتراءات، وبنفس هذا البذل الإيجابي ، توجهوا إلى عالمهم الإسلامي، مجددين للخطاب الديني، مبرزين لقدرة الإسلام على استيعاب حقائق العصر والتعاطي بكل ثقة واقتدار مع مستجداته .

ونذكر في هذا الصدى أحاديث وكتابات فضيلة الإمام الأكبر د . سيد طنطاوي شيخ الجامع الأزهر — عن الإسلام ومقوماته ومفاهيمه الحقيقية الصحيحة ، ومنها سلسلة مقالات لفضيلته على صفحات جريدة الأهرام على مدار الأعوام السابقة الأخيرة من الألفية الثالثة ، هذا فضلاً عن كتب صدرت لفضيلته عن المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ومقالات أخرى في" مجلة الأزهر " وجريدة " صوت الأزهر " .

كذلك نذكر في مجال جهود فضيلته ، رده الشهير على البابا بندكت السادس ، بابا الفاتيكان في محاضرته الشهيرة التي أساء فيها لرسول الإسلام " صلى الله عليه وسلم " وقد صدر الرد في كتاب عن مجمع البحوث الإسلامية في أواخر عام ٢٠٠٦م .

ويكتب الدكتور عبد العظيم المطعني - سلسلة من المقالات في جريدة الأزهر ، تجلي الحقائق وترد على مطاعن واتهامات المستشرقين سواء عن جهل أو عن قصد - ضد الرسول " صلى الله عليه وسلم " كما يكتب فضيلته " حقائق القرآن وأباطيل خصومه " - من جزأين عام ٢٠٠٢م .

أما الأستاذ الدكتور محمود فهمي زقزوق في كتابه " هموم الأمة الإسلامية " يتعرض لأهم التحديات التي تواجه الأمة ، ويتعرض بالتصحيح لكثير من المفاهيم المغلوطة سواء تلك التي رسخت في الغرب أو لدى المسلمين،ويطرح مقترحات واقعية وايجابية للجهات المعينة والمسئولة في العالم الإسلامي للتضافر والقيام بأعباء التوعية والدعوة المستنيرة ، والنهوض بالأمة من عوائق الجمود الحضاري والتخلف الفكري ، ونبذ مظاهر العنف والتطرف، والانطلاق نحو التنمية الثقافية والحضارية .

وفضلاً عن مؤلفاته التي رجعنا إلى بعضها وأشرنا إليها ، سواء في متن البحث أو هوامشه فيما يخص الاستشراق وخلفياته الفكرية ، ورؤاه وتصوراته عن الإسلام ، فإنه يكتب أيضاً مبرزاً لحقائق إسلامية راسخة وناصعة في مواجهة حملات التشكيك، خاصة تلك القضايا والحقائق التي دأب الكثيرون في الغرب على ترديدها عن القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم ، والفتوحات الإسلامية وحقيقة الجهاد

في الإسلام ، وموقف الإسلام من قضايا الإنسان وحقوقه ، وكـــذلك موقفه من المرأة والحجاب وتعدد الزوجات ، ويـــبين أيـــضاً ، دعـــم الإسلام لحرية الرأي والاعتقاد، والرد على موقف الكثيرين من الحدود الإسلامية ، كما يتعرض لأسباب تفرق المسلمين ، والإجابة على كثير من التساؤلات حول بعض تعاليم الإسلام وعباداته في الصيام والزكـــاة وبعض تشريعاته في تحريم أكل لحم الخنزير وشرب الخمر ، وتحريم لبس الحرير والذهب على الرجال *٣١

كما يكتب عن علاقة الإسلام بـــالغرب ومـــستقبل الإســـلام في مجتمعاته ، والحوار القائم مع المؤسسات الدينية العالميـــة ، وركـــائز المستقبل الإسلامي في الغرب وأبعاده المتعلقة بالعالم الإسلامي والعـــالم الغربي ، والبعد المتعلق بالمسلمين في الغرب نفسه *٣٢

وبأسلوب منهجي تفصيلي ، يزيل الشبهات ، ويجيب على كثير من الأسئلة حول " الجهاد في الإسلام " – يضيف د. علي جمعـــة مفـــتي الديار المصرية للمكتبة الإسلامية – كتاباً عام ٢٠٠٢م تحت العنـــوان السابق – يتعرض فيه بإسهاب لهذه القضية سواء في جوانبها التنظيريـــة أو نواحيها التطبيقية .

ومن منطلق الشعور العميق بالمسئولية ، وتنفيذاً لما جاء في خطـــاب السيد رئيس الجمهورية في ليلة القدر من عام ١٤٢٢هـــ -٢٠٠٢م – من دعوة إلى تجديد الخطاب الديني ، وانسجام هذه الدعوة التي تبناهـــا كثير من العلماء والمفكرين مع طبيعة الإسلام – التأمت ندوة كبرى في القاهرة ضمت صفوة من علماء مصر وخبرائهـــا لمناقـــشة الخطـــاب الإسلامي ، وكيفية تفاعله مع متغيرات العصر ، ومحاولة ترجمة أبحـــاث

الندوة ودراساتها إلى برامج عمل للدعاة ، وقد دارت نـدوة تجديـد الخطاب الديني هذه حول أربعة محاور هي :

١ – النقد الذاتي للخطاب الإسلامي المعاصر .

٢ – ألوان الخطاب الديني .

٣ – التحديات التي تواجه الخطاب الإسلامي المعاصر .

٤ – مقترحات للارتقاء بالخطاب الإسلامي المعاصر.

وأما الصفوة العلمية التي ضمنتها الندوة فهم طبقاً لترتيب كلمـاتهم فيها :

أ.د. محمود حمدي زقزوق ، أ.د. محمد سيد طنطاوي ،أ . د أحمـد عمر هاشم، أ.د. أحمد كمال أبو المجـد ، أ . السـيد ياسـين، أ.د. مصطفى الفقي، أ.د. صوفي أبو طالب ، أ.د. نعمات فؤاد ، السـفير نبيل بدر، أ.د. محمد كمال إمام "أستاذ الشريعة بحقوق الإسكندرية "، الأستاذ السيد عبد الرؤوف الكاتب الصحفي في الشئون الإسلامية ، أ.د. السيد الشاهد الأستاذ بكلية اللغات والترجمة، أ.د. محي الدين عبد الحليم أستاذ الصحافة بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر أ.د. مصطفى الشكعة عميد أداب عين شمس الأسبق ،أ. د. عبد الله الأشعل مساعد وزير الخارجية ، المرحوم الأستاذ أحمد فراج الإعلامي الكبير، الأسـتاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق نائب رئيس المجلس الأعلـى للـشئون الإسلامية .

في عام ٢٠٠٣ م تصدر مطابع دار الجمهورية عن سلسلة كتاب الجمهورية ، كتاباً من جزأين عـن " مـرض كراهيـة الإسـلام ، الإسلاموفوبيا " للأستاذ الدكتور أحمد عبد الرحمن ، وفيـه يتعـرض

للتعريف بهذا المرض الذي شكل ظاهرة في الغرب خاصة بعد أحداث سبتمبر الشهيرة ويدرس أسبابه ودوافعه وجذوره المتأصلة في الفكر الغربي ، كما يتناول الكتاب المفهوم الخاطيء للإرهاب الإسلامي وما هو الإرهاب الحقيقي وكيف يواجه المسلمون ظاهرة الإسلاموفوبيا ويصل مع فصوله الأخيرة إلى غاية الكتاب وهي الدعوة إلى حوار حضارات ولقاء أديان على أسسٍ سليمة من الفهم والاحترام المتبادل والرغبة الحقيقية في تجاوز كل العقبات على الجانبين.

– وفي يونيو من العام نفسه ، ينعقد المؤتمر العام الخامس عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية "، متخذاً عنواناً له " مستقبل الأمة الإسلامية " عاكساً وعياً بمتطلبات المرحلة ، آملاً أن يشكل فاتحة لعمل جاد منظم للنهوض بالأمة وبشعوبها في كافة المجالات، وقد كان موضوع المؤتمر بالفعل محل اهتمام بالغ من كل الجهات المحلية والإسلامية داخل مصر وخارجها، وقد اشتمل المؤتمر على كلمات ألقيت بالإضافة إلى عدد من البحوث الهامة والتوصيات الصادرة التي تغطي كل هموم الأمة ومشكلاتها تقريباً ومنها كلمات للسيد رئيس الجمهورية وفضيلة الإمام الأكبر وكلمة للبابا شنودة بابا الإسكندرية وكلمة للدكتور حمدي زقزوق وزير الأوقاف وكلمة للدكتور عبد الصبور مرزوق مقرر عام المؤتمر ونائب رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ورسالة موجهة للمؤتمر من د. مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا الأسبق ثم بحوث المؤتمر وتناولت :

وسيطة الحضارة الإسلامية د. أحمد الطيب ، المستقبل السياسي للأمة الإسلامية د. صوفي أبو طالب، واقع الأمة الإسلامية وتحديات العصر د. حمدي زقزوق ، الأمة الإسلامية إلى أين ؟ د. أحمد كمال أبو

المجد المستقبل الاقتصادي للأمة الإسلامية د. أحمد جويلي ، المستقبل الاجتماعي للأمة الإسلامية د. محمد عمارة.

في العام نفسه ٢٠٠٣ يكتب الأستاذ محمد عطية الأبراشي الكاتب الإسلامي المعروف عن " مكانة المرأة في الإسلام " ٣٣٠

بادئاً بوضعيات المرأة الاجتماعية قبل الإسلام سواء المرأة العربية أو المرأة غير العربية في ظل الحضارات التي كانت قائمة في ذلك الوقت ، ويقارن ذلك بوضع المرأة تحت مظلة الإسلام الاجتماعية الوارفة ، وكيف أن الإسلام أنصف المرأة كل الأنصاف، وفصل القول في حقوق المرأة الواضحة الثابتة في الإسلام وتناول مكانة الأم ومنزلتها الرفيعة في التشريع والأخلاق الإسلامية ، كما تحدث عن شريعة الزواج وتشجيع الإسلام على تكوين الأسرة وإرساء كافة الضمانات ووسائل الوقاية والحماية والرعاية للأسرة المسلمة و لم يفته بالطبع الحديث عن قضية تعدد الزوجات وأثبت أن الإسلام ليس أول دين أباح التعدد وبرهن على تعدد الزوجات بين الأمم القديمة ومن العهد القديم كتاب الإسرائيليين والاعتراف بالتعدد أيام المسيح عليه السلام وأوضح أن التعدد في الإسلام ليس مطلقا ، وإنما هو يحدث في حالات معينة ، وحديثه المفصل في الزواج- قادة بالطبع للحديث عن الطلاق وإباحته في كل الشرائع والأديان وكيف أن الإسلام أباح الطلاق بقيود عادلة ودلل من الوقائع والحوادث كيف أن تعطيل شرعة الله في الطلاق يهدد حياة الأسرة واستقرارها ويدفع إلى تفشي الخيانة الزوجية وشيوع الزنا .

وتناول الكاتب من مظاهر تكريم الإسلام وتبجيله لمكانة المرأة ، حق كفله الإسلام لها وهو التعليم وكيف جعله الإسلام فريضة على

كل مسلم ومسلمة وضرب أمثلة كثيرة لنساء مسلمات نابغات وزوجات، وأمهات فضليات كزوجات المؤمنين رضي الله عنهم ، وأمثلة أخرى من حياة المسلمين كان لشخصياتهن الأثر البالغ والنماذج الطيبة لنساء المسلمين وكيف أن المرأة المسلمة مارست أشكالاً كثيرة من الحياة العملية والإدارية في ظل الحضارة الإسلامية فاشتغل نساء كثيرات بالسياسة وتولين القضاء وغيره من المهام العظيمة .

ويعتبر هذا الكتاب الذي نحن بصدده ، استكمالاً لمشروع عن " عظمة الإسلام " بدأه الأستاذ محمد عطية الإبراشي عام ٢٠٠٢م وأصدر فيه جزأين كبيرين تناول فيهما كل ما يتصل بجوانب الإنسانية والرحمة والعدل والحكمة في الدين الإسلامي ، عقيدة وعبادات وتشريعا ومعاملات ٣٤٠

ويتسع مجال تجديد الخطاب الديني ونشاط وجهود الاستنارة الدينية والثقافية على امتداد العالم العربي والإسلامي وتجذب هذه القضية علماء ومفكرين ومثقفين عرب ومسلمين على اختلاف آرائهم ومواقفهم .

ونلاحظ أنه منذ منتصف ثمانينات القرن الماضي ومن خلال متابعتنا لإصدارات " كتاب العربي " وهي سلسلة كتب شهرية تصدر عن مجلة ومؤسسة العربي الكويتية - وجود عدد من المؤلفات الهامة في هذا المجال ، وأيضاً علاقات الشرق والعالم العربي بالعالم الغربي ، فمثلاً يكتب د. محمود السمرة في أكتوبر ١٩٨٤ عن " العروبة والإسلام في أوربا " ، ويكتب د. أحمد كمال أبو المجد في ابريل ١٩٨٥عن " حوار .. لا مواجهة " .

ويكتب د.عبد العزيز كامل المفكر الإسلامي ووزير الأوقاف السابق عن " الإسلام والعروبة في عالم متغير " ، ويناقش د. محمد عمارة موقف الإسلام من قضايا التجديد والتغيير في كتابه الهام عن " الإسلام وضرورة التغيير " الذي أصدره عن نفس الجهة في يوليو ١٩٩٧ ، ويتناول نخبة من الكتاب في يوليو ٢٠٠٧ كثيراً من الشروح والاجتهادات حول " رؤى إسلامية معاصرة " .

فحول " الإسلام وموقفه من التطرف "، يكتب كل من أحمد كمال أبو المجد ، د. عبد الحميد اسماعيل ، المرحوم الشيخ محمد الغزالي، المستشار طارق البشري .

وعن الإسلام والسلطة " ، يكتب د. رضوان السيد المفكر اللبناني، ود. محمد سليم العوا. وحول الإسلام والمفاهيم المعاصرة " يكتب د. محمد جابر الأنصاري (البحرين) والأستاذ فهمي هويدي .

وعن "الإسلام وحقوق الإنسان " يكتب محمد شمس الدين (لبنان)، والأستاذ سيف السيف (السعودية) ود. محمد عمارة ، والأستاذ فهمي هويدي (مصر) . ٣٥*

ويظل مداد التثقيف وجلاء المواقف وتوضيح الرؤى وتصحيح المفاهيم- في الانسكاب عطاء وتواصلاً حتى يومنا هذا ، إلا أننا نتوقف قليلاً عند المؤتمر السابع عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية في عام ١٤٢٦هـ الموافق ٢٠٠٥م ، لما حمله من عنوان دال لمبدأ جوهري من مبادىء ديننا الحنيف ألا وهو " التسامح "وكان عنوان المؤتمر" التسامح في الحضارة الإسلامية "وفضلاً عن الكلمات الهامة التي ألقيت في افتتاحه وأولها كلمة السيد رئيس الجمهورية ، فإن بحوث المؤتمر أبرزت بجلاء هذا المبدأ الإسلامي الأصيل للحضارة

الإسلامية في جميع عصورها وعالجت أيضاً وحدة الأصـــل الإنـــساني وموقفنا نحن المسلمين من الآخر في ظل تعاليم ديننا السمحة وخيريـــة الأمة في الرؤية الإسلامية ، وحقوق غير المسلمين التي كفلها الإسلام لهم في مجتمعاته ،والشخصية القانونية للمرأة المسلمة وغيرهـــا مـــن القضايا الهامة التي تسترشد بالتسامح كمنطلق مبدئي وأساس راســـخ للتعامل بين البشر .

وفي مجال الخطوات الجادة التي تتخذ من قبل العرب والمـــسلمين ، وعلى طريق تصحيح المفاهيم وتعديل الخطابات نسوق مجموعـــه مـــن الآراء تمهد لهذا السبيل ، لمفكرين إسلاميين على النحو التالي :

أ- آراء وأفكار لمفكرين إسلاميين :

يتحدث الدكتور أحمد كمال أبو المجد عن المسلمين والنظام العالمي المتغير ، وكيف يتعاملون معه في ظل الحقائق والمتغيرات الجديدة يقول :

" لا يكاد الباحث أو السياسي يرصد ظاهرة جيـــدة ، أو يـــسجل وقوع حدث من الأحداث ، ويستعد لتحليلـــه وفهمـــه وإدخالـــه في حسبانه عند اتخاذ المواقف وإصدار القرارات حـــتى يقـــتحم الـــساحة حدث جديد يغير صورة الواقع القديم ، ويقتضي الباحـــث وراســـم السياسة ومصدر القرار أن يعيدوا حساباهم في ضوء تلـــك الـــتغيرات المتلاحقة والظواهر التي لا تكاد تثبت على حال .

ولقد شهد العالم خلال السنوات الثلاث الخيرة سلسلة من التغيرات السياسية الكبرى زلزلت أركان" النظام العالمي " الذي تكونت معالمـــه وتحددت قسماته عبر نصف قرن من الزمان في تطور محـــدد الوجـــه موصول الحلقات .

ولقد ظهر على الفور ، مع بداية هذه التغيرات ، أن مركز الزلـــزال يقع في عاصمة الاتحاد السوفييتي ، الذي كان وجوده كقـــوة سياســية وعسكرية وأيديولوجية كبرى ركناً أساسياً من أركان النظام العـــالمي، الذي بدأ في الاستقرار بعد نهاية الحرب العالمية الثانية . والذي قام على أساس انقسام العالم عالمين ، وانقسام القوى الفعالة سياسياً واقتـــصادياً إلى معسكرين كبيرين يتقاسمان النفوذ ويتوزعان السيطرة واقتصادياً إلى معسكرين كبيرين يتقاسمان النفوذ ويتوزعان السيطرة والتحكم في سائر شعوب الأرض . يدين أحدهما بالمذهب الفـــردي الحـــر في الـــسياسة والاقتصاد ، ويدين الآخـــر بالإيديولوجيـــة الماركـــسية والفلـــسفية الاشتراكية في التنظيم السياسي والاجتماعي والاقتصادي .

ومع بداية التحول الأساسي في علاقة المعسكرين الكبيرين ابتعـــاداً عن الحرب الباردة واقتراباً من الوفاق ، بدأت شعوب العالم كلها تعيد النظر في حساباتها ، وتتحسس مواطن الخطر على مصالحها ، ومواطن الفرص الممكنة لخدمة تلك المصالح .

وقد تجددت الحاجة إلى إعادة الحـــسابات واستـــشراف صـــورة المستقبل ، مع التطور السريع الذي تلاحقت بـــه الحـــوادث خـــلال السنتين الأخيرتين والذي تمثل في ســـقوط الأنظمـــة لـــشمولية ذات الأيديولوجية الماركسية في جميع دول أوربا الـــشرقية ، ثم في ســـقوط النظام الشيوعي في " الاتحاد السوفييتي "، وأخيراً في تفكك ذلك الاتحاد وانهياره التام سياسياً واقتصادياً . وإذا كان العرب والمسلمون يدخلون في نطاق ما اصطلح الباحثون على تسمية العالم الثالث، وإذا كانـــت هموم ذلك العالم تتشابه إلى حد كـــبير ، فـــإن للـــشعوب المـــسلمة

خصوصية تتفرد بها وهي تراجع حساباتها وتتطلع إلى تحديد علاقتها بالعالم في ظل نظامه الجديد .

وقبل أن نتحدث عن هذه الخصوصية ، ونرتب على ذلك الحديث أهم نتائجه ، فإننا نسجل — دون دخول في محاولة للفهم الكامل لما جرى — أنه من العسير ، علمياً وعملياً ، الحديث عن نظام عالمي جديد .

ذلك أن الأمر المؤكد أن تغييرات مهمة قد طرأت على خريطة القوى السياسية والاقتصادية في العالم ، وأن عديداً من مكونات النظام القديم قد سقطت واختفت، وأن القوى الباقية في الساحة تتوجه إلى الاتفاق على صيغ وأساليب جديدة للتعامل ، جوهرها الاعتماد المتبادل أو التعاون على مواجهة الأخطار المشتركة الجديدة ، أخطار نفاد الموارد ، وتلوث البيئة ،وانتشار الأوبئة ، بدلاً من التوجه القديم لخوض نزاعات مسلحة تسابقاً على حيازة الموارد والثروات الطبيعية ، وتنافساً — لذلك على النفوذ السياسي الذي يكفل الاستشارة بتلك الموارد.

هذا هو الشيء الوحيد المؤكد. أما صورة النظام الجديد ، وحقيقة القوى المشاركة فيه ،والوزن النسبي لكل منها ، فلا تزال الأمور يصعب الحديث العلمي فيها ، ما دامت التغيرات الكبرى لا تزال تتوالى، وما دامت الصورة المستقرة للأوضاع السياسية والاقتصادية في العديد من مناطق العالم لم تتضح معالمها بعد. لهذا فإن الحديث عن النظام العالمي في أيامنا هذه ينبغي أن يكون حديثاً عن " نظام عالمي متغير " بدلاً من أن يكون حديثاً عن " نظام عالمي جديد " .

وإذا كنا قد أشرنا إلى خصوصية العرب والمسلمين في مواجهتهم لهذا النظام العالمي المتغير، فإننا نحاول الآن وضع النقاط على الحروف توضيحاً لهذه الخصوصية ، وسعياً إلى تحديد أسلوب التعامل الأمثل مع قوى هذا النظام العالمي المتغير .

١ – إن زلزال التغيرات الحادة التي طرأت على موازين القوى السياسية والاقتصادية ، قد وقع ولا يزال يقع في عصر بلغت فيه الثورة التقنية في مجالات الانتقال والاتصال والمعلومات ذروة لم يسبق لها مثيل ،وهي أدت –خلال سنوات قليلة - إلى سقوط الحواجز وانهيار الستار الحديدي ، وتقارب الزمان والمكان وتشابه الهموم والشواغل والاهتمامات ، مما يجعل كثيراً من الساسة والمفكرين يتحدثون عن ثقافة عالمية ذات طابع إنساني تشارك فيه جميع الأمم والشعوب ، تكون أساساً مشتركاً للحياة العقلية والنفسية لشعوب العالم وهي تتهيأ لإقامة نظامها العالمي الجديد . إن مرحلة التطور الحضاري التي يسميها كثير من المؤرخين مرحلة الثورة الصناعية الثانية ، قد عمت خصائصها أركان العالم كله يستوي في ذلك دول التي شاركت مشاركة فعالة في تحقيق تلك الثورة الصناعية ، والدول التي اقتصر دورها على استيراد ثمرات تلك الثورة واستخدام منتجاتها . ولذلك توحدت – إلى درجة كبيرة – مشاكل أكثر الشعوب ، كما توحدت أمالها وتطلعاتها . والسؤال الذي يطرحه المسلمون اليوم على أنفسهم ، كما يطرحونه على سائر الأمم والشعوب ، هو التساؤل عما إذا كان المسلمون شركاء في تحديد معالم الأساس الثقافي والأخلاقي للنظام العالمي الجديد، أم أن ثقافتهم ورؤيتهم العامة للحياة ولأنفسهم ولآخرين تجعل منهم

كياناً مختلفاً مقطوع الصلة في تاريخه وحاضره – بهذه الثقافة . وأنه لا سبيل – بسبب ذلك – لاندماجهم ومشاركتهم في هذا الجهد الجديد.

٢-إن الإجابة عن هذا التساؤل المبدئي لم تتم حتى الآن في إطـــار موضوع قائم على تحديد وخصائص والمعالم الأساسية للثقافة الإسلامية والبحث الجاد عن عناصر اللقاء بينها وبين عناصر الثقافة التي تتجمـــع هذه الأيام لتكون رؤية مشتركة واختياراً جديداً لشعوب العالم . لقـــد تمت المقابلة بين عناصر الثقافة الإسلامية وعناصر الثقافات الأخـــرى ، وخصوصاً ثقافة الغرب في أوربا وأمريكا في إطـــار تـــاريخي صـــنعته ظروف الصراع والمنافسة ، وملابسات حقبة الاســتعمار الـــسياسي والاقتصادي ، بحقبة الحروب الدينية والتبشيرية التي عاصرت – زمنيـــاً على الأقل – تلك الحقبة الاستعمارية . وكان من ثمـــرات ذلـــك أن رسمت للإسلام في الفكر الغربي والعالمي صورة بالغة التشويه ، جوهرها أن المسلمين شعوب متخلفة تحركها رؤى غيبية خالصة ، وعقائد جبرية مطلقة ، تكفر بقوانين السببية ، وتنكر دور الإرادة الإنسانية الحـــرة . كما أضيفت إلى تلك الصورة عناصر أخرى تـــدور كلـــها حـــول " العدوانية " و"الإرهاب " وإكراه الآخرين على العقيدة والفكر والسلوك ظ. واختزلت في هذا السياق فكرة الجهاد الإسلامي وشوهت حقيقتها لتغدوا حرباً عدوانيه شاملة على العالم كله . ولم يكن غريباً أن تكون الثمرة النهائية لتلك التصورات كلها إحساساً بالغربة التامة ، وشـــعوراً باستحالة التواصل الحقيقي ، والتعاون المتبادل لإقامة نظام عالمي جديد مشترك . ولذلك كان الجواب القاطع عن السؤال الذي طرحناه جواباً

بالنفي مؤداه : أن المسلمين هم " الغير ، كذلك كان علـــى امتـــداد تاريخهم ، وكذلك ينبغي أن يظلوا خلال المرحلة الجديدة ، التي تصور فيها الشعوب الأخرى نظاماً عالمياً جديداً يحكم علاقتها في المستقبل .

٣- ولقد شهدت السنوات التي أعقبت أيام دولة إسرائيل إضـــافة جديدة إلى قائمة الحواجز بين المسلمين وبين سائر الشعوب . وذلك بما لجئت إليه الدعايا الصهيونية داخل شعوب الغرب من إثـــارة فكـــرة " المـــيراث اليهـــودي المـــسيحي المـــشترك judes christian heritage " لتتوصل به إلى ضمان انحياز الغرب شعورياً وعقائدياً ، ومن ثم سياسياً وعملياً إلى جانب الدولة الصهيونية في صـــراعها مـــع العرب والمسلمين . ولقد كان من ثمرات نجاح هذه الفكرة ، أن ينحاز الغرب شعورياً وسياسياً إلى إسرائيل لسنوات طويلة انحيازاً أثر كـــثيراً على مسار الصراع السياسي بين العرب وإسرائيل ، ونشطت في ظـــل هذا الانحياز كنائس مسيحية كـــثيرة في الولايـــات المتحـــدة تـــشر " الصهيونية المسيحية " من منطلقات ، ظاهرها ، الاعتقاد المـــسيحي الديني ، وحقيقتها الوقوع تحت تأثير أفكار ومصالح تروج لها وتـــدافع عنها دوائر صهيونية ذات جذور وعلاقات واســـعة داخـــل المجتمـــع الأمريكي والذي يعنينا أن هذا العنصر الإضافي الذي ولد داخل ساحة الصراع العربي الإسرائيلي، قد ساهم في زيادة تشويه صـــورة العـــرب والمسلمين، وفي تعميق الشعور بالغربة والغيرية نحو الإسلام والمـــسلمين إلى حد لا يزال يجعل كثيراً مـــن العقـــلاء والمنـــصفين في الغـــرب – يتساءلون وهم صادقون مع أنفسهم – عما إذا كان للشعوب المسلمة مكان أو دور تؤديه في إقامة النظام العالمي الجديد .

٤- وعلى الجانب الإسلامي ، فإن ملابسات الصراع الحضاري والسياسي قد حملت معها إحساساً قوياً بالخطر الذي يتهدد الهوية الإسلامية كما يتهدد العناصر الأساسية للوجود الحضاري والتميز الثقافي لأمة المسلمين ، وكان رد الفعل الطبيعي أن ترتفع – على الجانب الإسلامي – دعوات العزلة والمحافظة على القديم الأصيل ، والمبالغة لذلك – في توكيد تميز الحضارة الإسلامية واختلاف التصور الإسلامي عن نظائره في سائر الحضارات والشعوب . فاستقر لدى كثير من المسلمين إحساس قوي بالاختلاف الجذري وباستحالة اللقاء مع الآخرين . وأديرت المنافسة الحضارية ، كما أدير الصراع السياسي في كثير من الأحيان ، على أساس النفي المتبادل ، واستحالة العمل المشترك ، حتى صارت الدعوة إلى مثل هذا العمل المشترك تصور على أنها تنازل حتمي عن خصوصية الإسلام ، وإهدار لوظيفته الأساسية في الدعوة إلى الحق الذي يمثله المسلمون وحدهم . وأنها لذلك كله بداية استسلام المسلمين لخصومهم وفنائهم في الحضارات الأخرى الغازية .

٥- والهدف من كتابة هذه السطور كلها تتلخص في كلمتين تقال أولاهما للقادة والدعاة المسلمين، وتقال الأخرى للقادة والباحثين والمثقفين خارج العالم الإسلامي ممن يطرحون على أنفسهم السؤال عن مكان المسلمين من الجهد العالمي لبناء ثقافة عالمية جديدة تكون " بنية تحتية " للنظام العالمي الجديد ، تزوده في منظومة أخلاقية جديدة ذات طابع فردي وجماعي ترسم أسس التعامل بين المم والشعوب على أساس التعاون والتعامل والاعتماد المتبادل بدلاً من الصراع والسباق إلى

التسلح والدخول في حروب إبادة باردة وساخنة كما تفتح مجالاً جديداً للعمل المشترك يتوجه به العمل الثقافي من جديد إلى حماية الإنسان وصيانة حقوقه وحياته ، وترشيد مسيرته على طريق التقدم والبحث عن الرخاء .

أ- فأما الكلمة التي توجه إلى المسلمين فإنها تذكير بوحدة الخالق ، ووحدة الخلق ، ووحدة رسالة الإسلام الذى أوحى به الله لجميع الأنبياء والمرسلين

(**رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل**) – (**وما أرسلناك إلا كافة للناس**) (**قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً**) وهي تذكير كذلك بأن الحق لا يصل إلى الناس إلا من خلال بشير مثلهم (**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه**) وأن العزلة هي العدو الأول للدعاة . وأن الاغتراب مقدمة للعزلة. وهي أمر لم يعد ممكناً ولم يعد جائزاً ،وهي تذكير لهم – كذلك – بأن مسيرة الحضارة الإنسانية قد وصلت بالأمم والشعوب إلى مفترق طرق ، تبحث عنده عن مسار ثقافي وأخلاقي جديد يتدارك الآثار الجانبية المدمرة للحضارة المادية الشيئية التي حل فيها الاستكثار من الثروة محل الحرص على مودة الناس وتعميق الصلات بين الإنسان والإنسان ، وإقامة العدل ،وتيم الفضل ، وإشاعة الرحمة وإفشاء السلام . وأنه إذا كان الإسلام قادراً على الإسهام في تثبيت هذه القيم الغائبة التي يبحث عنها اليوم أكثر الناس فإن مهمة المسلمين أن يكونوا حاضرين مع تلك الشعوب ، وأن يقولوا للناس جميعاً في بر ومودة وتواضع " نحن هنا " ونحن معكم على هذا الطريق . وبغير الإصرار على هذه المعية ، وترجمتها بالقول والسلوك ، فسيبقى

المسلمون في عزلتهم ، وتبقى سائر الشعوب في حيرتها . إنه إذا كانت مرحلة المواجهة في عصر الاستعمار قد أوجبت إصرار المسلمين على تميزهم وحفاظهم على هويتهم ، فإن مرحلة انهيار الحواجز بين الشعوب ، والتوجه إقامة نظام عالمي جديد تقتضي المسلمين أن يقتربوا، وأن يشاركوا وأن يقدموا كل يوم ألف دليل على أنهم شركاء وليسوا غرباء . وأنهم إخوة وأصدقاء ، وليسوا خصوماً ولا أعداء ، وألا يدخروا جهداً في إزالة الصدأ الكثير عن وجه الإسلام المشرق الجميل الذى أراده الله رحمة لعالمين ، فتصوره البعض — وصورة آخرون — على أنه نقمة وحرج وشقاء . على أن الأمر في ذلك كله لا يمكن أن يكون أمر كلمات تقال أو نداءات توجه إلى الآخرين ، يبقى معها واقع المسلمين شاهداً على نقيض ما يقال ، وإنما يحتاج الأمر إلى أن يبدأ المسلمون - داخل — حدودهم — مسيرة نهضوية جديدة يصبح واقعهم بعدها مؤيداً لما يوجهونه للعالم من نداءات وما يزعمونه عن أنفسهم من ادعاءات ، والمسيرة النهوضية التي نتحدث عنها لا بد أن تشمل المحاور الثلاثة الآتية :

١ – براءة سريعة من كل صور انتهاك الحقوق والحريات ، والتزام جديد باحترام الإنسان وتكريمه وتحويل هذا الالتزام الذى يجد أصوله والواضحة والصارمة في توجيهات الإسلام ومبادئه إلى واقع معيش في الحياتين السياسية والاجتماعية على السواء ، فلا تنتهك حقوق الأفراد والأقليات، ولا يستخف بحق المخالفين والمعارضين في أن يعلنوا رأيهم ويجهروا بخلافهم وهم آمنون، كما لا يستخف بحق الجماهير في أن تشارك في إدارة شئونها مشاركة حقيقية لا حجر عليها ولا التفاف من حولها .

٢- توقف عن روح الانطواء ، وقذف الآخرين بالحجارة لمجرد أنهم مختلفون، والبحث عن عناصر الاتفاق والالتقاء بين المسلمين وسائر الشعوب، والتوقف عن العزلة الحضارية التي فرضت على العرب والمسلمين وسائر الشعوب ، والتوقف عن معالجة العزلة الحضارية التي فرضت على العرب والمسلمين عن طريق المبالغة في توكيد تميز الحضارة العربية الإسلامية وإدانة سائر الحضارات إدانة عامة مسبقة تضيع معها فرص التعاون على الخير ، وتبادل الاعتماد مع الآخرين .

٣- تحرير المجتمعات العربية والإسلامية من واقع التخلف والتبعية الاقتصادية، وهو واقع معه الآخرين أن يتعاملوا مع العرب والمسلمين في إطار الشعور بالندية والتكافؤ .. في عصر يوشك فيه تحديد الوزن النسبي للشعوب على أساس ما تملكه من أسلحة الدمار أن يختفي ليحل محله معيار جديد هو معيار القوة الاقتصادية لتلك الشعوب.

ب- وأما الكلمة التي توجه للقادة والمثقفين والباحثين ورجال الإعلام خارج العالم الإسلامي فخلاصتها أن سوء فهم خطير للإسلام قد تراكمت عناصره عبر السنين، وأن فجوة ظالمة وجفوة مصطنعة قد زرعت في أرض العلاقة بين المسلمين وبين سائر الشعوب . وأنه إذا كان المسلمون يكونون – إحصائياً – سدس سكان العالم ، فإن المصلحة والأمانة الموضوعية والحرص على مستقبل الشعوب ، كل هذا يجعل إعادة فتح ملف الإسلام والمسلمين في إطار نظرة إنسانية موضوعية منصفة أمراً لا غنى عنه ولا بديل له . إننا ندعوهم – في هذه السطور – إلى أن يلاحظوا أموراً ثلاثةً :

١- أن المسلمين في النهاية ناس من الناس ، وأنهم أبناء عصرهم أدركوا ذلك أو لم يدركوه ، وأن مشاكلهم في عصر انهيار الحواجز بين الشعوب ، وأنهم - مثلهم - يسعون إلى تحقيق العدل والتقدم وحماية حقوق الإنسان وصيانة حياته على هذا الكوكب المرهق بتخريب الإنسان ، وأنهم يسعون - في النهاية - إلى تحقيق الاعتماد المتبادل وإشاعة السلام بين جميع الأمم والشعوب .

٢- أن ما يسمى " الأصولية " ليس هو التيار الغالب بين المسلمين ، وإنما هو رد فعل له أسبابه ، وله نظائره وأشباهه المعروفة داخل سائر الديانات ، وعلى ساحة بقية الحضارات. وأن الغالبية العظمى من المسلمين لا تقبل أن تسلم قيادها للمتشددين الذين تغيب عن عقولهم وقلوبهم وظيفة الدين الأساسية في تحقيق " الانعتاق " وتوفير الحب والطمأنينة للناس .. كل الناس ، وأنه من الظلم والخطأ الفادح التعامل مع الشعوب المسلمة كما لو كانت كلها جيشاً من الأصوليين. وإن كان هذا اللفظ وارد من الغرب غريباً على تراث الإسلام والمسلمين.

٣- أنه قد آن الأوان لوقف الحملة على الإسلام والمسلمين ، حملة التشويه والتشهير اللذين تضيع معهما الحقيقة ، وتتراجع فرص الاقتراب واللقاء ، ذلك أن هذه الحملة لم يعد لها دور ولا وظيفة في ظل الأوضاع العالمية الجديدة ، والحروب الدينية قد صارت جزءاً من التاريخ ، وموقف الإسلام في هذا لا شبهة فيه ولا غموض ، جوهره أن (لا إكراه في الدين) وخطابه لنبيه صلى الله عليه وسلم : (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ولقد بقي من عالمية الإسلام أن أبوابه مفتوحة لمن شاء ، وأن دعوته إلى الخير موجهة لجميع الناس ، وأن يد أتباعه ممدودة بالخير والسلام إلى جميع الشعوب الآن " حتى

على الفلاح " و" تعالوا إلى كلمة سواء) و(تعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) . وما نظن توجه البشرية في عالمنا هذا الجديد إلا توجها إلى هذه القيم التي نادت بها سائر الأديان، ودعا إليها سائر المنصفين والعقلاء . فهل تجد هذه الدعوة صدى ؟ وهل يستجيب أحد على جانبي الساحة لهذا النداء ؟ "٣٦

وأما الأستاذ الدكتور رضوان السيد فيتحدث عن ثقافة العالم الإسلامي في هذا العالم المتغير والبحث وسط إشكالياته عن هوية يقول في بداية حديثه :

"حاول الأمير شكيب ارسلان قبل سبعين عاماً الإجابة عن السؤال التالي : لماذا تأخر المسلمون ، ولماذا تقدم غيرهم ؟ويلخص السؤال الإشكالية التي شغلت سائر النهوضين والإصلاحيين : إشكالية التقدم، التي سبق عالجها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده و آخرين كثيرين .. وتعكس هذه الإشكالية وجهة نظر أولئك الإصلاحيين والتي ترى أنه بالعلم والتنظيم يمكننا اللحاق بأوربا بل التفوق عليها للفضائل التي تتمتع بها ثقافتنا ويتمتع بها مجتمعنا مما لا يملكه الغربيون . وقد أجاب النهضويون عن هذا السؤال إجابات متعددة تقدم فيها المعرفي على التنظيمي أو العكس ، لكنها كانت دائماً تدور بين هذين الأمرين مع إضافة مسألة ثالثة أحياناً من جانب المحافظين منهم بالقول إن من الأسباب المهمة للغلبة الغربية ترك المسلمين لمقتضيات ومتطلبات دينهم ، ومن هذه المتطلبات أو من أهمها طبعاً : المعرفة والتنظيم !

وتصبح المتغيرات التي طرأت على فهم المسألة الحضارية الكبرى هذه واضحة في ضوء كتاب أبي الحسن الندوي منتصف الخمسينات بعنوان : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ففي حين كانت المسئولية

أيام شكيب أرسلان ، وأحمد فتحي زغلول " أخي سعيد زغلول " مترجم : سر تقدم الإنجليز السكسون " عن انحطاط المسلمين، وتقدم الغربيين عليهم تقع على عاتق المسلمين ، فإن الندوى يوجه النظر هنا إلى ناحية مختلفة تماماً من نواحي أو جوانب هذه الإشكالية : إسهام المسلمين القدامى في حضارة العالم ، وانحراف الحضارة العالمية عن المسار الصحيح نتيجة توقف الإسهام الإسلامي في بنائها وتطورها . ورغم الإيجابية البادية لأول وهلة في هذا المنحى ، والمتمثلة في تنبيه المسلمين إلى الدور العالمي الذي ينبغي أن يعودوا للقيام به ، فإن أثار الانكماشية الإسلامية واضحة في الموضوع والمعالجة : أغرب مسئول مسئولية كبرى عن انحطاط المسلمين . إنها مسئولية تكاد تعادل مسئولية المسلمين أنفسهم . ثم إن الخروج من الانحطاط عند الندوى لا يتمثل بالتعلم والتنظيم بل بالعودة إلى الإسلام وقيمه و أحكامه . وفضيلة العودة لا تتمثل في إقدام المسلمين على التأثير والمشاركة في حضارة العالم من جديد ، بل إلى قدرتهم عندها على العيش في ظل حضارتهم ودينهم ، مستغنين عن الغرب والتغريب ، مزدهرين ، بحيث يتحولون إلى نموذج يحتدي من جانب الآخرين، ويستطيعون التحرر من سيطرة الشرق والغرب .

إن هذه النزعة الاكتفائية التي برزت عشية القطيعة بين القوميين والإسلام، أو بين الإسلاميين والدولة الوطنية الناهضة ، تعاصرت مع أحداث مشابهة أو منذرة في سائر أنحاء العالم الإسلامي عندما بدا أنه موجه جديد للمتغيرات تتحرك على مستوى العالم الإسلامي ، مع

بزوغ الحرب الباردة بين الغرب والاتحاد السوفيتي وكان من جوانب هذه الموجة تصاعد العداء بين المسلمين والعالم المعاصر على المستوى الثقافي كما على المستوى السياسي . كانت باكستان قد قامت منفصلة عن الهند في محاولة لتأسيس دولة قوميتها الإسلام على اختلاف مذاهبه هناك ، والاختلافات الإثنية بداخل المسلمين . وفي إندونيسيا كان الصراع مع الهولنديين يتصاعد ، في الوقت الذي اصطدمت فيه الحركة الوطنية بالمحافظين والإحيائيين المسلمين على حد سواء . وفي الجزائر اتجهت طلائع الشبان المتأثرة باليسار وحركات التحرر إلى أسلوب الحرب الشعبية ضد الاستعمار الفرنسي، دونما دعم قوي من جمعية العلماء الجزائريين النهضوية الطابع في عهد البشير الإبراهيمي خليفة عبد الحميد بن باديس في زعامة الجمعية . وقد غطى الصراع بين القوتين العظميين في المجال العالمي ، على الصراع الآخر الذي كان يحصل على المستوى المحلي السياسي والثقافي بين الإسلاميين من جهة والقوميين والدول الوطنية من جهة ثانية ، لكن الصراع كان على أشده ، وهو لا يزال كذلك حتى اليوم برغم المتغيرات العالمية العاصفة.

لقد تطور لدى الصحويين أو الإحيائيين الإسلاميين تدريجياً منهج النظر إلى سائر المسائل عرف في الستينات بنهج أو نهج التأصيل ، أي إعادة الأمور عند طلائعهم القرآن والسنة وأحياناً القرآن وحسب. وكانت السلفية الوهابية قد عمدت لذلك منذ مطالع القرن العشرين. بل إن السلفيين الهنود واليمنيين " وبعض المغاربة " الذين عرفوا شيخ الإسلام ابن تيمية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر حققوا إنجازات

في مجال الاجتهاد الفقهي بنبذ التقليد، والأعراف الموروثة ، والاتجـاه إلى القرآن والسنة إعادة اكتـشافهما وتأملـهما. بيـد أن البيئـات والظروف المحيطة وقتها ما أحدث مشكلة مع العالم الحديث ، ولا مع التجربة التاريخية الإسلامية ، فقد كانت تلك الدعوة القوية لفتح باب الاجتهاد، ونبذ التقيد، من الممهدات للإصلاحية الإسـلامية المنفتحـة والمجتهدة .

أما الذى أعطى السلفية الجديدة نكهتها الخاصة فكانت الظـروف المحيطة التي جرت الاستعانة بها في سياقها. وهي سوء الفهم الـشامل بين المثقفين الإسلاميين مع الغرب الإمبريالي ، ومع الدولـة الوطنيـة البازغة في ظله ورعايته ، بالاعتناق لقيمه وتنظيماته . ولذا فقد أتـى التأصيل " العودة إلى الأصول " في السياق ليس من أجـل التجـدد ، ولكن تمسكاً بالهوية خوفاً عليها من الضياع علـى كـل المـستويات الشعائرية والاجتماعية والسياسية والثقافية والرمزية. وعنـدما ازدادت القطعية صار التأصيل سلاحاً ذو حدين : لإدانة كل جديد باعتبـاره خارجاً على الأصول ، ولعدم الاعتراف بأي شـيء – وإن لم تظهـر مخالفته للمعروف – إلا إذ أمكن إعادته نصا أو اسـتدلالا إلى أحـد الأصلين .

ولذا فقد شـاع في الـستينات والـسبعينات لـدى الإحيـائيين الإسلاميين رفض كل شيء من مخرجات العـالم الجديـد ، وقـراءة النصوص بطريقة تدين الحضارة المعاصرة ، بل والمجتمعات الإسلامية ، إدانة شاملة – على أساس من منهج التأصيل هذا .

بدا مالك بن نبي ، المفكر الإسلامي الجزائري اللاجئ إلى مصر في الخمسينات ، مغرداً خارج سربه ، حينما أصدر كتابيـه : " مـشكلة

الأفكار في العالم الإسلامي - الصراع الفكري في البلدان المستعمرة "، و " مؤتمر باندونغ ". بدا مغرداً خارج سربه لأنه اتجه للتواصل مع الثقافة الحديثة ، ونخب الدولة الوطنية في وقت كان فيه الإحيائيون الإسلاميون بالمشرق كله يتجهون للقطيعة مع الدول الوطنية ، والثقافة الحديثة على حد سواء . كانت الإصلاحية لا تزال حية وقوية في بلدان المغرب العربي ، وكان مالك بن نبي كسائر رفاقه شديدة الوعي بالحضارة الأوربية وقيمها ، وفي الوقت نفسه : حاد الوعي بالنزعة الإمبريالية والعدوانية في تلك الحضارة .وشأن الإصلاحيين المشارقة حتى الثلاثينات ، فقد ظل عميق الاقتناع بأن التواصل مع الغرب ممكن بل ضروري، لكن من موقع الند للند ، وأن مخاوف الإسلاميين الصحويين من أوروبا لا مسوغ لها ، إلا إذا بقينا على انحطاطنا ومنازعاتنا وانقساماتنا .

حالة القابلية للاستعمار. وتجاوزها يكون بالتواصل مع العالم ، بالنهوض الثقافي والعلمي والاقتصادي، والانخراط في العصر . ومن هذا المنطلق اشتد اعتزازه باجتماع زعماء آسيا وإفريقيا الكبار عام ١٩٥ في باندونغ إذ رأى في ذلك مبادرة إعطاء مغزى عالمي للعرب والمسلمين ، للمشاركة في أمن العالم ومصائره . وقد عاد لمعالجة الموضوعين : القابلية للاستعمار ، والمغزى العالمي وأهميته في كتابه " مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.

لاحظ مالك بن نبي أمائر الانكماش في الحركية الإسلامية ، وخشي من تلك الأمائر على مستقبل المسلمين ، ومكانتهم في العالم بعد زوال الاستتباع السياسي والاستعمار العسكري . وما رأى حرجاً

في التعامل مع الدولة الوطنية . فالمهم ما تقوم به ، وليس كيف وصل الحكام إلى السلطة : إن هذه السلطات تسعى إلى إخراج المستعمرين، وتسعى لإقامة جبهة من المتضررين من الحرب الباردة ، وتسعى لإقامة عدالة اجتماعية تخرج المواطنين من جمودهم وعدم اهتمامهم ، وتسعى أخيراً لمناضلة الصهاينة في فلسطين .

لذا فقد رأى أن إقامة الدولة في المشرق ، ضرورة وفرصة ينبغي ألا تفوقها حتى لا نسيء بذلك إلى مواطنينا وبالتالي إلى مستقبلنا .

بيد أن فشل برامج الدولة الوطنية دفع مالك بن نبي إلى صفوف الصحويين أيضاً. فعندما قابلته (والكلام للمؤلف) - في مطلع السبعينات من أجل إجراء مقابلة معه لمجلة " الفكر الإسلامي " التي كانت تصدرها دار الفتوى بلبنان - كان همه منصباً على مهاجمة المستشرقين والمبشرين ، دون أن يقول كلمة عن مشكلة الأفكار، وكيف أن الإسلاميين يستعيرون " بتعبيرات مختلفة " مصطلحات وتكتيكات وسياسات اليساريين والقوميين الذين فشلوا في تحقيق ما وعدوا به.

وهكذا نطل على القرن الواحد والعشرين ، ونحن نحاول الخروج من أزمة متعددة الوجوه ، أعمقها الوجه الثقافي ، الذي استولى عليه الإسلاميون بعد اليساريين، فما كانوا فيه أكفأ منهم بكثير . بيد أن الفوارق بين الأربعينبات حينما بدأ الإسلاميون يدخلون إلى المجال الثقافي والتسعينات كثيرة وكبيرة . ومن أهمها أن المشهد الثقافي ، الذي استولى عليه الإسلاميون بعد اليساريين، فما كانوا فيه أكفأ منهم بكثير. بيد أن الفوارق بين الأربعينات حينما بدأ الإسلاميون يدخلون إلى المجال الثقافي والتسعينيات كثيرة وكبيرة . ومن أهمها أن المشهد

الثقافي الإسلامي ماعدا موحدا في مشكلاته ولا في أطروحاته ، وأن مأزق الصحويين المتمثل في اجتراح قطعية كاملة مع الثقافة الغربية، أعمق وأكثر سلبية من تأزم الإصلاحيين المنقضي والناجم عن الاقتناع العميق بإمكان التواصل مع الغرب من دون حدود .

كان التحول الإسلامي عن القطيعة على المستوى الثقافي قد بدأ أواخر السبعينيات على يد المرحوم الأستاذ إسماعيل راجي الفاروقي وزملائه، الذين أقاموا مؤسسة بأمريكا لإسلامية المعرفة " المعهد العالي للفكر الإسلامي". بذلك حاولوا مخلصين العودة للتواصل دون التخلي عن إشكالية الهوية ، وهي المميزة لفكر الإسلامي المعاصر منذ لحظة ولادته في العشرينيات من هذا القرن . ولأن المعرفة بحد ذاتها "حتى العلوم الاجتماعية ! " لا هوية لها بالمعنى الذي قصدوه ، فقد كانوا يحاولوناجتراح المستحيل . ذلك أن الإحساس بهول القطيعة الثقافية مع العصر على الفكر الإسلامي ، كان ينبغي أن يدفعهم إلى قراءة الفكر الإسلامي الحديث و المعاصر قراءة نقدية لتبين مشكلاته ووجوه خطله وخطره ، بدلاً من نقد الثقافة الغربية دونما كفاءة أو استعداد لذلك. والمعروف أن التوصل إلى نقد البرادجمات يتطلب تراكماً، لا تملكه الثقافة الإسلامية المعاصرة ، ويتطلب أفقاً ثقافياً منفتحاً مستعداً لتقبل غير المألوف أو مناقشته دونما خوف أو وجل وهو ما لا تملكه أيضاً .

لا يبدو الوضع الثقافي العربي الإسلامي مطمئناً إذن . وتفاقم من أزمته المتغيرات على المستويين السياسي والاقتصادي – بمعنى أن البيئات المحيطة لا تساعد على تراكم سريع أو القيام بنقدية جذرية من الداخل. بيد أن المطمئن والواعد أمران: عودة مسائل النظر والتفكير والنقاش

إلى الواجهة،وأن هناك قناعة عميقة لدى الإسلاميين بضرورات الـتغير والتجدد والتواصل مع العالم مـن أجـل الاسـتمرار ،ومـن أجـل المستقبل".٣٧

ويأتي المفكر الإسلامي المعروف الأستاذ فهمي هويدي ليكتـب في إطار تعديد المفاهيم وتصحيح الخطابات فيتحدث عن ظاهرة التعصب وأسبابها وخطورتها على صورة المسلمين يقول :

" لا خشية على أمتنا من التمذهب ، إنما الخوف كل الخوف مـن التعصب ليس سبيلاً إلى الفرقة والفتنة فقط ، لكنه في نفـس الوقـت علامة على التخلف والانحطاط . وبوسع الراصـد لمـسار التـاريخ الإسلامي أن يلحظ في مختلف مراحله وصفحاته ذلك التلازم الـدائم بين التعصب والانحطاط، حتى يكاد الاثنان أن يصبحا وجهين لحقيقـة واحدة .والذين يتصورون الحل في الدعوة إلى الإسلام بـلا مـذاهب " – وهم بيننا أحياء يكتبـون ويرزقـون – يخطئـون التـشخيص والعلاج، أجل أكاد أقول إنهم يفسدون بأكثر مما يصلحون، إذ هـم بهذه الدعوة لا يختلفون كثيراً عمن يدعون إلى إغلاق باب البحـث في علوم الوراثة، بسبب المخاطر التي يمكن أن تنشأ عن تطـور تجـارب التحكم في الأجنة ، بما يؤدي إلى التلاعب في صفات البشر . أو أولئك الذين يريدون وقف استخدام الذرة ، لأنها كانت بلاء على العالم منـذ كانت القنبلة الذرية إحدى ثمارها .إن إساءة استخدام العلم لا تعـالج بإغلاق أبواب المعامل ، كما أن إساءة استخدام الحق لا تقوم بإهداره والدعوة إلى مجتمع بلا حقوق.

كذلك الحال بالنسبة للمذاهب التي كانت مجالاً خـصباً للتجديـد والاجتهاد ، وتعبيراً أصيلاً عن حرية الفكر وثراء عقل أمـة ، وإغنـاء

الواقع الإسلامي بما يلبي احتياجاته أولاً بأول . هذه المزاه ، إذا أسيء تلقيها بشكل أو آخر ، كأن تتحول عند عضهم إلى أديان، أو كأن تودي إلى المنازعات وإراقة الدماء ، لا ينبغي أن تصحح نتائجها بحرمان الأمة في كل ما تمثله من ثراء فكري عظيم. وإذ استبان لنا أن العلاقة بين التعصب والانحطاط هي تعبير عن تلازم النتيجة بالعلاج إلى العرض الذي هو التعصب ، بينما يترك المرضى – الانحطاط - يسرى في جسد الأمة ، ليدمر خلاياه ويهد كيانه .

لنتجه – إذ أردنا – إلى أصل الداء ومنع الشر ، وهو التخلف والانحطاط، ولنحاول في الوقت نفسه أن نضع التمذهب في إطاره الطبيعي، حيث إنه فكر إسلامي يفبد ويحترم ، لكنه لا يلزم ولا يتعبد به . لنحاول أيضاً أن نقرب بين المسافات، ونقيم الجسور بين أتباع المذاهب الإسلامية، وأن نزيل ما بين المسلمين وحجب ، ومن أشواك وألغام ، أثخنت جسد الأمة في الماضي والحاضر بجراح عميقة ، عوقت مسيرتها، وألهتها لتحديتها الحقيقية وقطعت أوصالها في كل حين .

دعك من كون الدعوة إلى الانخلاع من المذاهب – اللا مذهبية كما يسمونها - مستحيلة التحقيق من الناحية العلمية ، وأنها لا تعدو أن تكون نداء يردده بعض الحالمين ، الذين يغيب عنهم أن اقتلاع فكر عمره ألف عام من عقل الأمة وضميرها يمكن أن يتم بخطبة من فوق منبر، أو بتأليف كتاب يقرأه عدة مئات في زمن قصير ، ثم ينسونه ويعودون إلى ما كانوا عليه .

إن التشرذم السياسي حقيقة قائمة، والعالم الإسلامي الذي ملاء الأعين في زمن مضى صار الآن عوالم عدة ، بينها ما بينها من حواجز وحوائل ، لا حية لنا فيها ، ولا أملا منظورا في إزالتها . إذ عمت

البلوى فتقطع الجسد ، وحيل بين اجتماع أطرافه وأوصاله ، فتواضعت أمانينا وأحلامنا، وصرنا أعز من أن نسأل الله رد القضاء ، ولكننا فقط نسأله اللطف فيه !

من هذا المنظور نتعامل مع قضية المـذاهب، داعـين إلى وفـاق لا خصام ، وإلى فهم وتفاهم ، لا إلى قطيعة وتنـازع ، وإلى اجتمـاع والتئام ، لا إلى تقاطع وانفصام .

وثمة نقطة جوهرية هنا ، تتصل بمنهج التعامل مع هذه القضية، ذلك أنه فيما بين المذاهب والفرق الإسلامية هناك العديـد مـن نقـاط الاتفاق، ونقاط الاختلاف، بل هناك العديد من الدعاوي والأقاويـل، الحقيقة والوهمية. وعلى من يريد أن يتناول هذا الموضوع ، أن يحـدد أولاً هدفه : هل يريد الانتصار لمذهب على آخر ؟ أم يريـد تـصفية الحساب مع هذا الفريق أو ذاك ؟ أم يريـد تقريبـاً وتفاهمـاً ؟ هـل يستهدف وحدة الأمة الإسلامية ؟ أم هو أحرص على إنـصاف أهـل السنة مثلاً ، وتسفيه غيرهم ، أو تبيان مواضـع الخطـأ في تعـاليمهم واعتقاداهم ؟

إن من يريد أن يصل إلى اتفاق وتفاهم وتقارب سيجد ألف بـاب مؤد إلى مراده. كذلك من يريد أن يثبت اختلافاً أو يـصفي حـساباً ويسفه رأياً ، فإنه سيعثر على ألف باب أيضاً يوصله إلى ما يريد . إننا في عصر يتجه إلى التكتل والدفاع عن المبادئ أو المصالح . وفي زمـن صار الحوار فيه لغة ضرورية لدوام التعايش ، وتحقيـق المـصالح بـين الأعداء والأصدقاء سواء بسواء ، فها هو حـوار بـين الأمريكـان والسوفييت متصل ويمضي متوازياً مع التنسيق بين الكتلـة الـشرقية ، ومحاولات تحقيق أشكال مختلفة من الوحدة الأوربية ، وهذا حوار بـين

الشمال والجنوب، وذلك حوار إسلامي مسيحي. أما الحوار الــذي لا يزال غائباً عن القائمة فهو الحوار الإسلامي الإسلامي !

وما يدعو إلى المزيد من الدهشة ، بل الحزن والأسى ، أننا ســبقنا هؤلاء جميعاً في محاولة إجراء الحوار. وقمنا به فعلاً في الأربعينيات لكن المحاولة لم يكتب لها الاستمرار وماتت في الستينيات. لقد شهدت مصر عام١٩٤٨ تشكيل لجنة " للتقريب بين المذاهب الإسلامية " ضــمت عدداً من علماء المسلمين في مختلف البلدان والمذاهب ، كــان ذلــك الحوار المنشود سبيلها ، أما هدفها ، فقد تحدد في الاسم الذي تسمت به . وكان الشيخ محمود شلتوت – شيخ الأزهر لاحقاً – هــو أحــد العلماء الناشطين في اللجنة .وعندما كتب قصة التقريــب في الجــزء الأخير من تفسير " مجمع البيان " للطرابلسي ، الذي أقرتــه الجنــة ، وصف اجتماعاتها قائلاً : "كان يجلس المصري إلى جانــب الإيــراني واللبناني والعراقي والباكستاني ، أو غير ذلك من مختلــف الــشعوب الإسلامية ، ويجلس الحنفي والمالك والشافعي والحنبلي بجانب الإمــامي والزيدي ، حول مائدة واحدة ، تدوي بأصوات فيها علم وفيها أدب ، وفيها تصوف وفقه ، وفيها مع ذلك كله روح الأخوة وذوق المــودة والمحبة ، وزمالة العلم والعرفان ".

أصدرت اللجنة مجلة فصلية باسم " رسالة الإسلام " ، كان شعارها المثلث على الواجهة هو الآية الكريمة : " إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون "، بينما سجلت على ظهر الغلاف بعض مواد القانون الأساسي بالجمعية ، التي تنص على أهدافها ومنها :

العمل على جمع أرباب المذاهب الإسلامية الذين باعدت بينهم أراء لا تمس العقائد التي يجب الإيمان بها ، والسعي إلى إزالة ما يكون مــن

نزاع بين شعبين أو طائفتين من المسلمين والتوفيق بينهما . لقد ظل هذا الفريق من علماء الأمة يواصل العمل من خلال تقريـــر اللجنـــة ، ويوجه الخطاب إلى عامة المسلمين عبر مجلة " رسالة الإسلام " طـــوال ١٦ عاماً، أي إلى أن قدر لهذا الجهد الجليـــل أن يتوقـــف للأســـباب سياسية في عام ١٩٦٤.

إن الاختلاف يعد أمراً طبيعياً لا بد من حدوثه لأســـباب عديـــدة تتراوح بين اختلاف المدارك والمعارك والمصالح ، وإذا كـــان الخـــلاف السياسي حول مسألة الإمامة ، هو الذي فتح الباب لظهور الفـــرق في التاريخ الإسلامي ، مما ترتب عليه ظهور الشيعة والخوارج وبينهم فريق الوسط المعتدل الذي عرف باسم " أهـــل الـــسنة ، إلا أن الخـــلاف الاعتقادي والفقهي هو الذي أفرز الكم الأكبر من المذاهب الإسلامية ، الذي هو أكثر ما يعنينا الآن ، في سياق معالجة مشكلة " الآخـــر " في التفكير الإسلامي .

لذلك أنه بعد الخلاف السياسي الذي أعقبه فتنة مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وبعد انتقال الخلافة إلى الكوفة ثم إلى الشام ، ومـــا تخلل ذلك من أحداث جسام ، فإن تلك الأحداث أدخلت إلى دائـــرة الاختلاف أموراً عدة كانت خارجها ، وساعدت على انطواء كل بلد على ما وصلهم من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام ، والنظر إلى ما لدى بقية الأمصار بقدر من التحفظ ، ربما لعب فيه التأييد السياسي أو المعارضة دوراً . وكان العراق بيئة خصبة لتفاعل الأفكار والآراء خاصة في الكوفة والبصرة ، ففيه نشأ التشيع ، وظهرت الجهمية أو الجبرية ،

وهي منسوبة إلى جهم ابن صفوان ، والمعتزلة ، وانتشر الخوارج ، وجمله من أهل الأهواء والبدع . وإلى جانب ذلك فقد اشتهر العراق بأنه بلاد أهل الرأي، فإن أهل الحجاز كانوا على إقتناع بأهم ضبطوا السنة ، إذ كان بالمدينة عشرة ألاف من الصحابة ، ولذا فقد اعتبرت الحجاز بلاد أهل الحديث والأثر . وعندما أخذ واحد من أهل المدينة بالرأي وهو ربيعة بن أبي عبد الرحمن شيخ الإمام مالك فقد كان موقفه لافتاً للأنظار حتى صار لقبه" ربيعة الرأي"!

برزت تلك التيارات الفكرية بعد انقضاء عصر الصحابة التابعين ، أي منذ أوائل القرن الثاني الهجري ، وهي مرحلة تشمل العصر العباسي الأول بوجه أخص، الذي وصل فيه عدد مذاهب أهل السنة إلى ١٣ مذهباً. وإن بقيت منها مذاهب أئمة أهل السنة الأربعة المعروفين، إلا أنه لم يقدر لمذاهب الآخرين أن تنال نفس القسط من الذيوع والانتشار، ومنهم الإمام حسن البصري المتوفي ١١٠هـ، والإمام الأوزاعي ت١٥٧هـ ، والإمام سفيان الثوري ت ١٦٠هـ ، والإمام الليث بن سعد ت١٧٥هـ ،والإمام سفيان بن عيينة ت ١٩٨هـ : وغيرهم.

إن صراعات أهل المذاهب بمختلف فرقهم لم تختف، إذ لا يزال أوار المعارك مستمراً على جبهات عدة ، ممن يزيد من فرقة الصف الإسلامي وتشرذمه ، فالصراع بين السلفيين والمتصوفة لم يتوقف، وقد وصل إلى حد الصدام الذى أراق دماء كثيرة في غرب إفريقيا التي ما زال الناس في بعض بلداها – خاصة السنغال ونيجيريا- يتقاتلون حول ضم اليدين

أثناء الصلاة وإرسالها ، وما زالت الخلافات والمشكلات بين أتباع المذاهب المختلفة قائمة ، تثور حول أمور ليست من جوهر الدين والرسالة . وإذا كان العالم كله يتجه الآن نحو التكتل ، فقد آن الأوان أن نعيد النظر في كثير من دواعي التشرذم والخلاف اللا منطقي ، ونحن في المبتدأ والمنتهى كما يقول الله تعالى : " إن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون " ٣٨٠ .

ب- آراء وأفكار لمثقفين وباحثين عرب :

وعلى درب التواصل والتأسيس لحوار راسخ يتساءل د. فهمي جدعان ، وهو كاتب ومفكر من الأردن عن أسباب الصراع بين الغرب والإسلام " وهل يرجع ذلك إلى ذاكرة تاريخية تحمل إرثا صداميا نكدا ، أم إلى التناظر الديني المسيحي الإسلامي ؟ أم إلى مؤامرة تحاك خيوطها لتدمير العالم الإسلامي لخوفٍ طاغٍ من قوة " إسلام سياسي " راديكالي متصاعد ، أم إلى توطين دولة إسرائيل في بقعة من أرض العرب والإسلام؟أم إلى توطين دولة إسرائيل في بقعة من أرض العرب والإسلام ؟أم إلى جنوح المسلمين إلى تحقير الحضارة الغربية ونعت قيمها بالضلال والفساد ، وامتلاكهم البديل الحتمي للحضارة الغربية ؟أم إلى مجرد حسد وغيرة بإزاء رفاهية الغرب وتقدمه وانتظام أحواله ... أم إلى هذا كله جملاً وتفصيلاً ؟

ويؤكد الكاتب على أنه لم يعد من الضروري التوسع في عرض المفاهيم المتضاربة والتحليلات المعللة للأسباب التي جعلت من داعي

" التقابل " أو الصراع فرضية شارحة للعلاقات المتردية على نحو متعاظم بين الطرفين ، الغرب والإسلام ." ٣٩٠

أما المفكر المصري الدكتور حسن حنفي فيعتبر تعبير" الإسلام والغرب " تقابل مفتعل ويصفه بأنه تقابل خاطئ بين دين وحضارة وثقافة من ناحية وهو الإسلام ، ومنطقة جغرافية تحولت على صورة أو رمز أو مثال من ناحية أخرى وهو الغرب .

ويدلل على وجهة نظره هذه بأن الإسلام حضارة يعيش فيها النصارى واليهود كأحد روافدها ، والمكونين لها ، ساهم فيها العرب والعجم والروم والهنود والصينيون والأسيويون قديماً ، كما ساهم فيها الغربيون والأمريكيون والأفارقة حديثاً .

ويؤكد تدليله ، بأن الإسلام في الشرق وفي الغرب معاص ، في أسيا وفي أوربا ، وفي اليابان وأمريكا ، والغرب كنموذج ومثال موجود في الغرب والشرق في أمريكا واليابان في الشمال والجنوب .

وينتهي الدكتور حسن حنفي إلى نتيجة مؤداها المقدمة التي بدأ بها، وهي أن التقابل بين الإسلام والغرب تقابل غير صحيح نظراً للتداخل الحضاري والجغرافي بين الاثنين : الإسلام والقرب وهو تداخل سكاني وعمراني وثقافي في آن واحد .

كما يؤكد على إبراز الوشائج الثقافية والتأثيرات الحضارية التي سادت لفترات أطول -- علاقة الشرق والغرب ، ويعتبر التقابل التصادمي إنما هو مستوى أخر من التحدي والصراع يخفت تارة ويثار تارة أخرى ، فهو مسكوت عنه ومعلن عنه مرة أخرى .

ويعتبر أن العصور الحديثة في الغرب أبرزت معياره المزدوج ، فقد أعلن الغرب عن حضارة العقل والعلم وحقوق الإنسان في القرن السابع عشر، وتجسد ذلك في مبادئ الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر ، إلا أنه لما بلغ العنفوان الأوربي الذروة في القرن التاسع عشر ، وسيطر على البر والبحر كانت معاييره البناء في داخل الغرب والهدم خارجه ، العقل والعلم والحرية في الداخل ، والتعامل مع الخارج بالأسطورة والخرافة والتسلط .. وهكذا تحطمت القيم الغربية على حدود الجغرافيا .*٤٠

ويوجه نقده إلى النظرية هنتجتون في صدام الحضارات لإعلانه المسكوت عنه وترشيحه للعالم الإسلامي لأن يكون القطب الثاني في مواجهة القطب الأوحد الذي تتربع أمريكا على عرشه بعدد سقوط المعسكر الاشتراكي وزوال خطر الشيوعية .

ويفسر هذا الترشيح للعالم الإسلامي لأنه العالم الحي بتراثه الزاخر بالتساؤلات حول القديم والجديد ، التراث والحداثة ، الأصالة والمعاصرة والذي لم يقطع صلته مع الماضي كما فعل الغرب في بداية العصور الحديثة ، وهو يمتد في التاريخ إبداع حضارة مازالت حية في القلوب تثير الإعجاب والفخر .

كما يرد على اتهام الغرب للإسلام بالأصولية والتسييس ، بأن الأصولية ليست مقصورة على الحضارة الإسلامية بل هي ظاهرة طبيعية في كل حضارة تصل إلى مرحلة التأزم في مسارها التاريخي ، كما أن الأصولية ليست دينية فقط بل هناك أصوليات متعددة فهناك أصولية علمانية وأصولية اقتصادية وأصولية اجتماعية وأصولية سياسية وأصولية ثقافية .

ويوضح د. حسن حنفي أن المعيار المزدوج الذي تمارسه الولايات المتحدة على حد وصفه على نحو مطلق وتمارسه أوربا على نحو نسبي- إنما يولد العداء للغرب ولأمريكا ويؤكد د. أحمد طالب الإبراهيمي الكاتب والمفكر الجزائري المعروف :

أنه " لا مرية في أننا نحن المسلمين من دعاة الحوار ، لا انطلاقاً من مواقف آنية ، ولا استجابة لظروف وقتيه ، ولكن لأن مبادئ ديننا تدعو إلى ذلك وتحث عليه تجسيداً لوحدة النوع الإنساني وترسيخاً لمبدأ سواسية الناس في الخلقة ، وتحقيقاً لإرادة الله عز وجل في جعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا ، ذلك التعارف غير المقصود لذاته ، وإنما لما يثمر من تعاون لخير الجميع "١٠، ولكنه يشدد على تحديد معنى المصطلحات التي نستخدمها قدر الإمكان لأن كثيراً من الالتباس المؤدي إلى الاختلاف، ناتج عن الخلاف حول دلالات المصطلح ، وأن المسألة لا تنحصر في حدود فقه اللغة ، بل تتجاوزها إلى أبعاد سياسية وثقافية وأيدولوجية ، ويحدد د. الإبراهيمي المقصود بالحضارة وعلاقاتها بالثقافة وبحوار الحضارات فيقول : " إن الثقافة في أدنى مستوياتها هي مجموع الاستجابات والمواقف التي يواجه بها شعب من الشعوب – بحسب عبقريته – ضرورات وجوده الطبيعي من مأكل وملبس وتناسل، أما على المستوى الأرفع ، فإن للثقافة أوجهاً ثلاثة :

- تنمية الفكر وترقية الحس النقدي .
- تكوين الحس الجمالي وإرهاف الذوق .
- الاستمساك بالقيم وغرس الحس الأخلاقي .

وإذا كان مفهوم الثقافة يترع إلى الخصوصية ، فإن الحضارة تـــترع إلى العمومية ، فالثقافة هي الحضارة الخاصة بأمة من الأمم لا يشاركها في شأنها أحد ، تحمل صيغة – هذه الأمة وتتسم بسماتها .

ونشكل – نحن العرب – ثقافتنا مع ثقافـــات أخـــر – الفارســـية والتركية الحضارة الإسلامية التي ساهمنا جميعاً في إنشائها وإثرائها .

إن هذه الحضارات الإسلامية – التي سادت الكون بالعلم والعقـــل والعدل في نهاية الألفية الأولى من التقويم الميلادي ، عرفت بعد ذلـــك فترة انحدار ثم فترة انحطاط دامت قرونا ، وهي اليـــوم تواجـــه أزمـــة مزدوجة .

ويصف د. ا؟لإبراهيمي هذه الأزمة بأنها البحث من جهـــة عـــن مشروع نهضوي للتعايش مع العصر، ومن جهة معاناة عداء الحـــضارة الغربية التي تزعم وجود خطر من الإسلام .

ويقرر بوضوح :

" إن تاريخ العلاقات بين الحضارتين الإسلامية والغربية عرف فترات حوار وتفاعل ، وفترات صدام وتطاحن " ٤٢٠

وإذا كانت هذه الحقيقة التي يقررها بوضوح د. الإبراهيمـــي هـــي بالفعل الأمر الحادث مع امتداد المسيرة التاريخية الطويلـــة للعلاقـــات الإسلامية – الغربية فإن حقائق التاريخ تقرر أيضاً أن فتـــرات الحـــوار والتفاعل كانت هي الأرجح والأطول زمناً في ذلـــك الامتـــداد ، وإذا وضعنا في الاعتبار أن ظاهرة اللقاء والحوار وهي ظاهرة بشرية طبيعيـــة قد أكدت وجودها وحتميتها خاصة بعد تداعيات ١١ سبتمبر وأفرزت

دعوات جادة وفعاليات نشطة في كل من الغرب والشرق على السواء وأن الساحات الإقليمية والدولية باتت مهيأة بالفعل لإثــراء الحــوار وإزخام التواصل واللقاءات على جميع المستويات الرسمية وغير الرسميــة بذلك كله لم يعد أمام الجميع سوى الخيار الأوحد والمــسار الطبيعــي المحتوم للتواصل الإنساني وسنن الفطرة البشرية وهو المزيد من التعارف والتفاعل والحوار وصدق الخالق العظيم إذ يقول " يا أيها النـــاس إنـــا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا " .

٨- " حوار أم صراع ؟ "

توطئة :

الحوار فعل إنساني وتقليد حضاري ، وممارسة ثقافية رفيعة ، وفى كل العصور ، فى أزمنة السلم والحرب ، بين المنتصرين والمنهزمين ، الفقراء والأغنياء ، الأقوياء و الضعفاء.

وكل حضارة لديها القابلية للحوار والرغبة فى تنمية قيمها وخصوصياتها الثقافية ، ولعل حضارتنا العربية الإسلامية هي الأعلى صوتاً وفعلاً فى مجال الرسالة الحوارية ، خاصة وهى تولى منزلة عليا للعقل والعلم والحرية واحترام الآخر ، وتدعو البشرية للتعارف والتفاهم .

أ- ضرورة الحوار وحتمياته :

لم يكن عالمنا البشرى في حاجه ماسة وملحة للقاء والحوار الحضاري قدر حاجته اليوم في عصرنا هذا ، عصر الألفية الثالثة .

إن الأزمات والمآزق التي يعانيها كوكبنا وعالمنا البشرى لا تخطئها العين ، وهى مآزق جمة ومتشعبة وبالغة الصعوبة والتعقيد ، وليس ثمة مخرج منها وما من سبل للحل سوى بفعل الحوار، ذلك الفعل الإنساني الأصيل المواكب للحياة البشرية ، والوسيلة الأنجع لتجديدها وتطويرها وإزخامها لدوافع التواصل والاستمرار .

وإذا ذكرنا بعضاً من مشاكل عالمنا ومآزقه ، فإنا نسوقها على سبيل الأمثلة وليس على سبيل الحصر ومنها :-

- أزمات سياسية في أكثر من منطقة من عالمنا .

- انفجارات اجتماعية وهجرات سكانية .

- بؤر عدة مشتعلة بالنزاعات والحروب والتهديد النووي .

- فجوات اقتصادية عميقة وتناقص في الموارد الطبيعية خاصة المياه.

- دمار متواصل للبيئة وسط صيحات العلماء والخبراء التحذيرية.

- ارتفاع وتيرة العنف ، ونبرة الغلو والصراعات المذهبية والعراقية.

- التحولات غير المسبوقة في مجالات الثورة التكنولوجية والاتصال التي يصعب معها فهم تأثيرها العميق في القيم والأفكار دون إعمال العقل وتفعيل الحوار .

- صعوبة إدراك حقيقة القواعد والعلاقات والمشاعر والبنى الاجتماعية والروحية التي تقوم عليها الحضارات الأخرى .

- استمرار وجود الصور النمطية لحضارة عند أخرى مما يؤدى إلى تغذية ضروب الكراهية ودوافع العداء .

- الصراع القائم بين محاولات فرض النموذج والهيمنة وبين ثقافة الحوار التي تؤسس للتنوع والتعددية واحترام الآخر .

إن حوار الحضارات يمكن العالم من الاحتكام إلى العقل ومنطقه في كل أمور الحياة والثقافة، ويدعو الإنسان لحب المعرفة وبذل الجهد من أجل العلم والعمل وعمران الكون وإحراز التقدم، فيصبح للحياة معناها الحقيقي حيث يمكن عندئذ صياغة القرن الواحد والعشرين صياغة إنقاذية ، وبقيم إنسانية مشتركة .

ب- فوائد الحوار و مردوداته الإيجابية:

إن الحوار الحضاري يسهم في تثبيت السمة الرئيسة للثقافات الإنسانية ، وهى قابليتها للحوار والتواصل واستجابتها للتطور والاغتناء بالتفاعل ، فيما بينها وإثراء كل منها الآخر .

كما يسهم في عقلنة النزاعات التي قد تنشأ أثناء تثبيت الهويات الثقافية لهذه الحضارات، أو التي تتوالد في ظروف الأزمات الاقتصادية نتيجة حدوث استكاكات بين أبناء الحضارات المختلفة من خلال موجات الهجرات السكانية عبر حدود دوائر هذه الحضارات ، أو تلك النازعات التي قد تسببها هجرات غير شرعية ، وتغذيها فروق ومشكلات سياسية وعقيدية وتاريخية .

إن من فوائد الحوار وغاياته إبطال المناخات المفعمة بالمخاوف ومشاعر العنصرية والكراهية ، وتوفير المناخ الملائم لتبادل الوافد النافع من الثقافة والعلم والخبرة .

إن الحوار بين الحضارات ، يعنى أن نتبادل العلوم والمخترعات وليس مجرد الثقافة والإعلام والآداب والفنون، وإلا كان التبادل الحضاري محدوداً وهنا ينفتح المجال للهيمنة الثقافية ، واحتلال العقل ومسخ الثقافات الأخرى .

إن الحوار لا يعني نسيان أو تجاهل التميز بين الحضارات ، لكن العزلة عن التأثيرات الحضارية الأخرى – أمر صعب ، مثله ، مثل التبعية أو الاستلاب أو الذوبان .

أن الدعوة للحوار الحضاري ، هي دعوه للتسامح والتعايش مع الآخرين وإنكار نزعات التفوق والسيطرة ، وفيها نظرة لقضايا المستقبل المشترك ، وتعبير عن إرادة الحضارات المعاصرة لمعالجة هذه القضايا ، وعن قناعاتها بضرورة التعاون للنجاح في ذلك *٤٣

٩- إشكاليات الحوار بين الغرب والإسلام :

منذ عهد النبوة المحمدية حدث اتصال بين المسلمين والمسيحين، بغية تعرف كل طرف على الآخر ، واجتناب سوء الفهم وما ينتج عنه من توترات، والقرآن الكريم حافل بالمحاورات التي جرت بين المسلمين وأهل الكتاب من اليهود والمسيحيين والتوجيهات الإلهية التي يجب أن يلتزم بها المسلمون، من ذلك على سبيل المثال قول الله تعالى في سورة آل عمران " قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون " الآية ٦٤ .

وبعد انتشار الإسلام في اليمن والشام ومصر وشمال إفرقيا ، ثم الأندلس، كان الحوار يجري بين الطرفين في مستويات عدة من الهدوء إلى الحدة والجدل العنيف والمطاعن المتبادلة وسجل الكتاب من الطرفين كثيراً من تلك المحاورات، على نحو ما رأينا أمثلة لما عرضه د. عبد الرحمن بدوي من نماذج مبكرة ، ومن هذه النماذج المبكرة على المستوى الإسلامي كتاب " الفصل في الملل والأهواء والنحل " للإمام بن حزم على بن أحمد وقد توفي بن حزم سنة ٤٥٦هـ ، وفي العصر الحديث وعصر خضوع المسلمين للاستعمار الغربي- نشط المستشرقون في نقد الإسلام وكتابه ورسوله ورموزه ، وأسرفوا في ذلك إسرافاً شديداً، وبمجرد أن استيقظت الأمة من غفوتها وسباتها الطويل ، قام الكثير من العلماء بمحاورة المهاجمين للإسلام والناقدين له، وألفوا في ذلك الكتب الكثيرة على نحو ما استعرضنا عند حديثنا عن الاستشراق.

وفي الربع الأخير من القرن العشرين عقدت عدة مؤتمرات للحوار الإسلامي- المسيحي، في القاهرة وبيروت وموسكو والخرطوم ووارسو وغيرها .

وكانت حصيلة الحوار ضعيفة ، وكانت المحاورات تستغل لغايات أيديولوجية وسياسة خاصة أثناء حقبة الحرب الباردة .

وفى عام ٢٠٠١م ، ركزت الأمم المتحدة جهودها على الحوار بين الحضارات خاصة بين العالمين الإسلامي والمسيحى، تفعيلاً لقرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة عامى ١٩٩٨ ، ١٩٩٩م ، التي اعتمدت اقتراحاً إيرانياً بضرورة إقرار أرضية مشتركة بين الحضارات كطريق لتدعيم السلام العالمي .

وأعدت لجنة تابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي برنامج عمل مفصل للسنوات العشر التالية يتضمن:-

- تشجيع التبادل الثقافى بين مراكز البحوث .
- عقد الندوات والمؤتمرات لتعميق التفاهم بين الحضارات .
- تشجيع الترجمة من اللغات المختلفة وأنشطة أخرى .

لكن تطبيق القرارات الدولية كان هزيلاً ، فلم يبذل جهد كبير لإنجاز برنامج العمل الذى أعدته لجنة منظمة المؤتمرات الإسلامي ، وربما كانت آراء " هنتجنتون " القائل بصدام الحضارات هي التي حركت الآراء المضادة المؤمنة بتكامل الحضارات وتنوعها وتعاونها غير أن واقع العالم في عالمنا كان ولا يزال – يشهد صدامات دامية وأخرها ما يجري في العراق والسودان والصومال وأفغانستان ، إضافة إلى ما تمارسه إسرائيل من وحشية ضد الفلسطينيين وعجز مجلس الأمن أن يفعل شيئاً واختفاء أنصار الحوار والسلام وسط هذا الضجيج .

وفى نهاية يناير ٢٠٠٢ ، التقى أكثر من زعيم ديني من ١٢ دولة في العالم مدينه " اسيزي " الإيطالية ، تلبيه لدعوة ووجهها إليهم البابا

يوحنا بولس الثاني ، من أجل التضرع إلى الله أن يضع نهاية للأعمال الإرهابية والحروب ، وأن يشيع السلام والتسامح والمودة بين شعوب العالم وحضر ذلك اللقاء عشرة وفود إسلاميه ، ولم تفتهم الإشارة في كلماتهم إلى العدوان الإسرائيلي المستمر على الفلسطيني ، وطالبوا بالتصدي له .

وفى ٢٥ يناير ٢٠٠٢ م ، أي قبل اللقاء البابوى بأسبوع ، أقامت " مؤسسة كلينتون " – الرئيس الأمريكي السابق – حلقة بحثية حضرها مائتا باحث وسياسي من بينهم كلينتون نفسه ، لمناقشة موضوع " صوره الإسلام في العالم وعلاقة المسلمين بالغرب "٤٤

وحول هذه اللقاءات والندوات والحوارات التي تمت بين الشرق والغرب نود أن نسجل بعض الملاحظات فيما يلى :

●أن هناك شعوراً لدى كل جانب بأن الجهود التي تبذل في إقامة جسور للثقة والتفاهم بين العالم الإسلامي والغرب تعد جهوداً متواضعة إلى حد بعيد ، ولا ترق بأي حال إلى مستوى المسئولية المشتركة التي ينبغي أن يتحملها الجانبان .

●أن كثيراً من هذه اللقاءات كانت لها من خصائص الحوار من جانب طرف واحد أكثر مما وجب أن يحدث من حوار بين طرفين ، مما يترك انطباعاً بأن إمكانية الحوار الحقيقي غير قائمة وأن كل جانب لم يستطع أن يفهم الآخر .

●أن تأثيرات هذه اللقاءات وجدواها ذات المردود الضعيف ، ترجع إلى افتقارها إلى لغة الحضارة واعتمادها اللغة العادية رغم عدم مساواة هذه بتلك- بسبب تعقد الحضارات وتعدد جوانبها، وإزاء هذه

الظروف يبرز هناك بصفة متزايدة بديل للغة الحضارة يتمثـــل في لغـــة العلم، فالعلم ينبغي أن يزل الفهم ويضع بـــدلاً مـــن ذلـــك فهمـــاً صحيحاً*٥٢

●أن الحوار الجاد ينبغي أن يعد ويخطط له بصورة جيـــدة وشـــاملة بحيث يشمل الأفراد والمؤسسات الدينية وغير الدينية في كل من الغرب والعالم الإسلامي وأن يوجه هذا الجهد الشامل لبناء جـــسور الثقـــة والتفاهم والتبادل.

●أن الحوار قبل أن يبدأ لابد أن تتوافر له أجواء صحية وشـــروط أساسية بحيث تمثل عوامل جوهرية لإنجاحه واستمراره وحصد ثمراتـــه. وهو ما يقودنا إلى الحديث عن بعض الشروط التي يجب توافرها لمثـــل هذا الحوار المرتجي .

وأول هذه الشروط هو تصحيح الصورة المشوهة والرؤية المغلوطـــة عن الإسلام في الغرب وإذا تحدثنا عن تفصيلات هذه الصورة المشروخة المشوهة وتلك الرؤية المغلوطة التي يرى بها الغرب الإسلام أو التي يظهر بها الإسلام في عيون الغرب .

١٠- شروط وعوامل للحوار الجاد :

إن الحوار الذي نريده بين الحضارات ، حوار يحول دون اســـتمرار الحضارات في النظر إلى بعضها البعض من خلال مرآة مكـــسورة، أو تحت تأثير ظروف سياسية ، أو تدفعه مصالح ضيقة ،أو يكون منطلقـــاً من تصورات مسبقة ، أو يكون واقعاً تحت تأثير الميـــديا ، أو تـــسيطر عليه صور ونماذج نمطية .

فالحوار المطلوب إذن والذى يريده الجميع :

●حوار يقوم على الإيمان بوحدة الأصل البشري ، وعلى مبدأ التعارف والتسامح الثقافي في مواجهة العنصرية ونفى الآخرين.

●يؤكد المشترك الإيجابي بين الحضارات، ويقر بأنه لا وجود لحضارات زائفة، ويزيل ذهنية الحصار في عقل بعض الحضارات .

● ينطلق من استعداد كل حضارة لفهم الأخرى، وتجنب إصدار أحكام مسبقة عليها ، والاتفاق على إعادة صياغة صورة الآخر في إطار من التسامح والرغبة المشتركة في بلورة قيم إنسانية .

● وقف عمليات الاستيعاب والهيمنة وعقلنة سلوك الدول داخل هذه الحضارات ومنع استخدام القوة لأغراض نفعية .

●حوار يبطل مناخات العداء والمخاوف ومشاعر العنصرية والكراهية،ويهيئ بفاعلية المناخ الملائم لتبادل الوافد النافع من الثقافة*ه،والعلم والخبرة في الوقت الذي لا يتجاهل فيه التميز والخصوصية. إن المسألة بين الإسلام والغرب ليست بمسألة صدام حضاري على وجه التحقيق، وإنما هي مسألة عوارض تاريخية ذات مخاطر ، وصدام مصالح وغايات تبعث على الخوف وتتطلب الردع .

فالغرب تكمن مصلحته في حماية وجوده وضمان مصالحه والحفاظ على هيمنته الكونية تجاه أي مصدر من مصادر الخطر الكامنة أو الصريحة، وغاياته تحقيق السيطرة الكاملة على " الأغيار".

وفي عالم تسوده المنافسة والمنفعة وطلب الظفر ، تفعل هواجس الخوف وفقدان الثقة والحذر والريبة دوراً حاسماً في توجيه الفعل.

إن المسألة الغربية – الإسلامية لا تخرج عن هذا المنظور .

فما الذي يتعين على كل من الطرفين قوله وفعله ، وما الذي ينتظر من الغرب حامل ألوية الحضارة الحديثة أن يدركه ويراجعه؟

وقبل أن نتناول ما يجب على كل من الطرفين فعله ، نطرح وفق وجهة نظرنا تصورات عامة من أجل طرح إسلامي يسعى إلى العالمية الإسلامية ، لا العولمة النفعية ، وذلك على النحو التالي :

١١– ما يتعين على كل من المسلمين والغرب فعله واتخاذه من إجراءات :

أ–ما يتعين على العرب والمسلمين :–

●التعلق تعلقاً قوياً بصيغة " الإسلام الحضاري " ، وتأكيد ما يسميه الغرب "الإسلام السياسي" ليس إلا إفرازاً زمنياً عارضاً لعالم غاضب محتقن متفجر بسبب شروط وأوضاع خارجية وداخلية تتطلب الدراسة والبحث والعلاج .

●دفع سياسات الإصلاح السياسي والاقتصادي قدماً وما ينتج عن ذلك من امتلاك ثلة أساسية من القيم المدنية والحضارية التي يتطلبها العيش الكريم في عالمنا المعاصر، فالحرية والعدالة والديمقراطية الاجتماعية والخير العام والمواطنة والعقلانية أضحت مقومات أساسية لحياة الفرد والمجتمع في هذا العالم، هذا فضلاً عن أنها في الأصل ضرورات وحقوق إسلامية بموجب التشريع الإسلامي نفسه.

●تحرير الروح الإسلامية في مستوياتها المتباينة من عقدة الخوف من القيم المدنية العليا وليس ثمة ما يمنع من الجمع بين الاعتقاد الديني المستنير وكثيراً من هذه القيم المدنية كالحرية والديمقراطية والعدالة .

●ضرورة الأخذ بالعلم والمنجزات التكنولوجية والتمكن منها والمشاركة بفاعلية في مسيرة التطور التكنولوجي والاهتمام بالبحث العلمي .

●إحياء اتفاقيات التبادل الاقتصادي المشترك وإنشاء السوق العربية المشتركة وتفعيل لجانها وتقريب السياسات الاقتصادية بين الدول العربية والإسلامية كخطوات هامة نحو التكامل الاقتصادي .

●التزام المجتمعات والأفراد بقيم الإسلام الدافعة لتقدم المجتمع بما فيها الوعي بقيمة الوقت ، وقيمة العمل المتقن والارتباط المتين بين العلم والعمل والقول والعمل .

●العمل على التغلب على الخلافات التي تضعف من شأن الأمة وتضر بمصالحها وتفتح الباب لقوى خارجية للتدخل بدعوى فض النزاع وتسوية الخلاف . ٤٦

وإذا كان هناك أهداف أساسية وغايات ضرورية ينبغي على المسلمين تحقيقها وإنجازها بالحوار الحضاري ، فقد وجب على المحاور المسلم أن يضع في اعتباره وأمام ناظريه ثلاثة أهداف أساسية لحواره ، تتلخص فيما يلي :

١ – هدف عقائدي :

وهو تصحيح الصورة المخطئة والمشوهة عن الإسلام عقيدة وحضارة ،والتي يغذيها الهوى السياسي المغرض، ويهولها الإعلام النفعي الذي يقتصر في إدانته للعمليات الإرهابية على مجموعات مسلحة ضيقة في حين يتغاضى عن عمليات الإرهاب على مجموعات مسلحة ضيقة ،

في حين يتغاضى عن عمليات الإرهاب المبرمجة وسياسات الاقتلاع وحرق الأرض الذي تمارسه بعض الدول كما هو الشأن في فلسطين والشيشان وكما يحدث في البوسنة والهرسك .

٢- هدف سياسي :-

إن الحوار لا يكون إلا بين حضارات متكافئة ، وهذا لن يتم ما دامت الحضارة الغربية هي المؤثر واللاعب الوحيد على مسرح الأحداث في العالم خاصة حين يتعلق الأمر بالمحافل التي يصاغ فيها القرار الدولي كمجلس الأمن مثلاً – حيث يتم إقصاء حضارات أخرى وهنا وجب أن يصبح من أولويات المحاور المسلم – أن ينادي بإصلاح المنظمة الدولية ويكون التمثيل فيها عادلاً والكفاح من أجل الحصول على مقعد دائم للدول الإسلامية في مجلس الأمن على الأقل- لتوصيل وجهة نظر العالم الإسلامي ومخاطبة ممثلي العالم بصورة مباشرة

٣- هدف اقتصادي :

إن الأعضاء الدائمين الممثلين في مجلس الأمن هم في الحقيقة يمثلون شعوباً متقدمة وأنظمة اقتصادية قوية ومزدهرة، لذا وجب على المسلمين حين يشاركون في صنع القرار السياسي- أن يكونوا ذوى تأثير اقتصادي والأمر ليس بالصعب أو المستحيل خاصة وأن المسلمين أعضاء أساسيين في منظمة الأوبك وهم يمتلكون كثيراً من المواد الأولية ولهم القدرة على التحكم في أسواق الأوراق المالية ، كما أنهم يمثلون سوقاً هائلة لتصريف الصادرات والمنتجات الغربية .

٤– هدف أخلاقي :

إن أمام المحاور المسلم فرصة سانحة بالحوار الحضاري والثقافي ، أن يحد من ثقافة اليأس وفلسفة المادة والفكر البراجماتي الخالص الذي يسيطر على الحضارة الغربية ويتيح آفاقاً واعدة من التوازن والاعتدال الإنساني ، مما يقلل من أسباب التراع وتوجهات العدمية وانتشار الجريمة والعنف في عالمنا ، واعتبار العلم وإنجازات التكنولوجيا وسيلة لخدمة الإنسان وسعادة البشرية ، وليسا غاية في حد ذاهما .

إن علينا أن نؤكد – أن الحضارة الإسلامية حضارة منفتحة على الكون وعلى الإنسان وأن مرجعها الأول هو القرآن الكريم الذي يأمر المسلمين بالسير في الأرض للانتفاع والإعمار والتعرف على الآخر والاحتكاك به والتقاط الحكمة أينما وجدت ، ويعتبر تمايز الناس لوناً وعرقاً ولساناً – آية من آيات الله ، وأن الإنسان مكرم من الخالق ومن كرمه الخالق فلا حق لمخلوق أن يهينه .

وأخيراً؛ فإن الأفكار لا ترسخ في عقول الناس ولا تخلد في ضمائرهم عن طريق الفرض والإجبار ، ولكنها تدوم وتخلد إذا كانت صالحة في نفسها . ٤٧ *

ب–ما يتعين على الغرب والمحاور الغربي قوله وفعله :

– وقف الحرب الإعلامية والدعائية الشرسة ضد الإسلام ورموزه كبادرة انطلاق وإظهار لحسن النوايا .

– التزام التعددية التي يؤمن بها في المرجعيات الحضارية، لأن أحادية الحضارة الغربية معناها إلغاء المرجعيات الأخرى ومنها المرجعية الإسلامية.

– الاعتراف بقانون تداول الحضارات وأن الحضارة ليست حكراً على أمة دون أمة أو شعب دون شعب .

– ألا يغض الطرف عن المعضلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تقض مضاجع شعوب العالم الإسلامي والتي ثبت ثبوتاً قطعياً أن احتقارها والاستهانة بها لا ينجم عنها إلا التمرد والصدام والعنف .

– إدراك أن " الإسلام السياسي " وهو إفراز زمني عارض كان للغرب نفسه يد طولي في نشأته وتطوره فضلاً عن استخدامه ، فالمفترض أن يوجه الغرب فعله وفقاً لصورة الإسلام

– الحضاري الإنساني ، لا وفقاً لحال الإسلام الغاضب فالصورة المجتزئة للإسلام تجرده من قداسته الدينية والروحية ومن سمته " الحضارية " الرفيعة .

– يتعين على الغرب أن يعدل عن سياسته المزدوجة في دعم النظم الاستبدادية في عالمنا العربي والإسلامي .

– عدم تشجيع الحركات الطائفية والانفصالية وأن يظل الغرب أميناً على قيمه ومنها احترام التعددية الثقافية لا الرغبة في التفكيك العرقي أو المذهبي إضعافاً لخصم متوهم واستيفاء لمتطلبات الهيمنة .

– التدخل الجاد والحاسم لحل معضلة الصراع العربي الإسرائيلي حلا عادلاً منصفاً وإلا ستظل هذه المعضلة بؤرة للتوتر ودوامة للصراع.

١٢- المراهنة على الحوار الحضاري :

في العقد الأخير من القرن العشرين الماضي ، صدرت دراسات مهمة حول الشراكة بين الإسلام والغرب بصفة عامة ، والعرب والغرب بصفة خاصة .

وتمركزت هذه الدراسات حول الشراكة المعرفية ، وقضايا التفاوت والاختلاف، وحوار الحضارات، ومحاولة تصويب الصور المتخيلة بين الغرب والعالم الإسلامي في مختلف الحقب التاريخية .

وأصر الباحثون المتخصصون لدى الجانبيين على ضرورة فتح حوار معمق بينهما لتقريب وجهات نظرهم حول القضايا الخلافية لكي يكون الحوار بين الأنا والأخر مفيداً.

لكن انفجار ١١ سبتمبر ٢٠٠١م أحدث صدمة كبيرة في الأوساط الغربية لدرجة بدا معها كل مسلم وكل عربي متهماً حتى تثبت براءته الدامغة من الإرهاب الدولي ، علماً أن ملايين العرب والمسلمين يعيشون في الغرب منذ عقود طويلة وهناك عدد كبير منهم نال جنسية البلاد التي يعيش فيها ، وقد اكتسب منها العلوم العصرية والتكنولوجيا المتقدمة وبلغاتها الأصلية ، وبالتالي لا علاقة له بالإرهاب ولا بالإرهابيين.

لذلك أثارت ردود الفعل الغربية ضد مواطنيهم من العرب والمسلمين استهجاناً شديداً لدى الرأي العام لعالمي والذي صدم بقتل مواطنين غربيين من أصول إسلامية أو عربية لجرائم لم يرتكبوها ، هذا فضلاً عن التحرش والمضايقات وتقييد الحريات والاعتداء على بعض دور العبادة ، وأن يحدث هذا في بلدان تدعي الحضارة .

هنا تبرز اسئلة حول طبيعة ما جرى ربما كان أكثرها أهمية :

هل كانت ثقافة الغرب عن العرب والمسلمين ضحلة إلى هذا الحد ، لدرجة عدم التمييز بين الفرد المتهم بالإرهاب من غيره ؟

– ما الأسباب التي جعلت النظام الأمريكي يصر على تبني نظرية خاطئة تماماً حول – صراع الحضارات في حين أن النظرية العلمية السليمة هي حوار الحضارات ؟

– لماذا استخدم الرئيس الأمريكي عندما زل به لسانه مصطلح " الحروب الصليبية "– لوصف حربه ضد ما يسمى بالإرهاب الإسلامي، أو الإسلام الفاشستي القادم ؟!

وهل بدت الإدارة الأمريكية على دراية كافية بالمخاطرة الكبيرة التي ستجرها حروبها العسكرية ضد أفغانستان والعراق وربما إيران مستقبلاً – على مصالحها الأساسية للعالمين العربي والإسلامي ؟

– وأخيراً ، لماذا تأخرت الولايات المتحدة الأمريكية طوال نصف قرن عن الدفع بقيام دولة فلسطينية ووضع مشروعها موضع التنفيذ وهي قضية القضايا في عالمنا العربي والإسلامي ؟

ليس من شك إذن أن انفجار سبتمبر كشف عن مأزق العلاقة الثقافية بين العرب والأمريكيين، وبدا واضحاً أن الرأي الأمريكي العام، ومعه الغالبية من كبار المسئولين في الإدارة الأمريكية لا يعرفون الحد الأدنى عن الثقافات العربية والإسلامية ، ولا يميزون بين مبادئ الدين الإسلامي ، وبين قوى سياسية تستخدم الدين استخداماً خاطئاً وتوظفه لأغراض سياسية وهي قوى مدانة أساساً من العرب والمسلمين قبل أن تدان من الغرب .

لقد كشفت توجهات الإدارة الأمريكية في الرد على الإرهاب الدولي عن منحى خطير في العلاقة بين الدول والجماعات الدينية والقومية ، وإذا كنا من أصحاب النوايا الحسنة نقول :

إنه نقص فادح في ثقافة أصحاب القرار الأمريكي حول تاريخ الشعوب العربية والإسلامية وثقافاتها وحضاراتها ، علماً بأن الدراسات العلمية في الولايات المتحدة حول العرب والمسلمين لا تكاد تحصى !

ضف إلى ذلك أن الشعوب الغربية نفسها أنتجت عشرات المنظمات الإرهابية كالنازيين الجدد ، والفاشيين الجدد ، وجماعة الألوية الحمراء ، والباسك، والمافيا الأمريكية وغيرها الإيطالية والروسية ..إلخ.

فلماذا الإصرار على إلصاق تهمة الإرهاب بالعرب والمسلمين دون سواهم ؟!

إن ذلك يتطلب تحليلاً معمقاً للأهمية البعد الحضاري والثقافي في تصويب العلاقات المستقبلية بين الإسلام والغرب وبشكل خاص الولايات المتحدة الأمريكية "٨"

إن علاقة العالمين تحتاج مجدداً إلى تضافر جهود جميع الباحثين لدى الطرفين في جميع المجالات خاصة فيما يتعلق بالحوار الثقافي الذى تبدو فيه قواسم كثيرة مشتركة قابلة للتنامي .

لا بد إذنً من حوار ثقافي مسئول وطويل الأمد لإعادة الاعتبار للحوار بين الثقافات والحوارات وليس للصراع فيما بينها وذلك لكي تسترد الثقة المفقودة بين الجانبين .

١٣-الظروف المهيئة لحوار حضاري مثمر:

إن الاختلافات الحضارية في أساسها ليست اختلافات مطلقة ، من أجل ذلك فإن محاولة التعرف على الآخر تعرفاً حقيقياً أمـــر لا ينبغـــي التخلي عنه .

وإذا كانت هناك شعوب وأمم مختلفة وهي ظاهرة بشرية طبيعية ، فإن هذا الاختلاف يدعوا إلى التبادل والتعارف أكثر ممـــا يـــدعو إلى النفور والاختلاف .

إن المبدأ الإسلامي الأصيل يرى أن التعارف وهـــو الهـــدف مـــن الاختلاف وأن التبادل هو الغاية من التنوع .. قال تعالى : " يا أيهـــا الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعـــارفوا " الحجرات الآية ١٣ .

وفي إطار هذا التعارف لا توجد طبقية أو امتيـــاز لحـــضارة علـــى حضارة أو طائفة على طائفة بأي شكل من الأشـــكال ، فالهـــدف في النهاية أمام الجميع واحد ، ويذكر القرآن دائماً بالمساواة بـــين كـــل البشر، ويرتبط ذلك ارتباطا وثيقاً بمبدأ وحدة الإلوهية ، والمعيار الوحيد للتفاضل بين الناس هو التقوى " إن أكـــرمكم عنـــد الله أتقـــاكم " الحجرات ١٣.

ويشير القرآن في الآية التالية من سورة الحجـــرات إلى أن عقيـــدة التوحيد ليست مجرد كلمات تردد بالألسنة ، وإنما ينبغي أن تـــستقر في الأعماق بإخلاص :

" قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يـــدخل الإيمان في قلوبكم " الحجرات١٤ ، كما أن العقيدة لا يمكن أن تفرض

بالقوة " لا إكراه في الدين " البقرة ٢٥٦ ، وإنما تخضع لإرادة الإنسان وحريته " فمن شاء فليؤمن وممن شاء فليكفر " الكهف ٢٩ .

وعند التحليل الدقيق للمهمة الموكولة إلى كل البشر مـــن مختلـــف الحضارات والمتمثلة في التعارف والفهم المتبادل — فإننا نجد أن الفهـــم الصحيح ليس أمراً واجباً فقط ، وإنما هو أمر جوهري لا يجوز التفريط فيه ، إنه الممارسة التي تتيح للبشر ترسيخ وجودهم الإنـــساني وجعلـــه أكثر عمقاً وثراءً بالاعتراف والتفاهم والتبادل وبذل الجهود السابقة في التعاون والتكافل الإنساني.

إذن لا بد أولاً من توافر نية الفهم الصحيح لدى كل جانب مـــن الجانبين ، وقبلها لا بد من تواجد "روح التسامح وهو أمر ضـــروري ربما نحن في أمس الحاجة إليه أكثر من أي وقت مضى .

إن التسامح يعد شكلاً وأرضية مواتية للهدنة العقلية التي تجعل مـــن السهل الوصول إلى حد بعيد في التأكيد علـــى المـــيراث الإبراهيمـــي المشترك لكل الديانات السماوية ، والتسامح الديني بالنسبة للمسلم أمر من أمور الدين الهامة ، ومبدأ من مبادئ الإيمان " ٤٩

إن مبدأ التسامح يستوجب وقف حملات التشويه والإساءة المتعمدة وبشكل خاص في وسائل الإعلام وأيضاً في الكتب والمناهج الدراســـية والتي يجب أن ترقى إلى مستوى المسئولية والآداء الحضاري المؤســـس على الاحترام والتقدير المشترك .

إن سؤال العلاقة بين الحضارات سؤال تاريخي لا ينبع إلا من واقـــع سيرورة التاريخ وليس نابعاً من مواقف انفعالية وقتية أو مطروح مـــن وجهة نظر ضيقة أو تدفعه مصالح وقتية معينة .

أما الاختلاف الثقافي فليس سبباً للتراع كما أسلفنا .لا بد إذن من جهد متواصل وقراءات نقدية مستمرة مع سـعي حثيـث لتجـاوز المقولات الاستشراقية ، " فبعد أن تلاقى الشرق مع الغرب لن يفترقـا أبداً " هذا ما توقعه الشاعر الألماني الكبير " جوته " .لقد بات عليهمـا أن يتحاورا ليتفاعلا بعمق ، وأفضل حوار هو ما كان من موقع الندية منطلقاً من روح التسامح وإرادة الفهم الصحيح وذلك لحماية المـصالح المشتركة وبناء نظام عالمي جديد بعيد كل البعد عن نزعـات الهيمنـة الثقافية أو التصلت العسكري أو الشوفينية أو الاستعلاء العنصري .

هوامش الفصل الثاني

" تاريخ من العلاقات الشائكة والاسئلة الملتبسة " :

١-جريدة " أخبار الأدب " القاهرية العدد ٦٨٩ – القاهرة ٢٠٠٦/٩/٢٤م .

٢-والعدد ٦٩٠ – القاهرة الأول من أكتوبر ٢٠٠٦ م .

٣-مجلة " علم الفكر " – مقال " صورة الإسلام والمسلمين في الأدب الغربي "د. محمد عصفور – الكويت مايو ١٩٨٤.

٤-"النظام الإعلامي الجديد " مصدر سابق صـ٢٩١ .

٥-نص " كارين آرمسترونج " مجتزأ من كتاب " محمد " للكاتبة من الفصل الأول – الكتاب ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عناني – إصدارات " سطور – القاهرة ١٩٩٨م .

٦-"حضارة العرب " جوستاف لوبون – ترجمة عادل زعيتر – صـ٣٣٩-مكتبة الأسرة " الأعمال الفكرية " ، هـ . م . ع للكتاب – القاهرة ٢٠٠٠م .

٧-المصدر السابق .

٨-المصدر السابق .

٩-" النظام الإعلامي الجديد " مصدر سابق صـ٢٩١.

١٠- " هموم الأمة الإسلامية " د. محمود حمدي زقزوق صـ١٤٥- مكتبة ا؟الأسرة هـ . م . ع للكتاب – القاهرة ٢٠٠١.

١١- أنظر : " الاستشراق في الفكر الغربي " د. محسن جاسم الموسوي – مكتبة ا؟الأسرة هـ . م . ع للكتاب القاهرة ٢٠٠٥م .

١٢- المصدر السابق صـ٢٩ .

١٣- أنظر : " هموم الأمة الإسلامية " د. حمدي زقزوق صـ١٤٥- مصدر سابق ، وله أيضاً في الاستشراق والمستشرقين :

" الإسلام في مرآة الفكر الغربي "

" الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري "

"الإسلام في تصورات الغرب "

١٤- أنظر : د. أنور عبد الملك صـ ٧٠- مجلة (الفكر العربي) عدد ٣١-فبراير ، مارس ١٩٨٣.

د. فؤاد زكريا مجلة (فكر) صـ٣٨ – العدد ١٠ ١٩٨٦م

و" الاستشراق " د. إدوارد سعيد صـ ٣٣٧وما بعدها – لندن- روتلردج وكيجان عام ١٩٧٨م .

١٥- أنظر : دراسة الدكتور القوصي " عبد الرحمن بدوي نجم في سماء الفلسفة " مجموعة دراسات ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة الكتاب التذكاري ، ط الثانية – القاهرة ٢٠٠٢ .

١٦- أنظر: مجلة " سطور " صـ ٤١ ، العدد ٨٤- القاهرة نوفمبر ٢٠٠٣م

17---المصدر السابق صـ ١١ .

١٧- 18-المصدر السابق .

19- مجلة " سطور " صـ ٥٨ العدد ٨٦ – القاهرة يناير ٢٠٠٢.ط

20- " الإسلام والغرب " د. حمدي زقزوق صـ ١٦، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، سلسلة " قضايا إسلامية " العدد ١٠١ ط الثانية – القاهرة سبتمبر ٢٠٠٣م.

21-مقدمة كتاب " حضارة العرب " جوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر صـ ٥ – مكتبة الأسرة هـ . م .ع للكتاب القاهرة سبتمبر ٢٠٠٠.

22-المصدر السابق صـ٨ .

23-المصدر السابق صـ٢٠ .

24-"قصة الحضارة " ويل ديورانت – المجلد السابع صـ ٢٥٣ ، ترجمة محمد بدران ، مكتبة الأسرة ه. م . ع للكتاب – القاهرة ٢٠٠١م .

25- مجلة " أدب ونقد " صـ٥٠ د. محمد عوني عبد الرؤوف (آنـا مـاري شيمل) ، العدد ٢١٣- القاهرة مايو ٢٠٠٣م .

وأنظر : مؤلفات " آنا ماري شيمل " المصدر السابق صـ ٥٢ .

26- عن مجلة " سطور " صـ١٦ مقـال (كـارين آرمـسترونج ومثلـث الإرهاب)- العدد ٧١ ، القاهرة أكتوبر ٢٠٠٢م .

27-المصدر السابق صـ٢١ .

28-" الإسلام والغرب د. محمود زقزوق ، مصدر سابق صـ ٤٧ .

29-" الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر" مونتجمري وات ، ترجمة د. عبـد الرحمن الشيخ صـ٢١٦ مكتبة الأسرة هـ . م . ع للكتـاب ، القـاهرة ٢٠٠١م.

30-" محمد صلى الله عليه وسلم أعظم عظماء العالم " مايكل هارت ، أحمـد ديدات صـ٧ ترجمة علي الجوهري – مكتبة الأسـرة ط الثانيـة ، ه . م . ع للكتاب القاهرة ٢٠٠٥م .

31-أنظر : " حقائق إسلامية في مواجهة التشكيك " د. حمدي زقزوق – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، سلسلة " قضايا إسلامية " العـدد ٧١ – القـاهرة ٢٠٠١م .

32-أنظر :" الإسلام والغرب " د. حمدي زقزوق مصدر سابق .

33-" مكانة المرأة في الإسلام " محمد عطية الأبراشي ، مكتبة السرة ، ه. م . ع للكتاب - القاهرة ٢٠٠٣م .

34- أنظر : " عظمة الإسلام " محمد عطية الأبراشي – مكتبة الأسرة ه. م .ع للكتاب- القاهرة ٢٠٠٢م .

35-أنظر : " رؤى إسلامية معاصرة " مجموعة من الكتاب – سلسلة " كتـاب العربي " ، العدد ٤٥- الكويت – يوليو ٢٠٠١م .

36- المصدر السابق صـ ١٠٨ .

37- المصدر السابق صـ ١٢٦ .

38-المصدر السابق صـ ١٣٢ .

39-" الإسلام والغرب " مجموعة من الكتاب – كتاب " العربي " – العدد ٤٩ صـ١٦١- الكويت يوليو ٢٠٠٢ .

40-المصدر السابق صـ ٢٣٨ .

41-المصدر السابق صـ ١١٥.

42-المصدر السابق صـ ١١٧ .

43-"الإسلام والغرب " سلسلة " كتاب العربي " مصدر سابق صـ ١٢٦..

44-" مرض كراهية الإسلام " د. أحمد عبد الرحمن صـ ٨١ – كتاب " الجمهورية " الجزء الثاني – القاهرة سبتمبر ٢٠٠٣م .

٤٥-" الإسلام والغرب " د. حمدي زقزوق – مصدر سابق صـ ١٢٦ .

٤٦-" الإسلام والغرب " سلسلة " كتاب العربي " مصدر سابق صـ١٢٧

٤٧- أنظر : بيان القاهرة عن المؤتمر الخامس عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية "مستقبل الأمة الإسلامية " سلسلة " قضايا إسلامية " العدد ٢٤٦ – القاهرة ٢٠٠٣م . د

٤٨-الإسلام والغرب " سلسلة " كتاب العربي " مصدر سابق صـ ١٢٣

٤٩- 56المصدر السابق صـ ٢٢٨ ، ٢٢٩ ..

مصادر ومراجع البحث :

أولاً : المصادر :

١- القرآن الكريم.

٢- " المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " وضع محمد فؤاد عبد الباقي ، الطبعة الأولى –دار الحديث للطبع والنشر ، القاهرة ١٩٩٦ .

٣- " رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين " الإمام أبو زكريا يحيى النووي ، الطبعة الأولى دار الريان للتراث القاهرة ١٩٨٧ .

٤- " حضارة العرب " جوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر ، مكتبة الأسرة هـ . م . ع للكتاب ، القاهرة سبتمبر ٢٠٠٠ .

٥- " قصة الحضارة " ويل ديورانت ، ترجمة محمد بدران ، مكتبة الأسرة هـ . م . ع للكتاب القاهرة ٢٠٠١ .

ثانياً المراجع :

٦- " انفجار سبتمبر بين العولة والأمركة " إبراهيم نافع ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ٢٠٠٢.

٧- " الجات والتبعية الثقافية " د. مصطفى عبد الغني ، مكتبة الأسرة القاهرة ١٩٩٩.

٨- " تغيير العالم " د. أنور عبد الملك ، سلسلة " علم المعرفة " ، المجلس الوطني للثقافة ، العدد ٩٥ ، الكويت نوفمبر٨٥ .

٩- " الإسلام والعولمة " محمد ابراهيم مبروك وآخرون ، الدار القومية العربية للنشر ، الطبعة الثانية ، القاهرة يناير ٢٠٠٠ .

١٠- " الإسلام والغرب " سلسلة " كتاب العربي " مجموعة كتاب، العدد ٤٩ ، مؤسسة " مجلة العربي " الكويتية ، الكويت يوليو ٢٠٠٢.

١١- " الثقافة وعصر المعلومات " د. نبيل علي ، الإصدار الثاني ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة ، العدد ٢٧٦ الكويت ديسمبر ٢٠٠١ .

١٢- " الإبداع والحرية " د. رمضان البسطاويسي ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، سلسلة " كتابات نقدية " العدد ١١٩ القاهرة فبراير ٢٠٠٢ .

١٣- " النظام الإعلامي الجديد " د. مصطفى المحمودي ، سلسلة " عالم المعرفة العدد ٩٤ ، المجلس الوطني - للثقافة الكويت أكتوبر١٩٨٥ .

١٤- " آفاق العصر " د . جابر عصفور ، مكتبة الأسرة هـ . م . ع للكتاب ، القاهرة ١٩٩٧.

١٥- " أعلام الفلسفة السياسية المعاصرة " أنطوني كريسي ، كنيث مينوج ، ترجمة د . نصار عبد الله ، مكتبة الأسرة ، القاهرة١٩٩٦ .

١٦- " الاستشراق في الفكر الغربي " د. محسن جاسم الموسوي ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ٢٠٠٥ .

١٧- " عبد الرحمن بدوي نجم في سماء الفلسفة " مجموعة دراسات، الكتاب التذكاري، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ٢٠٠٢م .

١٨- " الإسلام والغرب " د. حمدي محمود زقزوق ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، سلسلة قضايا إسلامية ، العدد ١٠١ ، الطبعة الثانية ، القاهرة سبتمبر ٢٠٠٣ .

١٩- " الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر " مونتجمري وات ، ترجمة د . عبد الرحمن الشيخ ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ٢٠٠١ .

٢٠- " محمد صلى الله عليه وسلم أعظم عظماء العالم " أحمد ديدات ، مايكل هارت ، ترجمة علي الجوهري ، مكتبة الأسرة ، الطبعة الثانية ، القاهرة ٢٠٠٥ .

٢١- " حقائق إسلامية فى مواجهة التشكيك " د. محمود حمدى زقزوق ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، سلسلة " قضايا إسلامية " العدد ٧١ — القاهرة ٢٠٠١ .

٢٢- "مكانة المرأة فى الإسلام " محمد عطية الإبراشى ، مكتبة الأسرة ، هـ . م . ع . للكتاب القاهرة ٢٠٠٣ .

٢٣- "عظمة الإسلام " ، محمد عطية الإبراشي ، مكتبة الأسرة ، هـ . م . ع ، للكتاب القاهرة ٢٠٠٢ .

٢٤- "رؤى إسلامية معاصرة " ، سلسلة " كتاب العربى " مجموعة كتاب ، العدد ٤٥ ، الكويت يوليو ٢٠٠١ .

٢٥- " محمد " كارين آرمسترونج ، ترجمة د . فاطمـــة نـــصر ، د . محمد عنانى ، إصدارات سطور ، القاهرة ،١٩٩٨ . .

٢٦ " مرض كراهية الإسلام . الإســـلاموفوبيا " د. أحمـــد عبـــد الرحمن، كتاب الجمهورية ، الجزء الثانى ، القاهرة سبتمبر ٢٠٠٣ .

ثالثا : دوريات وصحف :

مجلة عالم الفكر ، المجلد الرابع عشر ، العدد الرابع ، المجلس الوطني للثقافة ، الكويت مارس ١٩٨٤ .

مجلة عالم الفكر ، المجلد ٢٩ ، العدد ٣ ، المجلس الوطني للثقافة ، الكويت مارس ٢٠٠١ .

مجلة الهلال ، العدد ١٠٧، دار الهلال ، القاهرة يوليو ١٩٩٩.

مجلة سطور ، الأعداد ٦١ ، ٧١ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٨٦ .

مجلة أدب ونقد ، العدد ٢١٣ ، القاهرة مايو ٢٠٠٣ .

جريدة الأهرام المسائي عدد ٢٠٠٠/٣/٤ .

جريدة الأهرام القاهرية ، ملحق عدد الجمعة . ٢٠٠٠/٣/٣

جريدة الأهرام المسائي عدد ٢٠٠٠/٢/٢٠

جريدة الشعب ، حزب العمل ، عدد ٢٠٠٠/٢/١٨

فهرس الكتاب

الفصل الثاني

تعريف بالكاتب

- أحمد محمد رشاد حسانين (أحمد رشاد حسانين) .
- من مواليد مدينة بورسعيد عام ١٩٥٣م .
- تخرج فى كليه الآداب – جامعة القاهرة عام ١٩٧٦م بتقدير عام جيد جداً .
- يعمل موجهاً بالتربية والتعليم .
- عضو اتحاد كتاب مصر .
- باحث ودارس بمؤتمر أدباء مصر وإقليم القناة وسيناء الثقافي.
- عضو معجم أدباء مصر .
- نشرت مقالاته ودراساته فى معظم الدوريات الأدبية المصرية والعربية منها :
- الثقافة الجديدة ، المحيط الثقافى ، أدب ونقد ، أخبار الأدب ، سطور ، الشعر ، أحوال مصرية ، العربى والكويت (الكويتيتين) ، كما نشرت له مجلة الأدب الإسلامي .

➢ **صدر له :**

- " تأملات فى الثقافة والشعر " – الهيئة العامة لقصور الثقافة- ٢٠٠٠م .
- " اتجاهات تأريخ الأدب العربي في مصر "بورت بلاس للطباعة ٢٠٠١م .
- السرد في شمال شرقي الوطن –دار الأجيال للنشر ٢٠٠٨ .
- الغرب وصناعة الكراهية – دار اكتب وانشر القاهرة ٢٠٠٨م .

➢ **له تحت الطبع :**

- " ظواهر وسمات الإبداع السردي في نصف قرن .. بورسعيد نموذجاً " .

- " الكويت والثقافة العربية " .
- " حرائق الثقافة العربية " .
- " قضايا وهموم ثقافية وأدبية " .
- " إضاءات على إبداعات شرقاوية " .
- دراسات في الإعجاز القرآنى .
- خصائص المعرفة الإسلامية .
- الفكر الإسلامي والنظام العالمي الجديد .
- دفاع عن قضايا المسلمين .

➢ **جائز على :**
- جائزة التفوق العلمي لمحافظة بورسعيد .
- جائزة المقال والبحث – الهيئة العامة لقصور الثقافة .
- جائزة لجنة الدراسات اللغوية والأدبية بالمجلس الأعلى للثقافة عام ٢٠٠٠م .
- جائزة البحث المتميز لعام ٢٠٠٨م الهيئة العامة لقصور الثقافة.

➢ **أعمال ومشاركات ومؤتمرات**
- شارك عضوا عن فرع بورسعيد الثقافى فى مؤتمر أدباء مصر بالمنيا عام ٢٠٠٣ .
- شارك باحثا بمؤتمر أدباء مصر فى بورسعيد عام ٢٠٠٥ م.
- باحث فى مؤتمر اتحاد الكتاب فرع الشرقية والقناة وسيناء عام ٢٠٠٦ م .
- مثل مصر باحثا فى مؤتمر اتحاد الكتاب العرب بالعريش مايو- يونيو ٢٠٠٧
- مثل مصر باحثا فى مؤتمر "الرواية العربية الآن " بالمجلس الأعلى للثقافة القاهرة فبراير ٢٠٠٨ م .
- باحث بمؤتمر اقليم القناة وسيناء الثقافي في دورتة الثانية عشرة بالاسماعيلية – ديسمبر ٢٠٠٨م.

E-MAIL: Ahmed_m_rashad@hotmail.com

تصويبات

رقم الصفحة	السطر	التصويب
٧٩	٥	عالمنا
٨١	٢	وكموقف مبدئي وأصيل
١٣٢	١	ويذكر د. مصطفي المصمودي
١٦٠	الأخير	لحضارة ما بين النهرين
١٦١	٦	وليس لها
١٦١	٧	إلى الإقلال من..
١٧٤	قبل الأخير	تتعامل مع
١٧٤	قبل الأخير	كما كان للمقر البابوي...
١٨٤	١٢	المرحوم الأستاذ السيد عبد الرؤوف
١٩٦	١٦	وقيم الفضل
٢٠١	الأول	"أخي سعد زغلول"

